

تخليص الإبريز في تلخيص باريز



تأليف

رفاعة بدوى رافع الطهطاوى



تقديم

أ.د. يونان لبيب رزق

بمناسبة مرور مائتى عام على عصر محمد على



تخليص الإبريز في تلخيص باريز

إهـــــــداء2005
دار الكتب والوثائق القومية
القاهرة



تخليص الإبريز في تلخيص باريز

تأليف

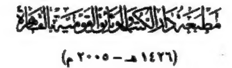
المغفور له

رفاعة بدوى رافع الطهطاوى

تقديم

أ.د. يونان لبيب رزق

بمناسبة مرور مائتي عام على عصر محمد علي



(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

رفاعة الطهطاوى، رفاعة رافع بن بدوى ، 1801 - 1873.
تخليص الأبريز فى تلخيص باريز/ تأليف رفاعة
بدوى رافع الطهطاوى؛ تقديم يونان لبيب رزق . ـ القاهرة:
دار الكتب والوثائق القومية ، 2005.
239 ص ؛ 30 سم.
تدمك 9 - 0399 - 18 - 977

٩١٤,٤

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٥/١٧٢٧٥

I.S.B.N. 977 - 18 - 0399 - 9

دكتور يونان لبيب رزق

مقدمة لكتاب «رفاعة رافع الطهطاوى»

تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز

يعتبر هذا الكتاب من أهم كتب المفكر المصري الكبير، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه من أهم الكتب التي وضعها مصري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .. ومن المثير للدهشة مع قراءة الصفحة الأولى من النسخة الأصلية التي بين أيدينا أن نكتشف خطأين، فالعنوان الشائع له «تخليص الإبريز (في) تلخيص باريز»، بينما عنوانه الحقيقي، كما جاء في المقدمة (تخليص الإبريز (إلى) تلخيص باريز)*. الخطأ الثاني: أن للكتاب اسما آخر في الطبعة التي بين أيدينا؛ «الديوان النفيس بإيوان باريس»، والذي صدره أستاذ المؤلف «شيخ الإسلام حسن العطار» بقوله «إن السفر مرآة الأعاجيب، وقسطاس التجاريب، وقد أودع في هذه الرحلة مؤلفه الأديب الأريب، والفاضل الذكي اللبيب ما شاهده من عجائب تلك البلاد، وأحوال هؤلاء العباد».

وكان الشيخ حسن العطار الذي نصح تلميذه بتسجيل كل ما يراه في رحلته، محقا في وصف ما جاء في الكتاب «بعجائب تلك البلاد»؛ إذ تؤكد قراءته أن مؤلفه قد واجه (صدمة) الفارق الحضاري في كثير من المناحي، والتي لم يكد يعي بها خلال وجود الحملة الفرنسية في البلاد، فيما فعله الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري الشهير، فقد ولد رفاعة عام ١٨٠١ .. عام جلاء الحملة الفرنسية عن البلاد.

ومن حسن الحظ أن تلك الصدمة لم تصب الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين عندما صاحب بعثة ١٨٢٦ الشهيرة، والذي كان قد تلقى تعليمه بالأزهر بكل الاختلافات عن العالم الجديد الذي قصده .. لم تصبه بالارتباك أو بحالة من النفور أو على الأقل النكوص الذي كان متوقعا أن يحدث في مثل هذه الحالة.

لقد نجح الشاب الصغير في امتصاص الصدمة وبأكثر من وسيلة:

* حسب ما جاء في صدر الكتاب وتغيرت إلى (في) صفحة ٥

■ بعقد مقارنة بين الوضع في البلاد الإسلامية والبلاد الإفرنجية التي بلغت «أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية وما وراء الطبيعة: أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية وتوصلوا إلى فهم دقائقها وأسرارها»، وفي محاولته لامتصاص هذا الموقف توقف عند ذلك لينتقل إلى فضل البلاد الأخرى -الإسلامية- فهم لم يهتدوا مثلها «إلى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلى الدين لحق ومنهج الصدق، كما أن البلاد الإسلامية برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، وفي العلوم العقلية وأهملت العلوم الحكمية بجملتها»، وخلص من ذلك إلى القول بأنه لذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه.

■ بمحاولة تحري الموضوعية، وتنحية عواطفه الشخصية جانبا .. عواطف طالب الأزهر الذي تعلم تعليما دينيا، الأمر الذي يمكن رصده في مواقع كثيرة من «تخليص الإبريز» أو «الديوان النفيس»!.

من هذه المواقع ما جاء في الصفحات الأولى من الكتاب من أنه أشهد الله سبحانه وتعالى «على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوايدها على حسب ما يقتضيه الحال، ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل السلام وأشرف التحية»، وعلى الرغم من ذلك القول نكتشف مع قراءة الكتاب أنه كثيرا ما استحسن بعض العادات التي لم تكن شائعة فى البلاد الإسلامية، واكتسبت فى وقت من الأوقات الطابع الديني!.

ومنها أيضا ما جاء فى النبذة التى قدمها عن مدينة الإسكندرية، فقد كان أمينا إلى الحد الذى اعترف معه أن «ما جاء به إنما هو تلخيص عن عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته»!.

ومنها ثالثا مع عرض له من الدستور عام ١٨١٤ الذى سن بعد سقوط الإمبراطور نابليون الأول، فقد أسماه الطهطاوى «بالشرطة»، فاعترف أن أغلب ما فيه وإن لم يرد «فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله وعليه وسلم لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا، والعدل أساس

العمران، وقلوب الرعية خزائن ملكها بما أودعه إياها وجده فيها.. وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل وحفظها من الخلل».

وبلغ رفاعة أقصى الموضوعية عندما عرض لبعض ما جاء بالدستور الفرنسي، فلم يتهيب أن يذكر ما جاء في مادته الخامسة من أن «كل إنسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه أحد فى ذلك بل يعان على ذلك، ويمنع من يتعرض له فى عبادته»، أو ما جاء فى المادة الثامنة: ألا يمنع إنسان فى فرنسا أن يظهر رأيه، وأن يكتبه ويطبعه بشرط أن لا يضر ما فى القانون وفى المادة التي تليها بحرمة سائر الأملاك والأراضى فلا يتعدى أحد على ملك آخر».

وقد شجعه ذلك على أن يتناول فى موضع آخر قضية «الحرية الدينية» حيث لاحظ أن من أسماهم «بالإباحيين» يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب «فإذا ذكرت دين الإسلام فى مقابلة غيره من أديان أثنى على سائرها من حيث إنها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وإن ذكرت له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال إنه لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية، وبالجملة فى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان فلا يُعارض مسلم فى بنائه مسجدا ولا يهودى فى بناء بيعة إلى آخره».

وبدا استنكار الرجل لبعض سلوك الفرنسيين الديني عند حديثه عن «الشرطة»، فذكر بأنه ليس للفرنسيين من دين النصرانية غير الاسم فهم داخلون في اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك، ففي أيام الصيام فى باريس لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت إلا ما ندر كبعض القسوس وبيت ملك الفرنسيس القديم، وأما باقي أهل المدينة فإنهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدا، ويقولون إن سائر تعبدات الأديان التي لا تعرف حكمتها من البدع والأوهام، ولا تعظم القسوس في هذه البلاد إلا في الكنائس عندما يذهب إليهم ولا يسأل عنهم فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف».

ولعل شيخنا لم يتنبه للحركة التي كانت قد اجتاحت فرنسا قبل وصوله بعقود قليلة، ألا وهي الحركة العقلانية Rationalism التي قامت على تقديس العقل، والاحتكام إليه في كل شيء»، واعتبرت أن الإنسان لم يولد بخطيئة آدم مما كان يقنعهم به رجال الدين في العصور الوسطى، وإنما ولد بخطيئة غبائه إذا لم يستخدم عقله .. أعظم هبة إلهية.

ثم إنه في هذا تخلى عن تصنيف الناس على أساس دينهم مما كان مفترضا أن يحدث من شيخ أزهري، فهو مثلا لم يضع الفرنسيين (النصارى) والأقباط المصريين (النصارى أيضا) في سلة واحدة، وعندما كان يدفعه السياق إلى المقارنة بينهما كان ينحاز لجانب الأولين بحكم تفوقهم في كل شيء، مثل على هذا ما جاء تحت عنوان «في الكلام عن أهل باريس» من القول إن «هؤلاء يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم، وليسوا مثل النصارى القبطة في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة وليسوا أسرى التقاليد أصلا بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة»!!

غير أنه من قبيل المبالغة تصور أنه خلع الزي الأزهري تماما، فالرجل بحكم ثقافته فقد حشا الكتاب بالأشعار التي نظم بعضها بنفسه، أو التي عزاها لشاعر بعينه، أو التي اكتفى فيها بعبارة «قال الشاعر».

من النوع الأول تلك القصيدة الطويلة في مدحه «لمصر أم الدنيا» أثناء إقامته بباريس، والتي تضمنت أيضا مدحا «لولي النعمة دام عز دولته»، وقد استهلها بالقول:

ناح الحمام على غصـــون البان	فـأباح شيمة مُغـرمٍ ولهـــانِ
مـــا خلته مـذ صـاح إلا أنـه	أضحى فقيد أليفه ومعـــاني
وكـــأنـه يلقـي إليّ إشـــارة	كيف اصطباري مذ نأى خلاني
مـــع أنني واللـه مذ فارقتهم	ما طاب لي عيشي وصفو زماني

ثم أنهى القصيدة بعدد من الأبيات في مدح ولي النعم، كان مما جاء فيها:

أحيـــا بدولته علومـــا قد غدت	لوضوحها تُجلى على الأذهـانِ
بطـلٌ مكـــارمه الجليلة قلدت	هـامَ الزمان مكـــلل التيجـــانِ
يهنيك يا مصر لقد حـزت البها	بمحـمـد باشـا عليّ الشــــانِ

من النوع الثاني ما عزاه إلى ناظميه القدامى، كقول ابن دريد:

وإنمـــا المـــرء حديث بعـــده	فكن حديثا حسنا لمن وعـى

وكقول الحاجري:

كـل المنازل والبلاد عزيزة عنـدي ولا كمواطني وبلادي.

أما عن أبيات الشعر التي نسبها إلى قائلها ولم يحدد اسمه فحدث ولا حرج، الأمر الذي يدفعنا إلى تسجيل ملاحظة مفادها أن الشعر شكل حجرا أساسيا في مبنى «تخليص الابريز»، حتى إن القسم الأخير من الكتاب (١٥ صفحة) ضم مجموعة من الدواوين الشعرية، له ولغيره من الشعراء المحدثين من أبناء مدرسة الألسن، وقد دارت أغلبها حول مناسبات خاصة بالباشا أو حول مناسبات تخص أعضاء من أسرة ولي النعم..

* * *

لم يختر رفاعة الطهطاوي خلال السنوات التي قضاها في فرنسا الجلوس على مقاعد المتفرجين، وهو الموقع الذي اختاره أغلب أبناء بعثة ١٨٢٦، بل سعى، وبناء على نصيحة أستاذه الشيخ حسن العطار أن يدون كل ما كان يقع تحت باصريه، ويستحق التسجيل، في السياسة، وأحوال المجتمع، والأوضاع الاقتصادية، والحياة الثقافية والفكرية، إلى الحد الذي يستحق معه التوصيف بأنه كان بمثابة صاحب البصيرة النافذة على تلك البلاد لواحد من المصريين المتنورين ..

في السياسة: تصادف أن فترة البعثة التي قضاها شيخنا في فرنسا، والتي امتدت لخمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١)، كانت من الفترات الفارقة في تاريخ تلك البلاد، فهو قد وصل إليها فيما أطلق عليه في أوربا «عهد الرجعية»، والذي ارتبط ارتباطا شديدا باسم مترنيخ مستشار النمسا الذي بذل جهده لإعادة أوربا إلى أوضاع ما قبل الثورة الفرنسية وعصر نابليون (١٧٨٩-١٨١٥)، وقد نجح في إعادة البوربون حيث حكم شقيقان للملك لويس السادس عشر الذي لقي حتفه على أيدي الثوار، لويس الثامن عشر (١٨١٥-١٨٢٤) ثم شارل العاشر الذي حكم حتى عام ١٨٣٠ حين نجح الباريسيون في الثورة عليه وتولية ابن عمه الدوق دي أورليان الذي حكم باسم الملك لويس فيليب.

وكان من الطبيعي أن يتأثر الطهطاوي بما شاهده من نظم سياسية، فاحتل الدستور الذي كان قد صدر في أعقاب سقوط نابليون الأول عام ١٨١٤، والذي أسماه «بالشرطة» Chartier مساحة كبيرة من تخليص الابريز، وكان من الطبيعي أن تحتل ثورة يوليو ١٨٣٠ والتي عاينها بنفسه مساحة لا تقل أهمية.

ولا شك أنه قد استلفت نظر الرجل السلطة التي يتمتع بها البرلمان؛ مجلس النواب الذي أسماه «ديوان رسل العمالات»، ومجلس الشيوخ الذي أسماه ديوان البير Chambre des pairs وقد عني عناية خاصة بهما فيما جاء في المادة الخامسة والثلاثين من «الشرطة» وما تلاها.

فقد جاء في هذه المادة عن الديوان الأول أنه مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخِبون وترتيبها «مصنوع بقوانين مخصوصة»، أما المادة الثامنة والثلاثون فقد اشترطت لصلاحية عضوية ديوان الرسل أن يبلغ عمر المنتخب الأربعين سنة وله أملاك يدفع عليها ألف فرنك فردة، والثانية والأربعون: أن يكون نصف رسل العمالات مستوطنا في تلك العمالة، علنية الجلسات تضمنتها المادة الرابعة والأربعون التي أقرت أن تكون جلساته «جهرية إلا إذا أراد خمسة من رسل هذه العمالات كتم شيء فإنه يجوز إخراج الناس الأجانب من الديوان»!

عن تقييد سلطة الملك نصت المادة الثامنة والأربعون بأنه «لا يمكن أن يُنفذ أمر الملك في الفرد إلا إذا رضي به الديوانان».

أما عن دورات المجلس فهو ما تناولته المادة الخمسون: على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة، غير أنها من جانب آخر خولت الملك حق حل المجلس، ولكن بشروط، فيما جاء في نفس المادة أنه متى أراد الملك أن يبطل ديوان رسل العمالات أن «يصنع ديوان رسل جديدا وأن لا يزيد في تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر».

ومن المثير لدهشة الطهطاوي، ودهشتنا أيضا، أن «الشرطة» سلمت منذ ذلك الوقت المبكر (١٨١٤) بالحصانة البرلمانية فيما جاء في المادة الحادية والخمسين من أنه «لا يُقبض على إنسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان وشهرا ونصف قبل فتحه وشهرا ونصف بعده»!!

ولم يفوت شيخنا الفرصة فأبدى عددا من الملاحظات التي لا يمكن وصفها إلا بالنفيسة بالنسبة لرجل تلقى تعليما دينيا قبل أن يأتي إلى فرنسا ..

من تلك الملاحظات توقفه عند ما جاء في المادة الأولى من أن سائر : الفرنسيس مستوون قدام الشريعة، ومعناه أن سائر من يوجد في بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الاحكام المذكورة في القانون حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره، فانظر إلى هذه المادة فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير!.

منها أيضا ما جاء في المادة الثامنة التي تقوي كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر باله مما لا يضر غيره فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه، ويرى أن الصحافة أقوى الوسائل إلى ذلك، فيتحدث عن السبيل إلى ذلك وهي «الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات، فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية .. وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى إلا أنها قد تتضمن أخبارا تتشوف نفس الإنسان إلى العلم بها سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير؛ لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم»!!

يأتي بعد ذلك في الأهمية في الجانب السياسي الشهادة التي أدلى بها صاحب «تخليص الإبريز» عما رآه من أحداث ثورة ١٨٣٠، والتي انتهت بخلع الملك شارل العاشر، آخر ملوك البوربون، ولجوئه إلى إنجلترا، ولم يكن غريبا بحكم ثقافته أن يتناولها تحت عنوان «في ذكر ما وقع من (الفتنة) في فرانسا»، فهو نظر إليه على أي الأحوال باعتباره من «أولي الأمر» الذين تحسب الثورة عليهم في باب العصيان أو الفتنة.

وقد تعامل مع القضية كلها من هذا المنظور، ففي أول موضوعاته اعتبر ما فعله الفرنسيون (خروجا عن طاعة الملك) وجعل شغله الشاغل إدراك العلة وراء ذلك، وفي الموضوع الثاني رصد التغيرات التي حدثت وما ترتب عليها من (الفتنة)، حتى وصل إلى الموضوع الأخير، الذي جاء تحت عنوان «فيما كان بعد (الفتنة) وفي سخرية الفرنساوية على شرل العاشر وفي عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك».

ولعل ما جاء تحت هذا العنوان يقدم صورة حية للمشهد الأخير من ثورة ١٨٣٠ .. قال الشيخ الطهطاوي: «جاء إلى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر في أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة وبمجرد ما وصل إلى رئيس الوزراء بولنياق Polignac أمر بتسييب (إطلاق) مدافع الفرح والسرور وصار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه حيث أن مراده نفذ وانتصرت الفرنساوية في زمن وزارته على بلاد الجزائر، فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك حتى أن مادة الجزائر نسيت بالكلية، وصار الناس لا يتحدثون إلا بالنصرة الأخيرة، على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط وأخذ منها ما يملكه، والملك الفرنسي خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه، وللزمان صروف تدول وأحوال تحول»!!

الأحوال الاجتماعية: كان المتوقع مع الروح المحافظة التي يفترض غلبتها على شيخ أزهري مثل رفاعة الطهطاوي ألا تقل آراؤه في الأوضاع الاجتماعية للفرنسيس سوءا عن آراء نظيره الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، خاصة أنه لم تكن قد مرت فترة طويلة بين العملين؛ فقد خرج رفاعة في بعثته بعد وفاة الجبرتي بعام أو ما يزيد قليلا.

ما حدث لم يتفق مع هذا التوقع، والسبب -في رأينا- أن شيخ المؤرخين رأى في الفرنسيين قوات احتلال أوربية اغتصبت أحد بلاد المسلمين، هذا من ناحية، ثم إنه من ناحية أخرى كان أغلب من رآهم منهم «الأجناد» فقط، ولم يعرف من المدنيين سوى بعض العلماء الذين استضافوه في المجمع العلمي وحاولوا أن يدهشوه بكافة الوسائل حتى أنه خرج منه وهو يردد قولته «هذه أمور لا تدركها عقول أمثالنا»، على عكس الحال بالنسبة لرفاعة الذي رأى في رحلته الفرنسيين في بلادهم .. بشرا وليسوا أجنادا ومتحضرين وليسوا أجلافا، فوق ذلك فإنه قد ذهب ليكذب قولة الجبرتي ويؤكد على أن أمور التقدم الفرنسي يدركها عقله كما يدركها عقول بقية المصريين النابهين، وكان من الطبيعي مع ذلك أن تختلف الرؤية عند كل من الرجلين.

ونتوقف هنا قليلا عند نقطة بعينها اختلف فيها الرجلان اختلافا بينا، فبينما رأى الجبرتي في نساء الفرنسيس كل ما يشين، فإن المواضع التي تحدث فيها رفاعة عن «المرأة الفرنسية»، كانت في الغالب مليئة بالتقدير والاحترام.

ففي موقع تحدث عن نساء الأرياف في فرنسا، وهم من لم يرهم الجبرتي يقينا، فقال إن الظاهر «في هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك في مدينة باريس، غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء باريس كما هي العادة المطردة في سائر بلاد العمران».

في موقع آخر تحدث عن نساء باريس فرآهن «بارعات الجمال واللطافة حسان المساير والملاطفة يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال في المتنزهات، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك الحال خصوصا يوم الأحد الذي هو يوم عيد النصارى ويوم بطالتهم .. ومما قيل إن باريس جنة النساء وأعراف الرجال وجحيم الخيل، وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو جمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته، أما

الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة، فالخيل دائما معذبة في هذه المدينة»!!

ويعرب الرجل عن دهشته من تصرفات النساء في أيام العطلة إذ يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر «وينفقن عليه مدة سفره معهن لأن النساء أيضا متولعات بحب المعرفة والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها، أوليس أنه قد يأتي منهن من بلاد الإفرنج إلى مصر ليرى غرائبها من الأهرام والبرابي وغيرها، فإنهن كالرجال في جميع الأمور»، كما يعرب عن دهشته أيضا من تلك العادة الفرنسية الشائعة من أنه مع تقادم الزواج «ينام الرجل في أوضة غير التي تنام فيها زوجته»، ولعل عديدا من المصريين يندهشون من مثل هذا التصرف إذا حدث في أحد بيوتهم حتى يومنا هذا!!

في الأوضاع الاقتصادية: عندما ارتحل رفاعة الطهطاوي في بعثته المشهورة إلى فرنسا لم يكن محمد علي باشا قد استكمل مشروعه الاقتصادي، وهو المشروع الذي نقل مصر من العصر الإقطاعي إلى العصر الرأسمالي، حتى لو كانت رأسمالية الدولة State Capitalism، كما شخصها الاقتصاديون.

على عكس الحال في البلاد التي عاش فيها الرجل أغلب سني دراسته، خاصة العاصمة باريس، والتي كانت قد تخلت منذ وقت طويل عن «القيم الإقطاعية» ذات الطبيعة الاستهلاكية، وتحولت إلى القيم الرأسمالية ذات الطبيعة الإنتاجية، والتي يعطي فيها الإنسان على قدر ما يأخذ!!

وفي العادة يستغرب أبناء نظام بعينه السلوكيات التي تسود في ظل نظام آخر وينعتونها بما شاء لهم من نعوت، كما يحدث مثلا في مصر باتهام أبناء بلد بعينها بالبخل، وهي الفكرة السائدة عند المصريين بالنسبة للدمايطة والأسايطة، ولا يتنبه هؤلاء إلى حقيقة مفادها أن هذين البلدين قد سبقا غيرهما من المدن المصرية في التحول إلى النظام الرأسمالي .. دمياط التي ظلت طول العصر العثماني ميناء مصر الرئيسي بحكم تحول علاقتها التجارية إلى شرق البحر المتوسط حيث كانت بلاده تابعة لحكومة استنبول، وأسيوط التي كانت مركزا للتجارة مع الجنوب بحكم كونها المحطة الأخيرة من درب الأربعين الذي يبدأ من السودان.

هذا بالضبط ما حدث لرفاعة خلال الفترة التي عاشها في العاصمة الفرنسية عندما اتهم أبناءها في أكثر من موقع بالبخل، وجاء في أحد هذه المواقع قوله أنه قد جرت النفوس عند أهلها إلى الطمع في الدنيا بما لا تظفر به .. «وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم، إلا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته إلا إذا وثقوا بالمكافأة (خذ وهات). وفي الواقع حقيقة السبب في ذلك هو الكرم في العرب».

ولم يتفهم الرجل أن ما وصفه بالبخل صفة من صفات المجتمع الرأسمالي، كما سبقت الإشارة، عندما أبدى اندهاشه من أن ذلك «لا يمنع توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم وعدم إهمالهم أشغالهم أبدا فإنهم لا يكلون من الأشغال سواء الغني والفقير فكأن لسان حالهم يقول إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .. ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد وعدم الغدر وقلة الخيانة»!

غير أن الاتهام بالبخل لم يمنعه من رصد سائر مظاهر المجتمع الرأسمالي في العاصمة الفرنسية، فتحت عنوان «فعل الخير بمدينة باريس» كتب أن «أغلب الناس ببلاد الإفرنج وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والنجامة فيها يعيشون من كسب أيديهم، فإذا حصل منهم مانع كمرض أو نحوه فقد معيشته .. فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير حتى أن الإنســان لا يسأل ما في أيدي الناس».

وأضاف الشيخ رفاعة أنه «كلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت أهاليها فاحتاجت إلى مارستانات أكثر من غيرها، ومعلوم أن باريس من أعمر المدن وأكثرها صناعة ونجامة فلذلك كثرت مارستاناتها ومواضعها المصنوعة لفعل الخير»!

ولما كان الرجل غير مدرك بدرجة كافية الفارق بين «الإحسان» الذي يسود في المجتمع الإقطاعي أو البدوي وبين «التكافل» السائد في المجتمع الرأسمالي، فقد اعتبر جمعيات فعل الخير بمثابة علاج لخلل شح أفراد المجتمع وبخلهم وأنهم «بمعزل عن الكرم من العرب فليس عندهم حاتم طي، ولا ابنه عدي، ولم يخرج من بلادهم معن بن زايدة الشهير بالحلم والندى»!!.

واستطرادًا لمتابعة رفاعة لطبيعة المجتمع الرأسمالي الذي شاهده في العاصمة الفرنسية، وكان كل ما فيه جديدا على الرجل، كتب تحت عنوان «في كسب مدينة باريس ومهارتها» أن الثابت في أذهان هؤلاء الطوائف «محبة المكسب والشغف به

وصرف الهمة إليه بالكلية، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني حتى أن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة، وسواء في محبة الأشغال العظيم والحقير، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس».

اهتم أيضا بالاشتغال بالأعمال المالية التي لم يرها في بلاده فوصف معاملات الصيارفة بأنها أعظم التجارات وأشهرها في باريس «والصيارفة قسمان؛ صيارفة المملكة أو الميري وصيارفة باريس، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس ما يريدون وضعه ويأخذوا كل سنة ربحه المعين (فلا يعد هذا الربح ربا) إلا إذا زاد عما في القانون، وللإنسان أن يأخذ ما وضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد، ومثل ذلك صيارفة باريس فإنهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة، وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال الذين هم صيارفة المملكة، ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة آمن من المال الموضوع عند صيارفة المدينة».

وعلى ضوء ما جاء في هذه الفقرة فليس محلا للدهشة أن اهتم الشيخ رفاعة بقضية التمييز بين الربح والربا، وهي قضية لا زالت تشغل البعض حتى يومنا هذا، وليس محلا للاستغراب أن يعرب الرجل أيضا عن تعجبه من أن الإنسان يستطيع استرداد ما وضعه عند صيارفة الدولة أي وقت، وهو ما لم يكن معهودا في مصر حيث تحصل الدولة على ما تستحق ولا تستحق ولا ترده أبدا!!.

فارق آخر بين مجتمع كانت لا تزال تسود فيه الملامح الإقطاعية مثل المجتمع الذي جاء منه شيخنا، وبين مجتمع التجارة الذي عايشه الرجل في باريس وما حواليها، فمثل هذا المجتمع الأخير في حاجة ملحة إلى شبكة مواصلات على عكس المجتمع الاستهلاكي الأول الذي يعيش بمبدأ «من اليد إلى الفم».

رصد صاحب «تخليص الإبريز» هذا الفرق فيما جاء في قوله أنه من الأمور التي تعين على الكسب تعمير طرق البر والبحر؛ فمن ذلك صناعة القوارب التي تسير بالدخان ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة والتلغراف ونصب البريد بالساعي والبريد بالخيل وغير ذلك «فانظر إلى مدينة باريس فإن حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر، وفي نهر السين تسير قوارب على صورة عربات وقوارب تمشي بالنار سريعة السير. وبمدينة باريس جملة أنواع من العربات منها عربة لوسق الأمتعة من باريس إلى البلاد البرانية ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه .. وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى الأمنيبوسة معناها لكل الخلق؛ وهي عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق مكتوب على بابها أنها تمشي إلى الحارة الفلانية».

في الحياة الفكرية: المعلوم أن مهمة رفاعة الطهطاوي التي ذهب من أجلها إلى العاصمة الفرنسية كانت تولي إمامة البعثة الأولى التي أرسلها ولي النعم محمد علي باشا إلى تلك البلاد في إطار محاولته لتحديث مصر بالأخذ بالعلوم الغربية.

صحيح أن بعض ما عرفه في تلك البلاد قد اصطدم ببعض معارفه التي تلقاها في الأزهر، غير أنه كان على استعداد أن يتجاوز ذلك وبيسر ..

ففي مارسيليا وعند استبقاء أعضاء البعثة لعدة أيام في الحجر الصحي (الكرنتينة) ذكر ما وقع بين عالمين من علماء المغرب حول شرعية مثل هذا العمل .. الشيخ محمد المناعي التونسي المالكي رفضها بل حرمها اعتمادا على أن في ذلك «فرار من القضاء» بينما رأى الثاني، الشيخ محمد البيرم، وجوبها وألف في ذلك رسالة.

وقد جرته هذه القضية إلى محاورة أخرى بين ذات الشيخين حول كروية الأرض؛ إذ بينما قبل الأول بالحقيقة، التي كان قد توصل إليها الأوربيون قبل ثلاثة قرون، فإن الثاني قد صمم على ما جاء في قول القدماء من أنها منبسطة، وكان رفاعة أذكى من أن يوقع نفسه في خضم جدل كان لا زال دائرا بين علماء الدين حتى ذلك الوقت، فأتى بهذه المعلومات دون تعليق!

بيد أنه بعد وصول الرجل إلى مقصده في باريس وعيشه فيها لأغلب سني بعثته أصبح له موقف آخر عبر فيه عن كثير مما جاء في «تخليص الإبريز» الذي خصص أغلب فصوله للجوانب الفكرية والثقافية، والتي نكتفي بذكر بعض عناوينها هنا ..

فالفصل الخامس جاء تحت عنوان: «في أغذية أهل باريس وفي عوايدهم في المأكل والمشرب»، والفصل الثامن: «في سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس»، والتاسع: في الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية وفي ذكر نبذة من قانون الصحة، تبعه بالمواد الستة لذلك القانون؛ في وصية صحة البدن، فيما يصنع حين يأخذ المرض في الظهور، فيما يصنع حين تمام ظهور المرض، في معالجة الناقة، في وصايا عامة على الصحة وأخيرا في معالجات لجملة علل وأمراض.

غير أن أهم ما جاء في تخليص الإبريز في هذا الشأن ما ضمه الفصل الثالث عشر تحت عنوان «في ذكر تقدم أهل باريس في العلوم والفنون والصنايع وذكر ترتيبهم وإيضاح ما يتعلق بذلك..

وقد تناول الرجل في هذا الفصل مجموعة من القضايا لا زال بعضها محل جدل حتى يومنا هذا، فقارن بين نظام التعليم في فرنسا والنظام الذي كان قد عهده بالأزهر، فكتب الفرنسيين لا يوجد بها شيء من الشرح والحواشي التي امتلأت بها الكتب الدينية «فالمتون وحدها من أول وهلة كافية في إفهام مدلولها، فإذا شرع الإنسان في مطالعة كتاب في أي علم كان، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الألفاظ، فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم، وسائر ما يمكن إنتاجه منها، وأما غير ذلك فهو ضياع»!!.

اهتم أيضا بالمؤسسات العلمية .. مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب، وتوقف طويلا عند تلك الأخيرة فتحدث عن الخزانة السلطانية، ربما كان يقصد الملكية، وفيها ما أمكن تحصيله من الكتب في أي علم كان، وبأية لغة كانت، مطبوعة أو منسوخة «وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التي يندر وجودها بمصر أو بغيرها، وبها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا».

ولم تكن المقارنة بالطبع بين ما شهده رفاعة من خزائن الكتب العامة في باريس وبين ما عرفه منها في مصر في صالح الأخيرة أبدا، فهو عندما ذهب إلى العاصمة الفرنسية كانت خزائن الكتب في بلاده تلك التي توفرت في المساجد وبيوت بعض الأغنياء، وقد اقتصرت على المخطوطات، ذلك أن أول الكتب التي أصدرتها مطبعة بولاق كانت قبل رحيل الطهطاوي إلى بعثته بأربع سنوات فحسب، وكما هو معلوم فقد تخصصت تلك المطبعة أولا في طبع الكتب الدراسية للمدارس التي كان قد افتتحها الباشا وقتئذ، وكان على مصر أن تنتظر طويلا قبل ظهور دار الكتب أو ما عرف بالكتبخانة الخديوية على أيدي علي مبارك باشا عام ١٨٧٠، أي قبل وفاة رفاعة بثلاث سنوات فحسب، أي أن الرجل قد شهد تحقيق حلمه قبل أن يرحل إلى العالم الآخر، ولو بوقت قصير!!



(فهرسة تخليص الابريز في تلخيص باريز)

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

(بيان الخطا والصواب)

خطا	صواب	سطر	صحيفه
التمه	الهمه	١٤	٥٨
تهزوه	تهذيه	١١	١٩١



هذه رحلة الفقير الى الله تعالى

رفاعة بدوى رافع الطهطاوى

الى ديار فرانسا المسماة

بتخليص الابريز الى

تلخيص باريز او الديوان

النفيس بايوان

باريس

تقريظ شيخنا شيخ الاسلام الشيخ العطار شيخ الجامع الازهر على هذا الكتاب

سبحان من أظهر عجائب مصنوعاته * فى اختلاف اوضاع مخلوقاته * وتباين انواع العالم واختلاف هيآته * يرى ذلك بعين الاستبصار * من ولج فى البحار واقتحم القفار * فان السفر مرآة الاعاجيب * وقسطاس التجاريب * وقد اودع فى هذه الرحلة مؤلفها الاديب الاريب * والفاضل الذكى اللبيب * ما شاهده من عجائب تلك البلاد * واحوال هؤلاء العباد * ما يحرض العاقل على الاسفار * والتنقل فى الامصار * حتى يزداد بذلك علما يقينا * ويفوق بالاحاطة بأحوال عباده فى الزمن اليسير ما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا

حرره الفقير حسن العطار

خادم العلم بالازهر

عفا الله

عنه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سبحان من سير اقدام الانام الى ما مضى فى سابق علمه * ويسر للانسان الاقدام على محتم قضائه وحكمه * فلا محيص لقوى وضعيف * ووضيع وشريف * عما جرى فى ام الكتاب * ولا مفر لغنى وفقير * وخطير وحقير * عن الاقتراب الى مطوى ذلك الجلباب * احمده سبحانه وتعالى حمد من ابتلاه فصبر * واغناه فشكر * واشكره شكر من توجه بجنانه للسير الى مرضاته * فتنزه فى رياض القبول وجناته * واصلى واسلم على من سارت ركائب شوقه الى مديره * واشارت مواكب حسن خلقه الى طيب عنصره * سيدنا محمد النبى سافر الى الشام وهاجر الى المدينه * وسار من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وكان جبريل امينه * وعلى آله واصحابه * وعترته واحبابه * واتوسل الى الحضرة العلية * بالحضرة الخديوية * فى نشر الوية العز والعدل * وكمال الجاه والفضل * على سائر الاقطار المصرية * وجميع ما فيها من الاهالى والرعية * باشراق طالع التدبير العجيب * والتشييد الغريب * الوزير الاعظم * والدستور المكرم المفخم * نادرة وزراء الزمان * وشاردة امراء الاوان * من احيى العلوم باجتهاده * ونصب رسوم الاسلام بغزوه وجهاده * صاحب العلم المنيف * وفاتح الحرم الشريف * حضرة افندينا ولى النعم * عظيم الشيم * الحاج محمد على باشا

بلغه الله تعالى ما يشاء وما شاء * امين

* ابقاه ربى بخير * وعزة وسعاده *

* بجاه خير البرايا * والآل اهل السياده *

اما بعد فيقول العبد الفقير الى امداد سيده ومولاه * السائر حيث وجهه ولاه * المعتمد على الكريم النافع * رفاعة ابن المرحوم السيد بدوى رافع * الطهطاوى بلدا الحسينى القاسمى نسبا * الشافعى مذهبا * لما من الله سبحانه وتعالى على بطلب العلم بالجامع الازهر * والمحل الانور * الذى هو جنة علم دانية الثمار * وروضة فهم يانعة الازهار * كما قال استاذنا العلامة العطار *

* لازم اذا رمت الفضائل منجدا * بشموس انواع العلوم تنورا *

* فيه رياض العلم اينع زهرها * فلذلك المعنى تسمى الازهرا *

وقال بعضهم واحسن بيتين * معرضا بعلماء الحرمين

* ومن يقترب عن ازهر العلم فليخ * على بعد دار العلم والعلماء *

* ففيه بحور طاميات وغيره * بحور عروض لا تجود بماء *

وحصلت ما يسر به على الفتاح مما يخرج به الانسان من الظلام * ويمتاز به عن مرتبة العوام * وكنت من معشر اشراف جارت عليهم الايام بعد ان اجرت غيثها فى ديارهم * واشارت الى تصييرهم الاعوام بعد ان نصبت اعلام راحتها فى حى ابرارهم * ولما للمركوز فى الاسماع فى القديم والحديث * وعليه الاجماع بعد الكتاب والحديث * ان خير الامور العلم * وانه اهم كل مهم * وان ثمرته فى الدنيا والآخرة على صاحبه تعود * وان فضله فى كل زمان ومكان مشهود * سهل لى الدخول فى خدمة صاحب السعادة اولا فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية * ثم منها الى رتبة مبعوث الى باريس صحبة الافندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية * فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين * وعزمت على التوجه اشار على بعض الاقارب والمحبين * لا سيما شيخنا العطار * فانه مولع بسماع عجائب الاخبار * والاطلاع على غرائب

الا ثار * أن انبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما اراه وما اصادفه من الامور الغريبة * والاشياء العجيبة * وأن اقيده ليكون نافعا فى كشف القناع * عن محيا هذه البقاع * التى يقال فيها انها عرائس الاقطار * وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الاسفار * خصوصا وانه من اول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شئ فى تاريخ مدينة باريس * كرسى مملكة الفرنسيس * ولا فى تعريف احوالها واحوال اهلها * فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة وفى عهده وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون فاقتصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة نزهتها عن خلل التساهل والتعامل * وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل * ووشحتها ببعض استطرادات نافعة * واستظهارات ساطعة * وانطقتها بحث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع * فان كمال ذلك ببلاد الافرنج امر ثابت شائع * والحق احق أن يتبع * ولعمر الله انى مدة اقامتى بهذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه واياك أن تجد ما اذكره لك خارقا عن عادتك فيعسر عليك تصديقه فتظنه من باب الهذر والخرافات * او من حيز الافراط والمبالغات * وبالجملة فبعض الظن اثم * والشاهد يرى ما لا يراه الغائب

واذا كنت بالمدارك غرا * ثم أبصرت مدركا لا تمارى

واذا لم تر الهلال فسلم * لاناس رأوه بالابصار

وقد اشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا احيد فى جميع ما اقوله عن طريق الحق وأن افشى ما سمح به خاطرى من الحكم باستحسان بعض امور هذه البلاد وعوايدها على حسب ما يقتضيه الحال * ومن المعلوم انى لا استحسن الا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية * على صاحبها افضل الصلاة واشرف التحية * وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه بل هى مشتملة ايضا على ثمرته وغرضه وفيها ايجاز العلوم والصنائع المطلوبة والتكلم عليها على طريق تدوين الافرنج لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها ولذلك نسبت فى غالب

الاوقات

الاوقات الاشياء التي هي محل النظر او الاختلاف مشيرا الى أن تصدى بمجرد حكايتها وقد سميت هذه الرحلة تخليص الابريز في تلخيص باريز * او الديوان النفيس * بايوان باريس * وقد رتبتها على مقدمة وفيها عدة ابواب وعلى مقصد وفيه عدة مقالات * وكل مقالة فيها عدة فصول او كتب مشتملة على فصول وعلى خاتمة * راجع الفهرسة في اول الكتاب * وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز وارتكاب السهولة في التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه * والوفود على رياضه * ولو صغر حجمه * وقل جرمه * فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد * وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد * شعر

* فاذا بدا الاستقلوا حجمه * وحبا تكم فيه الكثير الطيب *

واسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولا لدى صاحب السعادة ولى النعم * معدن الفضل والكرم * وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر امم الاسلام من عرب وعجم * انه سميع مجيب * وقاصده لا يخيب

* المقدمة *

الباب الاول في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد * التي هي ديار كفر وعناد * وبعيدة عنا غاية الابتعاد * وكثيرة المصاريف لشدة غلو الاسعار فيها غاية الاشتداد * اقول ان هذا يحتاج الى تمهيد وهو ان الاصل في الانسان الساذجية والخلوص عن الزينة والوجود على اصل الفطرة لا يعرف الا الامور الوجدانية ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها وانما كشفت له بالصدفة والاتفاق او بالالهام والايحاء وحكم الشرع او العقل بنفعها فأتبعت وابقيت * مثلا كان في اوائل الزمن يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران لجهل النار بالكلية عندهم ويقتصرون على الغذاء بالفواكه او بالاشياء المنضجة بالشمس او اكل الاشياء النيئة كما هو باق في بعض البلاد المتوحشة الى الآن ثم حصل اتفاقا أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان بصادمة حديدة او نحوها ففعل مثل ذلك وقدم واخرج النار وعرف خاصيتها * وكان

فى الناس من يجهل الصبغ والتلوين للثياب باللون الارجوانى مثلا فرأى
بعضهم كلبا اخذ محارة من البحر وقصها واكل مافيها فاحمر حنكه وتلون بما فيها
فاخذوها وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون كما يحكى ذلك عن اهالى
صور ببر الشام وكانت الناس فى اول الامر تجهل ركوب البحر ثم بالهام الهى
او باتفاق بشرى عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء فصنعوا
السفينة ثم تبصروا فى السفن وعمروها وتوعوها انواعا فكانت اولا صغيرة
للتجارات ثم ترقوا فيها حتى صلحت للجهاد والحرب وقس على ذلك ما اشبهه من
المحاربة بالسهام والرماح اولا ثم بعد ذلك بالسلاح ثم بالمدافع والاهوان وقد
كانت الناس فى اول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ثم بالهام الله
تعالى وبارسال الرسل صاروا يعبدونه الها واحدا فكلما تقادم الزمن فى الصعود
رأيت تأخر الناس فى الصنايع البشرية والعلوم المدنية * وكلما نزلت ونظرت الى
الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم فى ذلك وبهذا الترقى
وقياس درجاته وحساب البعد عن الحالة الاصلية والقرب منها انقسم سائر
الخلق الى عدة مراتب * المرتبة الاولى مرتبة الهمل المتوحشين * المرتبة
الثانية مرتبة البرابرة الخشنين * المرتبة الثالثة مرتبة اهل الادب
والظرافة والتحضر والتمدن والتصر المتطرفين * مثال المرتبة الاولى همل
بلاد السودان الذين هم دائما كالبهائم السارحة لا يعرفون الحلال من الحرام
ولا يقرؤن ولا يكتبون ولا يعرفون شيأ من الامور المسهلة للمعاش او النافعة
للمعاد وانما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم فيتزعون بعض
شئ او يصيدونه لتحصيل قوتهم ويختصون بعض اخصاص او خيام للتوقى من
حر الشمس ونحوه * ومثال المرتبة الثانية عرب البادية فان عندهم نوعا من
الاجتماع الانسانى والاستئناس والائتلاف لمعرفتهم الحلال من الحرام
والقراءة والكتابة وغيرها وامور الدين ونحو ذلك غير أنهم ايضا لم تكمل عندهم
درجة الترقى فى امور المعاش والعمران والصنايع البشرية والعلوم العقلية
والنقلية وان عرفوا البناء والفلاحة وتربية البهائم ونحو ذلك * ومثال المرتبة

الثالثة بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والافرنج والمغرب وسنار وبلاد امريقة على اكثرها وكثير من جزائر البحر المحيط فان جميع هؤلاء الامم ارباب عمران وسياسات * وعلوم وصناعات * وشرائع وتجارات * ولهم معارف كاملة فى آلات الصنايع والحيل على حمل الاشياء الثقيلة باخف الطرق ولهم علم بالسفر فى البحور الى غير ذلك * وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها وحسن حالها وتقليد شريعة من الشرائع وتقدمها فى الصباحة والبراعة فى الصنايع المعاشية * مثلا البلاد الافرنجية قد بلغت اقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية وماوراء الطبيعة اصولها وفروعها ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية وتوصلوا الى فهم دقائقها واسرارها كما سنذكره غير انهم لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة ولم يرشدوا الى الدين الحق ومنهج الصدق كما أن البلاد الاسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها وفى العلوم العقلية واهملت العلوم الحكمية بجملتها فلذلك احتاجت الى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه ولهذا حكم الافرنج بأن علماء الاسلام انما يعرفون شريعتهم ولسانهم يعنى ما يتعلق باللغة العربية ولكن يعترفون لنا بانا كنا اساتذهم فى سائر العلوم وبقدمنا عليهم ومن المقرر فى الاذهان وفى خارج الاعيان أن الفضل للمتقدم اوليس أن المتأخر يغترف من فضالته * ويهتدى بدلالته * وما احسن قول الشاعر *

* ومما شجانى انى كنت نائما * اعلل من فرط الكرى بالتنسم *
* الى أن بكت ورقاء فى غصن ايكة * تردد مبكاها بحسن الترنم *
* فلو قبل مبكاها بكيت صبابة * بسعدى شفيت النفس قبل التندم *
* ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا * بكاها فقلت الفضل للمتقدم *

ويعجبنى ايضا قولهم فى هذا المعنى عند المكافئة *

* انا الشجاع الذى قد كنت فى ظمأ * وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى *
* فجدت بالماء فضلا منك مبتدأ * بغير قل فاشفى غلة الصادى *
* هذا جزاؤك منا لا نمن به * فضلا بفضل وكان الفضل للبادى *

فاننا كنا فى زمن الخلفاء العباسيين اكمل سائر البلاد تمدنا ونضارة وفاهية وتربية زاهرة زاهية * وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وارباب الفنون وغيرهم على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه فانظر الى المأمون بن هارون الرشيد فانه زيادة عن اعانة ميقاتية دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك * كيف وهو الذى قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة وخمسا وثلاثين دقيقة وغير ذلك * وقد اعان جعفر المتوكل من العباسية اصطفان على ترجمة الكتب اليونانية ككتاب ذيسقوريدس فى الادوية * وكذلك الملك عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس فانه طلب من ملك قسطنطينية المسمى ارمانيوس أن يبعث اليه رجلا يتكلم باللسان اليونانى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده فبعث له راهبا يسمى نقولا الى غير ذلك * فمن هنا تفهم أن العلوم لا تنتشر فى عصر الا باعانة صاحب الدولة لاهله وفى الامثال الحكمية الناس على دين ملوكهم وقد تشتت عز الخلفاء وانهدم ملكهم فانظر الى الاندلس فانها بايدى النصارى الاسبانيول من نحو ثلثمائة وخمسين سنة وقد قويت شوكة الافرنج ببراعتهم وتدبيرهم بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب وتنوعهم واختراعهم فيها ولولا أن الاسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلا شىء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم وغير ذلك * ومن المثل المشهور * ان اعقل الملوك ابصرهم بعواقب الامور * ولهذا انتبه ولى النعمة حفظه الله تعالى حيث ولاه الله سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة أن يرجع اليها شبابها القديم * ويحيى رونقها الرميم * فمن مبدء توليه حفظه الله سبحانه وتعالى وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا * ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا * ويلتجئ اليه ارباب الفنون البارعة * والصنايع النافعة * من الافرنج ويغدق عليهم فائض نعمته حتى ان العامة بمصر بل وبغيرها من جهلهم يلومونه فى انفسهم غاية اللوم بسبب قبول الافرنج وترحيبه بهم وانعامه عليهم جهلا منهم بانه حفظه الله انما يفعل ذلك لانسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى فالحاجة دعت اليه ولله در من قال *

* ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا لم يكرما *

* فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما *

ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغريبة بمصر قد برعت الآن بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ويرجى بلوغها درجة كمال وفوقان * فما انفقه صاحب السعادة على ذلك كان في محله اتفاقا * فانظر الى الورش والمعامل والمدارس ونحوها وانظر الى ترتيب امر العساكر الجهادية من الايات ومدارس حربية فانه من احسن ما صنعه صاحب السعادة واحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ولا يمكن ادراك ضرورية هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج اوشاهد الوقايع * وبالجملة والتفصيل فولي النعمة آماله دائما متعلقة بالعمار * ومن الحكم المعروفة العمارة كالحياة والخراب كالموت وبناء كل ملك على قدر همته وقد سارع ولي النعمة حفظه الله تعالى في تحسين بلاده فاحضر فيها ما امكنه احضاره من علماء الافرنج و بعث ما امكنه بعثه من مصر الى تلك البلاد فان علماءها اعظم من غيرهم في العلوم الحكمية * وفي الحديث الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في اهل الشرك * قال بطليموس الثاني خذوا الدر من البحر والمسك من الفارة والذهب من الحجر والحكمة ممن قالها * وفي الحديث اطلب العلم ولو بالصين * ومن المعلوم أن اهل الصين وثنيون وان كان المقصود من الحديث السفر الى طلب العلم * وبالجملة حيثما امن الانسان على دينه فلا ضرر في السفر خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة * ولعل هذا كله مطمح نظر صاحب السعادة في هذه الارسالية وغيرها من الارساليات المتتالية المتسلسلة * فثمرة هذا السفر تحصل ان شاء الله تعالى بنشر هذه العلوم والفنون الآتية في الباب الثاني وبكثرة تداولها وترجمة كتبها وطبعها في مطابع ولي النعم * فينبغي لاهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنايع النافعة وليس هذا الزمان قابلا لان يقال فيه كما قال بهاء الدين ابو حسين العاملي في صرف العمر في جمع كتب العلم وادخارها ومطالعتها في شعره *

* على كتب العلوم صرفت مالك * وفي تصحيحها اتعبت بالك *

* واتفقت البياض مع السواد * الى ماليس ينفع فى المعاد *
* تظل من المساء الى الصباح * تطالعها وقلبك غير صاح *
* وتصبح مولعا من غير طائل * بتحرير المقاصد والدلائل *
* وتوضيح الخفاقى كل باب * وتوجيه السؤال مع الجواب *
* لعمرى قد اضلتك الهدايه * ضلالا ماله ابدا نهايه *
* وبالمحصول حاصلك الندامه * وحرمان الى يوم القيامه *
* وتذكرة المواقف والمراصد * تسد عليك ابواب المقاصد *
* فلا ينجى النجاة من الضلاله * ولا يشفى الشفا من الجهاله *
* وبالارشاد لم يحصل رشاد * وبالتبيان ما بان السداد *
* وبالايضاح اشكلت المدارك * وبالمصباح اظلمت المسالك *
* وبالتلويح مالاح الدليل * وبالتوضيح ما اتضح السبيل *
* صرفت خلاصة العمر العزيز * على تنقيح ابحاث الوجيز *
* بهذا الامر صرف العمر جهل * فقم واجهد فما فى الوقت مهل *
* ودع عنك الشروح مع الحواشى * فهن على البصائر كالغواشى *

وقوله

* ايها القوم الذى فى المدرسه * كل ما حصلتموه وسوسه *
* فكر كم ان كان فى غير الحبيب * ماله فى النشأة الاخرى نصيب *
* فاغسلوا بالراح عن لوح الفؤاد * كل علم ليس ينجى فى المعاد *

لان هذا مقال من تجرد عن الدنيا * وانهمك على الاخرى * او من اشترى العلوم باغلى ثمن * فبخس صفقتها حادث الزمن

* الباب الثانى من المقدمة *

يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة * والحرف والصنائع المرغوبة * ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة لتعرف اهميتها ولزومها فى اى دولة من الدول وهذه الفنون اما واهية فى مصر او مفقودة بالكلية وهى قسمان قسم عام للتلامذة وهو الحساب * والهندسة * والجغرافيا * والتاريخ * والرسم * وقسم خاص

متوزع عليهم وهو عدة علوم * العلم الاول علم تدبير الامور الملكية ويتشعب عنه عدة فروع * الحقوق الثلاثة التي يعتبرها الافرنج وتسمى بالنواميس وهي الحقوق الطبيعية * والحقوق البشرية * والحقوق الوضعية * وعلم احوال البلدان ومصالحها ومايليق بها * وعلم الاقتصاد في المصاريف * وعلم تدبير المعاملات * والمحاسبات * والخازندارية * وحفظ بيت المال * العلم الثاني علم تدبير العسكرية * العلم الثالث * علم القبطانية والامور البحرية * العلم الرابع * فن معرفة المشى في مصالح الدول * يعني علم السفارة ومنه الايلجية وهي رسالة البلدان وفروعه معرفة الالسن والحقوق والاصطلاحات * العلم الخامس * فن المياه وهو صناعة القناطر والجسور والارصفة والفساقي ونحو ذلك * العلم السادس الميكانيقا وهي آلات الهندسة وجر الاثقال * العلم السابع الهندسة الحربية * العلم الثامن * فن الرمي بالمدافع * وترتيبها وهي فن الطبجية * العلم التاسع * فن سبك المعادن لصناعة المدافع والاسلحة وغيرها * العلم العاشر * علم الكيميا وصناعة الورق والمراد بالكيميا معرفة تحليل الاجزاء وتركيبها * ويدخل تحتها امور كثيرة كصناعة البارود والسكر * وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة كما يظنه بعض الناس فان هذا لا تعرفه الافرنج ولا تعتقده اصلا * العلم الحادي عشر * فن الطب * وفروعه فن التشريح والجراحة وتدبير الصحة * وفن معرفة مزاج المريض * وفن البيطرة اي معالجة الخيل وغيرها * العلم الثاني عشر * علم الفلاحة * وفروعها معرفة انواع الزروع وتدبير الخلا بالبناء اللائق به وغيرها * ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبرة للمصاريف * العلم الثالث عشر * علم تاريخ الطبيعيات * وفروعه الحيوانات ومرتبة النباتات ومرتبة المعادن * العلم الرابع عشر * صناعة النقاشة * وفروعها فن الطباعة وفن حفر الاحجار ونقشها ونحوها * العلم الخامس عشر * فن الترجمة يعني ترجمة الكتب وهو من الفنون الصعبة خصوصا ترجمة الكتب العلمية فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات اصول العلوم المراد ترجمتها فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه واليه والفن المترجم فيه فاذا اطرت بعين الحقيقة

رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة او مجهولة بالكلية عندنا ومن جهل شيا فهو مفتقر لمن اتقن ذلك الشى وكلما تكبر الانسان عن تعلمه شيا مات بحسرته فالحمد لله الذى قيض ولى النعمة لانقاذنا من ظلمات جهل هذه الاشياء الموجودة عند غيرنا واظن أن من له ذوق سليم وطبع مستقيم يقول كما اقول وساذكر بعضها بالاختصار فى آخر الكتاب ان شاء الله تعالى وهو المستعان

(الباب الثالث من المقدمة)

فى ذكر وضع البلاد الافرنجية ونسبتها الى غيرها من البلاد ومزية الامة الفرنساوية على من عداها من الافرنج وتبيين تخصيص صاحب السعادة لها بارسال البعث دون ما عداها من ممالك الافرنج فنقول * اعلم أن الجغرافيين من الافرنج قسموا الدنيا من الشمال الى الجنوب ومن المشرق الى المغرب خمسة اقسام وهى بلاد اوروبا بضم الهمزة والراء وتشديد الباء * وبلاد آسيا بكسر السين و بلاد الافريقة * وبلاد الامريقة * وجزائر البحر المحيط المسماة الاوقيانوسية * فبلاد اوروبا محدودة جهة الشمال بالبحر المتجمد المسمى بحر الثلج الشمالى * وجهة الغرب بحر الظلمات المسمى البحر المظلم والبحر الغربى * وجهة الجنوب بحر الروم المسمى البحر المتوسط والابيض وبلاد آسيا * وجهة الشرق ببحر الخزر بضم الخاء والزاى آخره راء ويقال له بحر الخزز بخاء مهملة مفتوحة ثم زايين معجمتين اولاهما مفتوحة ويسمى ايضا بحر جرجان وبحر طبرستان وبلاد آسيا * فحينئذ بلاد اوروبا تشتمل على بلاد الافرنج وبلاد الاروام وبلاد قسطنطينية وبلاد الخزر والبلغار والافلاق والبغدان والصرب وغيرها وهى نحو ثلاث عشرة ارضا اى ولاية اصلية اربعة منها فى الشمال وهى بلاد الانكليز و بلاد دانيرق بكسر النون وفتح الميم وسكون الراء و بلاد اسوج بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الواو و بلاد الموسقو وستة فى الوسط وهى بلاد الفلمنك و بلاد الفرنسيس و بلاد السويسة و بلاد النمسة و بلاد البروسة بضم الباء و بلاد جرمانية المتعاهدة وثلاثة فى الجنوب وهى بلاد

اسبانيا

إسبانيا مع البرتوغال وبلاد ايطاليا وبلاد الدولة العلية العثمانية فى بلاد اوربا التى هى بلاد الاروام والارناوط والبشناق والسرب بالباء او الفاء والبلغار او الافلاق والبغدان بضم الباء وسكون الغين فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد اوربا ببلاد الافرنج فيه قصور اللهم الا أن تكون بلاد الافرنج تطلق على مايعم بلاد الدولة العلية ولكن يناقض ذلك أن الدولة العثمانية يقصرون بلاد افرنجستان على ماعدا بلادهم من بلاد اوربا ويسمون بلادهم بلاد الروم وان كان يعممون ايضا فى لفظ الروم فيريدون به بعض الاحيان مايعم بلاد الافرنج وبعض البلاد الداخلة فى حكمهم من بلاد آسيا * وبلاد آسيا محدّدة ايضا جهة الشمال بالبحر المنجمد الشمالى وجهة الغرب ببلاد اوربا والافريقية وجهة الجنوب ببحر الهند وبحر الصين وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط وبحر بهرنغ بكسر الباء وسكون الهاء وفتح الراء وسكون النون وبالغين او الكاف وهى تنقسم ايضا الى عشرة اراض اصلية واحدة جهة الشمال وهى بلاد سبير وسبعة فى الوسط وهى بلاد الدولة العلية العثمانية التى هى الشام وارمنية وكردستان وبغداد والبصرة وقبرص وغيرها ثم بلاد العجم وبلاد بلوجستان وبلاد قابولستان وهى أفغانستان وبلاد التتار الاكبر وبلاد الصين وبلاد يابونيا واثنان فى الجنوب وهى بلاد العرب وبلاد الهند فبلاد الحجاز وبلاد الوهابية تحت حكم الدولة العلية وبلاد اليمن تحت حمايتها وبلاد عمان مستقلة وكلها اقاليم جزيرة العرب فهذه هى ولايات آسيا * ثم بلاد الافريقية وهى محددة جهة الشمال ببحر الروم وجهة الغرب بالبحر الاطلنتيقى المسمى بحر الظلمات ويسمى بحر المغرب وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبى وجهة الشرق ببحر الهند وببغاز باب المندب وبحر القلزم المسمى البحر الاحمر وببلاد العرب * ويمكن تقسيم الافريقية الى ثمانى اراض اصلية اثنان فى الشمال وهى بلاد المغاربة وبلاد مصر واربعة فى الوسط وهى السينيغمبيا وبلاد الزنج وبلاد النوبة وبلاد الحبشة واثنان فى الجنوب وهما بلاد غينا وبلاد كفرية فهذا مايسمى الآن عند الافرنج بلاد افريقية وان كانت افريقية فى الاصل بلدة

معلومة جهة تونس وما حواليها ثم اضيف الى بلاد اوربا ما قاربها من الجزائر
وكذلك لبلاد اسيا وافريقية * وهذه الاقسام الثلاثة يعني اوربا وآسيا وافريقية
تسمى الدنيا القديمة او الارض القديمة يعني المعروفة للقدماء واما بلاد امريكة
آو امريقة بالكاف او القاف فتسمى الدنيا الجديدة وتسمى ايضا الهند الغربي
وتسمى في بعض الكتب العربية عجائب المخلوقات وهي انما عرفت للافرنج
بعد تغلب النصارى على بلاد الاندلس واخراج العرب منها فان هذا الوقت كان
مبدأ للسياحة * وجوب البحر المحيط واستكشاف البلاد باعانة الدول لارباب
الاسفار والملاحة * واما الآن فقد كادت السياحة تكون عند الافرنج فنا
من الفنون فليس كل احد يحسنها * ولا كل دولة تتقنها * وذلك أنه لما كثرت
الآلات الفلكية والطبيعية * سهلت الاستكشافات البرية والبحرية *
وتداولت الاسفار * واستكشفت الاماكن والاقطار * وضم الى مايعرف
من قديم الزمان * هذه الدنيا الجديدة التي انتظمت في سلك معرفة اولى العرفان
* ثم زاد الحال باختراع سفن النار * ومراكب البخار * فتقاربت الاقطار
الشاسعة * وتزاورت اهالى الدول وصارت المعاملات والمخالطات بينهما متتابعة
* وعما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها * وناب عن ادوات الملاحة
قبل اختراعها * الانوار المحمدية * والغيرة الاسلامية * بل والمعارف الوافرة
في العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية * في زمن الخلفاء العباسية * ففتحوا
بلاد مصر والسودان والمغرب والعجم وبلاد كابول وبخارى والهند والسند
وجزائر سيلان وسومطرا و بلاد التبت والصين وعدة ولايات بلاد اوروبا
مثل ممالك الاندلس وصقلية و بلاد الروم وغير ذلك وتقدمت عندهم العلوم
الجغرافية واشتهر من علماء الجغرافية كثيرون كالمسعودي وابن حوقل
والشريف الادريسي وابن الوردي والسلطان عماد الدين ابي الفدا صاحب
حماه ثم لما اخذت عندهم انوار هذه المعارف واهملوها ازدراء لها اولسبب
آخر قلت سياحاتهم وقام مقامهم طوائف الافرنج وبرعوا في ذلك
واستفادت الدولة والرعية الفوائد الجسيمة بالامور السياسية والتجارية *

وصيروا

وصيروا الامم اشباه البهائم الى ملة النصرانية وكان الاسلام اولى بتلك المزية * ولقد تصدّى ولى النعم * وعلى الهمم * لاحياء هذه المعارف * التليدة منها والطارف * حتى لاحت تباشير بدو العلوم * وتلاشت عن المعارف غياهب الاحلاك والغيوم * شعر

* واذا رأيت من الهلال نموه * ايقنت أن سيصير بدرا كاملا *

ثم ان بلاد الامريقة تتصل بستة بحور فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المنجمد وبحر بافين ومن جهة الشرق بحر المغرب وبحر جزائر الانتيله وبالبحر المحيط الاكبر المسمى اقيانوس وبحر بهرنغ جهة الغرب وهى قسمان الامريقة الشمالية والامريقية الجنوبية فامريقة الشمالية ست اراض اصلية وهى الامريقة الروسية او المحكومة بالموسقو وبلاد اغرونلند وبلاد ابرطانية الجديدة او بلاد الانكليز الجديدة وبلاد الايتازونيا وهى الاقاليم المجتمعة وبلاد مكسيك وبلاد غواتملا والامريقة الجنوبية تسع اراض وهى بلاد كلنبيا وبلاد ابريزيله وبلاد برو وبلاد بوليويه وهى برو العليا وبلاد براغية وبلاد بلاطة وبلاد شلى بكسر الشين وتشديد اللام المكسورة وبلاد بتاغونيا بفتح الباء والتاء وضم الغين وكسر النون * واما جزائر البحر المحيط فانها غربى بلاد الامريقة وعلى الجنوب الشرقى من بلاد آسيا وهى محددة من سائر جهاتها بالبحر المحيط وهى ثلاثة اجزاء اصلية النوتازية بضم النون المشددة وكسر الزاى والاستورالية بضم الهمزة وسكون السين وضم التاء وكسر اللام والبولينيزية بضم الباء وكسر اللام والنون والزاى ثم بلاد اوربا فيها اربع بنادر اصلية مشهورة بالتجارة اسلامبول تحت الدولة العلية ولوندرة بضم اللام وسكون النون وفتح الدال تحت بلاد الانكليز وباريس تحت بلاد الفرنسيس ونابلى بضم الباء ببلاد ايطاليا والبنادر الاصلية ببلاد آسيا اربعة ايضا آبكين بكسر الباء والكاف قاعدة بلاد الصين وقلقوطة بفتح القاف واللام وضم القاف ويقال كلكته بكافين قاعدة بلاد الهند التى تحت حكم الانكليز وصورة ببلاد الهند ايضا ويقال هى التى كانت تسمى المنصورة ومباتو

بكسر الميم وضم القاف فى بلاد جزيرة بابونيا والبنادر الاصلية ببلاد الافريقية اربعة القاهرة قاعدة مصر وسنار قاعدة كم بلاد النوبة والجزائر وتونس ببلاد المغاربة والبنادر الاصلية ببلاد امريقة الشمالية هى مكسيكو ببلاد مكسيك ونو يرق فى بلاد الاينازونيا وفيلادلفيا بكسر الفاء والدال وسكون اللام وكسر الفاء ومدينة وسهنغتون بسكون السين وكسر الهاء ثم نون ساكنة بعدها غين مكسورة واربعة فى امريقة الجنوبية وهى ريوجانير بكسر الراء وضم الياء وكسر النون فى بلاد ابرزيله وبنوسيرس بكسر الباء والسين والراء فى بلاد بلاطة وليمة بكسر اللام فى بلاد برو وقيطو بكسر القاف فى بلاد غرناطة الجديدة وفى بلاد البحر المحيط بندران شهيران وهما مدينة بتاويا بندر جزيرة جاوة ومدينة مانيلة الواقعة فى جزيرة مانيلة احدى جزائر فيلبيينة فهذه المدينة هى قاعدة جميع هذه الجزائر * ثم ان بلاد اوروبا اغلبها نصارى وبلاد الدولة العلية هى بلاد الاسلام بهذه القطعة واما بلاد آسيا فانها منبع بلاد الاسلام بل وسائر الاديان وهى اوطان الانبياء والمرسلين وبها نزلت سائر الكتب السماوية وهى تتضمن اشرف الاماكن والارض المباركة والمساجد التى لا تشد الرحال الا اليها وفيها منشأ ومضم عظام سيد الاولين والآخرين والصحابة وهى منشأ الائمة الاربعة رضى الله تعالى عنهم لان منشأ الامام الشافعى رضى الله عنه غزة ومنشأ الامام مالك رضى الله عنه المدينة المشرفة ومنشأ الامام الاعظم ابى حنيفة النعمان الكوفة ومنشأ الامام احمد بن حنبل بغداد التى كانت كما قيل فى ايام الخلفاء بالنسبة للبلاد كالاستاذ فى العباد وكلاهما من بلاد آسيا وبها يعنى ببلاد آسيا العرب وهم افضل القبائل على الاطلاق * ولسانهم افصح الالسن باتفاق * وفيهم بنو هاشم الذين هم ملح الارض وزبدة المجد ودرع الشرف ومما يدل على فضلها أن بها الاماكن المفضلة كالقبلة التى يجب على كل انسان أن يتوجه اليها خمس مرات فى اليوم والليلة والمدينتين اللتين نزل بهما القرآن العظيم ففضائلها لا تحصى وآثار اهلها لا تستقصى قال بعض اهلها

* غطفة يا جيرة العلم * يا اهيل الجود والكرم *

نحن

* نحن جيران لذا الحرم * حرم الاحسان والحسن *
* نحن قوم به سكنوا * وبه من خوفهم امنوا *
* وبآيات الكتاب عنوا * فاتشدننا انا الوهن *
* نعرف البطحا وتعرفنا * والصفا والبيت يالفنا *
* ولنا المعلى وخيف منى * فاعلن هذا وكن وكن *
* ولنا خير الانام اب * وعلى المرتضى حسب *
* والى السبطين تنتسب * نسبا ما فيه من دخن *

ومع أن الاسلام قد تولد فيها وانتشر منها الى غيرها ففيها جزؤ عظيم باق على الابتداع او الكفر كبلاد الصين وبعض بلاد الهند وجزؤ سالك في اسلامه طريق الضلال كروافض العجم * واما بلاد افريقية فانها تشتمل على اعظم البلاد كبلاد مصر التي هي من اعظم البلاد واعمرها وهي ايضا عش الاولياء والصلحاء والعلماء وكبلاد المغرب التي اهلها اهل صلاح وتقى وعلم وعمل وان شاء الله يمتد بها الاسلام عند كفار السودان بانفاس ولي النعمة حفظه الله تعالى * واما امريقة فهي بلاد كفر وذلك أنها كانت عامرة في الاصل بهمل عبدة الاصنام فتغلب عليها الافرنج لما قويت شوكتهم في الفنون الحربية ونقلوا اليها جماعة من بلادهم وارسلوا اليها قسيسين فتنصر كثير من اهلها فالآن بلاد امريقة غالبها نصارى الا الهمل فهم وثنيون ولم يوجد بها دين الاسلام وسببه قوة الافرنج في علم ركوب البحر ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ورغبتهم في المعاملات والتجارات وحبهم للسفر قال الشاعر

* ان العلا حدثتني وهي صادقة * فيما تحدث أن العز في النقل *
* لو كان في شرف المأوى بلوغ منى * لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل *

وقال آخر

* فقل ركابك للفلا * ودع الغواني والقصور *
* فمحالفو اوطانهم * امثال سكان القبور *
* لولا التغرب ما ارتقت * درر البحور الى النحور *

وقال الحريرى

* بجوب البلاد مع المتربه * احب الى من المرتبه *

وقال غيره

* قم واغترب فى البلاد مجتهدا * فمن ثوى فى بلاده هانا *
* كبيدق لا يزال محتقرا * حتى اذا سار صار فرزانا *

وقال

* انفق من الصبر الجميل فانه * لم يخش فقرا منفق من صبره *
* والمرء ليس يبالغ فى ارضه * كالصقر ليس بصائد فى وكره *

ومن المعلوم ان الدر والمسك لا يشرفان ما لم يفارقا وطنهما ومعدنهما وكل هذا لا ينافى أن حب الوطن من شعب الايمان لأن المقصود السياحة والاخذ فى اسباب طلب الرزق وهذا لا يمنع من تعلق الانسان بوطنه ومسقط رأسه فان هذا امر جبلى قال الشاعر

* يا بعيد الدار عن وطنه * مفردا يبكى على شجنه *
* كلما جد الرحيل به * زادت الاسقام فى بدنه *

وقال غيره

* ولقد زاد الفؤاد شجى * طائر يبكى على فننه *
* شفه ماشفنى فبكى * كلنا يبكى على سكنه *

ولا ينافى ايضا هذا الامر مادة التوكل والاعتماد على المولى كما يفهم من كلام الشاعر فى قوله

* لقد علمت وما الاسراف من خلقى * ان الذى هو رزقى سوف يأتينى *
* اسعى اليه فيعيينى تطلبه * ولو قعدت اتانى لا يعيينى *

وقول الآخر

* اقنع بايسر رزق انت نائله * واحذر ولا تتعرض للارادات *
* فما صفا البحر الا وهو منتقص * وما تكدر الا فى الزيادات *

فان هذا معناه التسلية لمن لا يحب الاسفار او النهى عن السفر للطمع * واما بلاد

جزائر البحر المحيط فانها قد فتح كثير منها بالاسلام كجزيرة جاوه فان اهلها
مسلمون وبالجملة فبلاد التوتازية اغلبها اسلام وندر وجود دين النصرانية فيها
ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن اقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها على
بعض يعني تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه بحسب مزية الاسلام وتعلقاته
فحينئذ تكون اسيا افضل الجميع ثم تليها افريقية لعمارها بالاسلام والاولياء
والصلحاء خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة ثم تليها بلاد اوروبا لقوة الاسلام
ووجود الامام الاعظم امام الحرمين الشريفين سلطان الاسلام فيها ثم بلاد
الجزائر البحرية لعمارها بالاسلام ايضا مع عدم تبحرها في العلوم كما هو الظاهر
فادنى الاقسام بلاد امريكة حيث لا وجود للاسلام بها ابدا هذا ما يظهر لي والله
اعلم بالصواب * وهذا كله بالنظر للاسلام والامور الشرعية والشرف الذاتي
فان المراد بالشرف ما يعم الشرعي وغيره فلا يقال ان اغلب ذلك من باب المزية
وهي وحدها لا تستدعي افضلية ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن في غاية
البراعة في العلوم الحكمية واعلاها في التبحر في ذلك بلاد الانكليز والفرنسيس
والنمسا فان حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كارسطاطاليس وافلاطون وبقراط
وامثالهم واتقنوا الرياضيات والطبيعيات والالهيات وماوراء الطبيعيات
اشد اتقان وفلسفتهم اخلص من فلسفة المتقدمين لما أنهم يقيمون الادلة
على وجود الله تعالى وبقاء الارواح والثواب والعقاب فاعظم مدائن الافرنج
مدينة لوندرة وهي كرسي الانكليز ثم باريز وهي قاعدة ملك فرانسا وباريز تفضل
على لوندرة بصحة هوائها كما قيل وطبيعة القطر والاهل وبقلة الغلاء التام
واذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيها وحظهم وانبساطهم مع
اهلها فالغالب على اهلها البشاشة في وجوه الغرباء ومراعاة خاطرهم ولو
اختلف الدين وذلك لان اكثر اهل هذه المدينة انما له من دين النصرانية الاسم
فقط حيث لا ينتحل دينه ولا غيرة له عليه بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة
بالعقل اوفرقة من الاباحيين الذين يقولون ان كل عمل يأذن فيه العقل صواب
فاذا ذكرت له دين الاسلام في مقابلة غيره من الاديان اثنى على سائرها من حيث

انها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر واذا ذكرته فى مقابلة العلوم
الطبيعية قال انه لا يصدق بشئ مما فى كتب اهل الكتاب لخروجه عن الامور
الطبيعية وبالجملة ففى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الاديان فلا يعارض
مسلم فى بنائه مسجدا ولا يهودى فى بنائه بيعة الى آخره كما سيأتى فى ذكر سياستها
ولعل هذا كله هو علة تخصيص ولى النعمة لها بارساله فيها هذه المرة الاولى ابلغ
من اربعين نفسا لتعلم هذه العلوم المفقودة بل سائر النصارى تبعث ايضا اليها
فيأتى اليها من بلاد امريكة وغيرها من الممالك البعيدة وقد بعث حفظه الله
عدة للعلوم ببلاد الانكليز لكنهم ليسوا عديدين وكذلك ببلاد النمسا
وبالجملة فسائر الامم تطلب العز وتسعى اليه كما قال الشريف الرضى * اطلب العز
فما العز بغال *
ولا اعز من العلوم والفنون تطلبها الملوك فانه كلما كان الملك اجل خطرا اوجب
أن يكون ادق نظرا

(الباب الرابع من المقدمة فى ذكر رؤساء هذه السفرة)

قد بعث صاحب السعادة فى السفر الى بلاد فرانسا ثلاثة رؤساء من اكابر دواته
السعيد وجعلهم ارباب نظر عام على من عداهم وهم على هذا الترتيب فاولهم
صاحب الرأى التام * والمعرفة والاحكام * سائر فضيلتى السيف والقلم *
والعارف برسوم العرب والعجم * حضرة عبدى افندى المهردار * والثانى
صاحب الرأى السديد * والطالع السعيد * من خلع فى حب المعالى العذار *
حضرة مصطفى مختار افندى الدويدار * والثالث الحاوى بين العلم والعمل *
واليراع والاسل * حضرة الحاج حسن افندى الاسكندرانى * بلغه الله فى
الدارين الامانى * امين * ثم ان حضرة الافندية الثلاثة كانوا يتعلمون ايضا
كالباقى فحضرة الافندى المهردار سابقا اشتغل بعلم تدبير الامور الملكية وحضرة
الافندى الدويدار سابقا بعلم تدبير الامور العسكرية وحضرة الحاج حسن
افندى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية وكان لسائر الثلاثة اجتهاد زائد
وتحصيل بالغ مع أن الامرية فى الغالب تأخذ ذلك وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة

بالنوبة

بالنوبة فكانت نوبة الواحد يوما والآخر يوما آخر وهكذا فآل الامر الى أن صارت شهرا شهرا ثم صار الافندى المهردار وحده ثم ان حضرة الافندية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب مسيو جومار الذى ولاه صاحب السعادة ناظرا على الدروس وهو احد علماء الانستتوت بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السين اى مشورة العلوم واكابرهم والذى يتراءى فى طبعه حب حضرة صاحب السعادة وخدمته بنصح ويشاهد منه دائما أنه رغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها بل وفى سائر بلاد الافريقية كما يفهم ذلك من حاله ومما قاله فى طالعة رزنامته التى الفها سنة الف ومائتين واربعة واربعين من الهجرة وشهرة معارف مسيو جومار وحسن تدبيره يوقع فى نفس الانسان من اول وهلة تفضيل القلم على السيف لانه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه القهرة ولا عجب فبالاقلام تساس الاقاليم وهمته فى مصالح العلوم سريعة كثيرة التأليف والاشتغال والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الافرنج فان مثل الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر وكالمفتاح الحديد اذا ترك ارتكبه الصدا وجناب مسيو جومار يشتغل بالعلوم آناء الليل واطراف النهار وسيأتى ذكره عدة مرات وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التى وصلت بيدى ان شاء الله تعالى وهنا انتهت المقدمة

(المقصد)

فى مدة السفر من مصر الى باريس وما رأيناه من الغرائب فى الطريق او مدة الاقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون والعدل العجيب والانصاف الغريب الذى يحق أن يكون من باب اولى فى ديار الاسلام وبلاد شريعة النبى صلى الله عليه وسلم وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات تشتمل على عدة فصول

المقالة الاولى * فيما كان من الخروج من مصر الى دخول مدينة مرسيليا التى هى فرضة من فرضات الفرنسيس وفيها عدة فصول

المقالة الثانية * فيما كان من دخول مرسيليا الى دخول مدينة باريس

وفيها فصلان

المقالة الثالثة) فى دخول باريس وذكر جميع ماشاهدناه ومابلغنا خبره من احوال باريس وهذه المقالة هى الغرض الاصلى من وضعنا هذه الرحلة فلذلك اطنبنا فيها غاية الاطناب وان كان جميع هذا الايفى بحق هذه المدينة بل هو تقريبى بالنظر لما اشتملت عليه وان استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة قال بعضهم

* من لم ير الروم ولا اهلها * ماعرف الدنيا ولا الناسا *

من باب اولى بلاد افرنجستان

المقالة الرابعة * فى ذكر نبذة من العلوم والفنون المذكورة فى الباب الثانى من المقدمة

(المقالة الاولى)

الفصل الاول فى الخروج من مصر الى دخول ثغر اسكندرية

كان خروجنا من مصر عصر يوم الجمعة الذى هو ثامن يوم من شعبان سنة احدى واربعين ومأتين بعد الالف من الهجرة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة والسلام * فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع * وأن تسليم العودة سيقوم مقام الوداع * فركبنا زوارق صغيرة وتوجهنا الى اسكندرية واقمنا على ظهر النيل المبارك اربعة ايام ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التى رسونا عليها * وكان دخولنا الاسكندرية يوم الاربعاء ثالث عشر يوم من شهر شعبان فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما فى سراية ولى النعمة * وكان خروجنا الى البلد فى هذه المدينة قليلا فلم يتسهل لى ذكر شئ فى شأنها غير انه ظهر لى انها قريبة الميل فى وضعها وحالها الى بلاد الافرنج وان كنت وقتئذ لم ارشيأ من بلاد الافرنج اصلا وانما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر ولكثرة الافرنج بها ولكون اغلب السوقة يتكلم ببعض شئ من اللغة الطليانية ونحو ذلك وتحقق ذلك عندى بعد وصولى الى مرسيليا فان اسكندرية عينة مرسيليا

وانموذجها والمذهبت اليهاسنة ٦٢ وجدتها قطعة من اوروبا

(الفصـــــل الثانى)

فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ماظهر لنا صحته * فنقول قال فى القاموس ان اسكندرية منسوبة الى اسكندر ابن الفيلسوف (صوابه فيليش) وهو الذى قتل دارا وملك البلاد * والاسكندرية ستة عشر بلدا منسوبة اليه منها بلدة ببلاد الهند وبلدة بارض بابل وبلدة بشاطئ النهر الاعظم وبلدة بصغد سمرقند وبلدة بمرو واسم لمدينة بلخ والثغر الاعظم ببلاد مصر وقرية بين حماه وحلب وقرية على دجلة قرب واسط منها الاديب احمد بن المختار بن مبشر وقرية بين مكة والمدينة وبلدة فى مجارى الانهار بالهند وخمس مدن اخر انتهى ومرو بلدة من خراسان ببلاد الفرس والنسبة اليها مروى ومروزى وانظر ما مراده بالنهر الاعظم ثم رأيت فى كتاب تقويم البلدان لعماد الدين ابى الفدا اسماعيل بن ناصر سلطان حماه أن بالاندلس نهرا يسمى بالنهر الاعظم وهو نهر اشبيلية ونص عبارته ومنها نهرا شبيلية من بلاد الاندلس ويسمى عند اهل الاندلس النهر الاعظم انتهى ولعله انما سمى عندهم بالنهر الاعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر كما نبه على ذلك ابو الفدا فى قوله يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الارحا لا تزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر صاعدة مع المد وقال بعضهم فى المد والجزر

* خليلى بادرنى الى النهر بكرة * وتضمنه حيث المد يثنى عنانه *
* ولا تجز الارحا فان وراءها * يبابا وعينى لا تريد عيانه *

انتهى فعلى هذا تكون اسكندرية اسم بلدة بالاندلس * ولعل اسكندر حين اجتيازه بجزيرة الاندلس بنى بها بلدة * وذكر صاحب كتاب نشق الازهار فى عجائب الاقطار أن اسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الاندلس وفتح بها بغاز جبل الطارق المسمى بحر الزقاق وأن محل هذا البغاز كان ارضا بين طنجة وبلاد الاندلس ولم يذكر فى هذا الموضع أن اسكندر بنى بلدة بهذه الجزيرة لكن هذا لا يدل على عدم وجود بلدة بها * وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان كل منهما يسمى

الاسكندر احدهما اسكندر ذو القرنين والآخر هو قاتل دارا وقال في القاموس في موضع آخر ذو القرنين اسكندر الرومي لانه لما دعاهم الى الله تعالى ضربوه على قرنه فاحياه الله تعالى ثم دعاهم فضربوه على قرنه الآخر فمات ثم احياه الله اولانه بلغ قطرى الارض اولضفيرتين له انتهى فظاهر كلامه أن اسكندر ذا القرنين هو نفس اسكندر الرومي * والذي عليه علماء الشرق أن ذا القرنين المذكور في الآية الشريفة هو غير اسكندر اليوناني فان الاول اقدم من الثاني وهو الذي قيل بنبوته وانه بنى سد ياجوج وماجوج وانه بحث عن ماء الحياة بلا طائل وفاز به الخضر عليه السلام فلذلك كان حيا الى الآن * واما الثاني فانه يسمى اسكندر الرومي او اليوناني يعني الاغريقي لأن قدماء الاغارقة تسمى اليونان والمتاخرون يشتهرون باسم الاروام * واما الافرنج فلا يقولون الا بوجود اسكندر الاكبر ابن فليش او ابن فيلبوش المقدوني ويجعلونه عين ما يعبر عنه في التواريخ العربية باسم اسكندر ذي القرنين وينسبون اليه ما ثر ما يحكى عنه من العجائب كسد ياجوج وماجوج ونحو ذلك غير أنهم لا يصدقون بما لا يوافق للعادة * وعلى كل حال فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الافرنج على أن اسكندرية تنسب الى اسكندر الرومي وهو ابن فيلبش وانا اقول الظاهر أن ذا القرنين هو الذي يعبر عنه عند اليونان بهرقليوس او هرقول يدل على ذلك تسمية بوغاز جبل طارق بوغاز هرقليوس مع عبارة كتاب نشق الازهار وكذلك ما ذكر في خرافات اليونان عند الكلام على عمودي هرقول من أنه ادخل اوقيانوس (البحر المحيط) في الجزء الذي يفصل اوروبا من افريقة حين فتح بغاز قادس المسمى الآن جبل طارق بين جبلين كانا قبل ذلك متصلين ببعضهما احدهما يسمى قلبة في جهة اسبانيا والآخر يسمى بيلا في جهة افريقة وصارا بعد فتح البوغاز بينهما كأنهما عمودان وكتب عليهما هرقول ما معناه ليس خلف ذلك شئ ومما يدل على ذلك ايضا ما ذكره اليونان في خرافاتهم من أن هرقول من فحول الرجال الذين يعبرون عنهم بانصاف الآلهة ويعتقدون أنهم متولدون بين الباقي والفاني اى بين اله وبشر فان هرقول

على زعمهم متولد من جوبتير اى المشترى وألكمينة زوجة أنفتريون ملك طيوه حيث تشكل بشكل هذا الملك وواقعها فحملت به منه وذلك قريب مما ذكره الدميرى فى كتابه حياة الحيوان نقلا عن الجاحظ حيث قال ما ملخصه ان عمرو بن يربوع كان متولدا بين السعلاه والانسان قال وذكروا أن جرهما كان من تناج الملائكة والآدميين فكان اذا عصى الملك ربه فى السماء اهبط الى الارض فى صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت وأن من هذا القبيل كانت بلقيس ملكة سبا وكذلك كان ذو القرنين وكانت امه ادمية وابوه من الملائكة ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا ينادى رجلا ياذا القرنين قال افرغتم من اسماء الانبياء فارتفعتم الى اسماء الملائكة قال وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس قال تعالى وشاركهم فى الاموال والاولاد وذلك أن الجنيات انما تعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق فى طلب السفاد وكذلك رجال الجن لنساء الانس ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء وقال تعالى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ولو كان الجان لا يفتض الآدميات ولم يكن ذلك فى تركيبه لما قال الله هذا القول انتهى غاية ما هنالك أن العلوية فى اعتقاد العرب آلهة فى اعتقاد اليونان واظن أن هذه المسئلة لو عرضت كالجارى على ارباب مدرسة قرانسا العظمى المسماة اكدمة لاجابت بعد النظر فيها بالصحة واجدت القول بذلك • وقد سلف فى عبارة القاموس اسماء البلاد التى تسمى باسكندرية وليس مما ينسب الى اسكندر الرومى الشهير بلدة الارناؤط المسماة اسكندرياسى يعنى اسكندرية بل هى منسوبة الى اسكندر بيك • وقال بعضهم مدينة اسكندرية بر مصر كانت تسمى قبل بناء الاسكندر لها بنحو ثلثمائة سنة واثنتين قبل ظهور عيسى عليه السلام قيسون بفتح القاف وسكون الباء التحتية • وقال الافرنج انها كانت تسمى نو بضم النون وقبل فتحها بالاسلام كانت تارة تحت حكم الرومان وتارة تحت حكم الاروام او اليونان • وفتحها عمرو بن العاص بامر عمر بن الخطاب ولما فتحها كتب الى عمر رضى الله عنهما انه وجد بها اربعة آلاف قصر واربعة

آلاف حمام وار بعين الف يهودى تدفع الجزية واربعمائة ميدان واثنى عشر الف بقال وخضرى وفاكهانى ولعل هذا من مبالغات المؤرخين كما بالغوا فى غيرها من البلاد كمدينة بغداد * ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه فكانت عدة ما فيها من الكتب سبعمائة الف مجلد وقد كان اهل هذه المدينة فى سالف الزمان ثلثمائة الف نفس تقريبا واهلها الآن اقل من ذلك بكثير وقد تغلب عليها الفرنسيس ثم اخرجهم الانكليز منها ورجعت الى يد الاسلام وهى الآن يلوح عليها انوار العمارات بانفاس صاحب السعادة وبها بهجة التجارة كما انها كانت فى الزمن السابق مركزا للتجارات وصارت فى هذا الوقت دار اقامة صاحب السعادة فى اغلب الاوقات وهى اشبه وضعا وعمارة بفرضات الافرنج وهى على الشمال الغربى من القاهرة بنحو خمسين فرسخا موضوعة فى احدى وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة من العرض يعنى درجة البعد عن خط الاستواء وسيأتى ذكر المسافة بينها وبين باريس

(الفصل الثالث)

فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر سكندرية * اعلم أن هذا البحر يسمى فى كتب الجغرافيا العربية بحر الروم لانه يتصل احد جهاته ببلاد الروم ويسمى ايضا فيها بحر الشام لمجاورته ايضا لبلاد الشام ويسمى ايضا عند الافرنج البحر المتوسط او الجوانى وانما سمى بذلك لانه داخل الاراضى الناشفة بخلاف البحر المحيط فانه محيط بجميع الاراضى حتى قال بعضهم انه متواصل الجريان تحت الاراضى العالية على سطح مائه وان حقق بعضهم خلافه لوجود الاراضى اليابسة تحت سطحه كبعض اراضى الموسقو * ويسمى هذا البحر الجوانى باللسان التركى بحر سفيد والبحر الابيض لمقابلته بحر بنطش او البحر الاسود وهنالك بحر آخر يسمى بالبحر الابيض وهو فى بلاد الموسقو وهو المراد بالبحر الابيض فى اطلاقات علماء الجغرافيا وكان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الاربعاء خامس يوم من رمضان وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية لانغادر فى فؤاد

الانسان رعبا * ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب حتى يصير فى وسطها صبا * محتوية على سائر ما يحتاج اليه من الحرف والصنائع * مشتملة على آلات الحروب وعلى الحربجية ومحصنة بثمانية عشر من المدافع * وكان مجراها يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا فسرنا من غير اشعار بالسير * فتوسمنا فى وجهها الخير * ولم نتألم بذلك وكنت قبل ركوب البحر عملت بما عمله لى بعض من سافر من العلماء الى اسلامبول من تجرع حثوات ضئيلة من ماء البحر المالح وقال انه يدفع الدوخة فكان الواقع انه لم يحصل لى الم على انى حين نزلت المركب كنت متوعكا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة * وربما صحت الاجسام بالعلل * ولا زلنا نسير من غير شدة تحركه واضطراب نحو اربعة ايام وبعدها عصفت الرياح * وتموج ماء البحر وتلاعب بذات الالواح تلاعب الاشباح بالارواح * فلازم اكثرنا الارض * وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض * ووقع عندنا الموقع قول بعض الظرفاء خاطر من ركب البحر واشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة وتحقق عندنا الضمين بعضهم لهزل ابى نواس فى قوله

* رأيت جميع الراثلات محيطة * بوطى لأجل الحمل جارية البحر *
* فاقسمت عمرى لا ركبت سفينة * ولا سرت طول الدهر الاعلى الظهر *

غير أن المعتمد على الكريم * لا يخشى من الخطب العظيم * وما احسن قول من قال

* لما ركبنا بحرا * وكاد من خاف يتلف *
* على الكريم اعتمدنا * حاشاه أن يتخلف *

وقد ذهب هذا الامر بعد نحو ثلاثة ايام وصار يزور غبا ومما يستحسن فى طباع الافرنج دون من عداهم من النصارى حب النظافة الظاهرية فان جميع ما بلى الله سبحانه وتعالى به قبطة مصر من الوخم والوسخ اعطاه للافرنج من النظافة ولو على ظهر البحر فان اهل المركب التى كانوا فيها يشتغلون على تنظيفها واذهاب الوسخ ما امكن حتى انهم يغسلون مقعدها كل يوم من الايام

ويكنسونها فى صف النوم كل نحو يومين و ينفضون الفراش وغيره ويشمونها رائحة الهواء و يزيلون اوخامها مع أن النظافة من الايمان وليس عندهم منه مثقال ذرة ومع ماعند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا فانهم لايعدون انفسهم من الامم كثيرة الاعتناء بالنظافة كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب العوائد والاخلاق المؤلف باللغة الفرنساوية وعبارته اعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل اهل الفلمنك فتجد فى مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الابيض المتعهد بالتنظيف و بيوتهم مجملة من خارجها ايضا وشبابيكهم القزاز تغسل دائما بل وحيطانهم الخارجة وقد توجد النظافة فى حصة من بلاد الانكليز وبلاد الاقاليم المجتمعة من امريكة وهى قليلة فى فرانسا والنمسا وغيرهما ومن الامم من هى كثيرة الاتساخ وكثيرة القمل بل تجد بعض اناس يأكلهم القمل ولا يبالون وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الاقمصة البيض التى تغسل ويغير بها كل اسبوع مرة اوعدة مرات فالملابس البيض من جملة ما انتج النظافة والسلامة من آثار الاوساخ الرديئة انتهى

(الفصل الرابع فيما رأينا من الجبال والبلاد والجزائر)

قد مررنا على جزيرة كريد سابع يوم من سفرنا ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان ايدا الشهير بالامور الغريبة فى تواريخهم ثم فى اليوم الثالث عشر منه رأينا جزيرة سيسليا بالمهملتين و بعضهم يكتبها بالمعجمتين وهى مشهورة باللسان العربى باسم صقالية اوصقلية وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد ايطاليا منفصلة عنها بالبغاز المسمى بغاز مسينة بفتح الميم وتشديد السين المكسورة المهملة وسكون الياء وفتح النون وهى من اعظم جزائر البحر المتوسط واخصبها ولذلك كانت تسمى فى الزمن السابق شونة رومة وكانت فى الاعصر السالفة سببا لحرب الرومانيين مع اهل قرطاجنة اى سكان الغرب ثم انتهى الامر الى أنها وقعت تحت حكم الرومانيين ثم انتقلت منهم الى ملوك اليونان ثم فتحها المسلمون ثم تغلب عليها النصارى

النرمندية بضم النون المشددة وسكون الراء وفتح الميم وكسر الدال وفتح الياء المشددة فرقة من اهل الشمال وهم سكان اقليم نرمنديا الذى هو الآن من ايالات فرانسا ثم حكمها بعض ملوك الاسبانيول ثم النمسا ثم انتهى الامر الى أن كانت جزأ من مملكة نابلى الكائن المسماة بولية حتى انها هى ونابلى قد يسميان الآن عند الافرنج السيسليتين بتغليب سيسليا على نابلى وفى كتب الجغرافيا أن اهل هذه الجزيرة مائة الف نفس ومدنها فوق الجبال وقد رأينا بهذه الجزيرة على بعد فى اليوم الرابع عشر الجبل المسمى منتنا بفتح الميم وسكون النون وكسر التاء الفوقية وسكون الثاء المثلثة ومنتنا كلمة مركبة من كلمتين احداهما منت معناها جبل والاخرى اتنا فالاحسن كتابتها هكذا منت اتنا وهو مشهور الآن بلفظة جبيل و يظهر لى أن هذا الاسم تحريف جبل فهو عربى اذ دخله المسلمون فى هذه الجزيرة واطلقوه على هذا الجبل فبقى بعد خروجهم الى الآن وتغير بتحريف اهل هذه الجزيرة له وهذا الجبل جبل نار فانه يخرج منه بالنهار دخان و بالليل لهب وقد يقذف مواد حجرية محترقة ثم ان جبال النار تسمى بالافرنجية الجبال البلكانية ويسمى الجبل النارى بلكان بضم الباء الموحدة وسكون اللام و يقال ولكان بضم الواو وقد صحف هذا الاسم بالعربية الى لفظة بركان بالراء ولعله تعريب عن لغة اهل الاندلس ويسمى طهمه بفتح الطاء وسكون الهاء كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى بمروج الذهب وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية كراتيره بكاف وتاء فوقية مكسورتين وفتح الراء الثانية ولا يوجد جبل النار غالبا الا فى الجزائر وقد ذكر ارباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط الف وتسعمائة قدم وثلاثة اقدام وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنساويا ودائرة فوهته ربع فرسخ * ثم ان العادة أن جبل النار يهيج ثم يسكن ثم يهيج وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ثم يهيج ثانيا بعد مضى مدة اعصر وقد هاج جبل اتنا احدى وثلاثين مرة ومنها هيجانه سنة الف وثمانمائة وتسعة بتاريخ الافرنج واعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين حيث

خرب مدينة كابان واهلك ثمانية عشر الف نفس وعلامة هيجان البراكين شدة الحجيج والفرقعة والدوى تحت الارض وابتداء التدخين اوازدياده قال بعض الطبائعية انا اذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهى النيران التى تحت الارض اى المحتقنة فى باطنها الا أن آثار الزلازل اوسع من آثار البراكين يعنى أن آثار الزلازل تظهر فى متسع عظيم من الارض بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد الا بجوار قرب جبل النار وقد جرت العادة ايضا أن الزلزلة تعظم بقدر البعد من البركان وعلل ذلك بعضهم بقوله ان النار التى تحت الارض تحاول منفسا لتخرج منه فان كان فى الارض بركان فانها تخرج منه فتذهب قوة النار فتنفقد الزلزلة بخلاف الارض الخالية عن البراكين فان النيران تحاول منفسا فيها فلا تجده فترتج الارض بذلك وقال بعض الحكماء ايضا ان كلا من الحوادث البركانية والزلازل صادر عن جاذبية الحاكة المسماة بالفرنساوية الاكتريسته بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء المسماة الرسيس بفتح الراء المشددة وكسر السين التى هى خاصة الكهربا عند حكها قال بعضهم فى رد هذا القول انه ينافى ما اعتقده بعض الحكماء فى بناء الارض ونظم طبقات صخورها ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كل ما قل علوه ويقل كلما عظم العلو وهذا ما جرت به العادة والله سبحانه وتعالى اعلم * وفى اليوم الخامس عشر رسونا على مدينة مسينة ولم نخرج من السفينة ابدا لانهم لا يمكنون من يجئ من البلاد الشرقية الى بلادهم أن يدخلها الا بعد الكرنتينة وهى مكث ايام معلومة لاذهاب رائحة الوباء ولكنهم يجيئون للانسان بسائر ما يحتاج ويناولهم الثمن فيضعونه فى اناء فيه خل ونحوه مع التحفظ التام (راجع الفصل الاول من المقالة الثانية) وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا اليه من الفواكه والخضراوات والمياه العذبة الى آخره واقمنا بمورد تها خمسة ايام وشاهدنا من بعد قصورها العالية وهيا كلها الشامخة السامية ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب وتمكث بعد شروق الشمس

والظاهر

والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا حيث انا سمعنا بها اصوات النواقيس مدة اقامتنا حتى ان ضربهم النواقيس مطرب جدا وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة مطوبها ثلاثة معان الاول المجادلة فى انه لا مانع من ان الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف وانشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة وانشأت فيه قولى

* اصبو الى كل ذى جمال * ولست من صبوتى اخاف *
* وليس لى فى الهوى ارتياب * وانما شيمتى العفاف *

الثانى سكر المحب من معانى خمر عينى محبوبه واستغنائه عن الراح براحته وانشأت فى هذا المعنى قولى

* قد قلت لما بدا والكأس فى يده * وجوهر الخمر فيها شبه خديه *
* حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه * ونشوتى من معانى سحر عينيه *

الثالث فى تأثر النفس بضرب الناقوس اذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك وقد انشدت فى هذا المعنى قول الشاعر

* مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له * من علم الظبى ضربا بالنواقيس *
* وقلت للنفس اى الضرب يؤلمكى * ضرب النواقيس ام ضرب النوى قيسى *

وذيلتها ببعض ابيات مجنسة والبحث فى معناها ونوع تجانيسها وبالجواب عن بعض الغاز نحوية الى آخره وليس هذا محل بسط الكلام فى ذلك ثم سرنا من هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا وسرنا حتى حاذينا جبل النار وجاوزناه وفى الرابع والعشرين جاوزنا مدينة نابلى وقد كانت قديما تسمى باللغة التركية بولية وتعديناها بنحو تسعين ميلا فانعكس الريح وصار قدام السفينة هابا من المقصد اليها فصارت تميل عن المقصد لا اليه لانه من جهة الهواء ويعجبنى قول بعضهم

* ومهفهف عنى يميل ولم يمل * يوما الى فقلت من الم النوى *
* لم لا تميل الى يا غصن النقا * فاجاب كيف وانت من جهة الهوا *

وقول الصلاح الصفدى

* تقول له الاغصان اذهز عطفه * اتزعم أن اللين عندك قد نوى *
* فثم تحتكم فى الروض عند نسيمه * ليقضى على من مال منامع الهوى *

فبانعكاس الريح رجعنا الى مدينة نابلى بعد أن جاوزناها ورسونا عندها ولم ندخلها لما تقدم وهى من المدن العظمى ببلاد الافرنج وملكها يحكم على بلاد جزيرة صقلية المتقدمة ومدينة نابلى هى كرسى هذا الملك وقد تسمى باللغة العربية نابلى الكتان بفتح الهمزة وكسر اللام وسكون الكاف وقد كانت مملكة نابلى فى يد الاسلام ومكثت نحو مائتى سنة ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية هى ومملكة صقلية ولم تزل الى الآن فى ايدى النصارى الايطاليانية حتى انها تسمى بلاد ايطاليا الجنوبية وقد اسلفنا أن مدينة نابلى هى احدى البنادر الاربعة الاصلية بالبلاد الافرنجية ثم رأينا فى اليوم التاسع والعشرين جزيرة قرسقه بضم القاف وسكون الراء وضم السين وفتح القاف التى هى فى حكم الفرنسيس وتسمى الآن جزيرة قرس وقد فتحها المسلمون ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا وهى وطن نابليون بضم الباء وسكون اللام وبالياء الشهير باسم بونابارته الذى تغلب على مصر فى غزوة الفرنساوية ثم تولى سلطنة فرانسا مع أن اباه كان رئيسا فى الطوبجية وفى اليوم الثالث والثلاثين رسونا على فرضة مرسيليا فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما ومنها مكثنا خمسة ايام قدام مسينة بفتح الميم وتشديد السين المكسورة وفتح النون ونحو يوم قدام نابلى وتأخرنا كثيرا بلعب الرياح ولولا ذلك لوصلنا فى اقل من هذه المدة بشئ يسير

* (المقالة الثانية) *

* (الفصل الاول فى مدة اقامتنا فى مدينة مرسيليا) *

قد رسونا على موردة مرسيليا التى هى احدى فرض بلاد فرانسا فنزلنا من سفينة السفر فى زوارق صغيرة فوصلنا الى بيت خارج المدينة معد للكرنتينة على عادتهم من أن من اتى من البلاد الغريبة لابد أن يكرنتن قبل أن يدخل المدينة ولنذكر هنا ما قيل فى الكرنتينة بين علماء المغرب على ما حكاه لى بعض من يوثق به من فضلاء الغرب قال وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى

المالكي المدرس بجامع الزيتونة ومفتي الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم المؤلف عدة كتب في المنقول والمعقول وله تاريخ دولة بني عثمان من مبدئها الى السلطان محمود الثاني محاورة في اباحة الكرتينة وحظرها فقال الاول بتحريمها والثاني باباحتها بل وبوجوبها والف في ذلك رسالة واستدل على ذلك من الكتاب والسنة واقام الاول الادلة على التحريم والف رسالة في ذلك على اعتقاده فيها في الاستدلال على أن الكرتينة من جملة الفرار من القضاء ووقعت بينهما محاورة ايضا نظير هذه في كروية الارض وبسطها فالبسط للمنافي والكروية لخصمه وممن قال من علماء المغرب بأن الارض مستديرة وانها كرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوي بارض ازوات بقرب بلاد تمبكتو وهو مؤلف مختصر في فقه مالك ضاهي به متن خليل وضاهي ايضا الفية ابن مالك في النحو وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرة والباطنية كأوراد واحزاب كحزب الشاذلي وقد الف كتابا وسماه النزهة جمع فيه جملة علوم فذكر بالمناسبة علم الهيئة فتكلم على كروية الارض وعلى سيرها ووضح ذلك فتلخص من كلامه أن الارض كرة ولا يضر اعتقاد تحركها او سكونها * مات هذا الشيخ سنة الف ومأتين وست وعشرين من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكى السلام وخلفه حفيده المسمى باسمه ثم ان هذا البيت الذي كنا فيه للكرتينة متسع جدا به القصور والحدائق والبناء المحكم فيه عرفنا كيفية احكام ابنية هذه البلاد واتقانها ولامتلائها بالرياض والحياض الى آخره ولم نشعر في اول يوم الا وقد حضر لنا امور غريبة في غالبها وذلك انهم احضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ونحو مائة كرسي للجلوس عليها لان هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الارض فضلا عن الجلوس بالارض ثم مدوا السفرة للفطور ثم جاؤا بطبليات عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز وسكينا وشوكة وملعقة وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء واناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ثم رصوا حوالى الطبلية كراسي لكل واحد كرسي ثم جاؤا بالطبيخ

فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا او صحنين ليغرف احد اهل الطبلية ويقسم على الجميع فيعطى اكل انسان فى صحنه شيأ يقطعه بالسكين التى قدامه ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده فلا يأكل الانسان بيده اصلا ولا بشوكة غيره اوسكينه اويشرب من قدحه ابدا و يزعمون أن هذا انظف واسلم عاقبة وبما يشاهد عند الافرنج انهم لا يأكلون ابدا فى صحون النحاس بل ولا فى اوانيه ابدا ولو مبيضة فهى للطبخ فقط بل دائما يستعملون الصحون المطلية والطعام عندهم عدة مراتب معروفة وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها فاول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة ثم بعده باللحوم ثم بكل نوع من انواع الاطعمة كالخضراوات والفطورات ثم بالسلطة وربما كانت الصحون المطلية بلون الطعام المقدم فصحون السلطة مثلا اخضر منقوشة بلون السلطة ثم يختمون اكلهم بأكل الفواكه ثم بالشراب المخدر الا أنهم يتعاطون منه القليل ثم بالشاى والقهوة وهذا الامر مطرد للغنى والفقير كل على حسب حاله ثم ان الانسان كلما اكل طعاما فى صحنه غيره واخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر ثم انهم احضروا لنا آلات الفراش والعادة عندهم انه لابد أن ينام الانسان على شئ مرتفع نحو سرير فاحضروا ذلك لنا ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما لا نخرج منه ابدا غير أنه متسع جدا وفيه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتماشى فيها والتنزه فى رياضها ومن هذا البيت ركبنا العربات المزينة المجملة التى تستعمل عندهم اثناء الليل واطراف النهار تفرقع وسرنا بها الى بيت فى المدينة لكنه فى حواشيها من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وادواتها فمكثنا منتظرين التوجه الى مدينة باريس ومدة مكثنا فى هذا البيت كنا نخرج بعض ساعات لنتسلى فى البلد وندخل بعض القهاوى والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش بل هى مجمع لارباب الحشمة اذهى مزينة بالامور العظيمة النفيسة التى لا تليق الا بالغنى التام واثمان مافيها غالية جدا فلا يدخلها الا اهل الثروة واما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة اوالخمارات والحاشيش ومع ذلك هذه المحال ايضا مجملة تجملا نسبيا وقد اسلفت أن مدينة سكندرية

تشبه فى حالها مرسيليا واذ كرهنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا المرور جملة عربات معا فى طريق واحد والآن صارت الاسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك ثم ان سائر القاعات او الاروقة او المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مرآة عظيمة كبيرة حتى انه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ليظهر لها رونق عظيم فأول مرة خرجنا الى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرآى والمشحونة بالنساء الجميلات وكان هذا الوقت وقت الظهيرة وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين الى قرب المنكبين والعادة ايضا أن البيع والشراء بالاصالة للنساء واما الاشغال فهى للرجال فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها وعلى ما يعمرها وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالحصرات وبالطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الاسود او المنقوش وفى هذه القهوة يباع سائر انواع الشراب والفطورات فاذا طلب الانسان شيأ طلبه الصبيان من القهوجية وهى تأمر باحضاره وتكتبه فى دفترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبى للطالب حين يريد الدفع والعادة أن الانسان اذا شرب القهوة احضر له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه ففعلنا ذلك كعادتهم وفنجان القهوة عندهم كبير فهو اربعة فناجين من فناجين مصر وبالجملة فهو قدح لا فنجان وبهذه القهوة اوراق الوقائع اليومية لاجل المطالعة فيها وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة لما أن بها كثيرا من الناس فاذا بدا جماعة داخلها او خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما فيظن أن هذه القهوة طريق وما عرفت أنها

قهوة مسدودة الابيب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة فعرفت أن هذا كله
بسبب خاصية الزجاج فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الانسان كما قال بعضهم
فى هذا الشأن

* ارفع منظر المرآة عنه * مخافة أن تثنيه لعينى *
* أقاسى ما أقاسى وهو فذ * فكيف اذا تجلى فرقدين *

وعادتها عند الافرنج بسبب تعددها على الجدران وعظم صورتها أن تعدد
الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والاركان ومن كلامى

* يغيب عنى فلا يبقى له اثر * سوى بقلبى ولم يسمع له خبر *
* فحين يلقى على المرآة صورته * يلوح فيها بدور كلها صور *

وقال شيخنا العطار لم ار الطف تخيلا فى هذا المعنى من قول ابن سهل

* الق بمرآة فكرى شمس صورته * فعكسها شب فى احشائى اللهبا *

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة

* رأى حسن صورته فى المراه * فاصبح صبا بها مدنفا *
* وصير يعقوب احماله * يشير بأن قد رأى يوسفا *

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس ومدة اقامتنا
فى مرسيليا بعد الكرنتينة شغلناها ايضا بتعلم تقطيع الحروف يعنى تعلم
تهجى اللغة الفرنساوية ثم انه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى
مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر وهم جميعا
يلبسون لبس الفرنسيس وندر وجود احد من الاسلام الذين خرجوا مع
الفرنسيس فان منهم من مات ومنهم من تنصر والعياذ بالله خصوصا المماليك
الجورجية والجركسية والنساء اللواتى اخذهن الفرنسيس صغار السن وقد
وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها وممن تنصر انسان يقال له عبد العال
ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر اغاة انكشارية فى ايامهم فلما سافروا
تبعهم وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة ثم بعد ذلك تنصر والعياذ بالله
بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع منه عند موته يقول

اجرنى يارسول الله ولعله ختم له بخير وعاد الى الاسلام فقال بلسان الحال
الحمد لله الحنيفة ملتى * والله ربى وابن امنة نبى * ولقد رأيت له ولدين وبنتا
توافى مصر وهم على دين النصرانية احدهما معلم الآن فى مدرسة ابى زعبل
ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سرعسكر المسمى منو المتولى فى مصر بعد قتل
الجنرال كليبر بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء كان اسلم فى مصر نفاقا
كما هو الظاهر وتسمى عبد الله وتزوج ببنت شريف من اشراف رشيد فلما خرج
الفرنسيس من مصر واراد الرجوع اخذها معه فلما وصل رجع الى النصرانية
وابدل العمامة بالبرنيطة ومكث مع زوجته وهى على دينها مدة ايام فلما ولدت
واراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت
لا انصر ولدى اصلا ولا اعرضه للدين الباطل فقال لها الزوج ان كل الاديان حق
وان مآلها واحد وهو عمل الطيب فلم ترض بذلك ابدا فقال لها ان القرآن ناطق
بذلك وانت مسلمة فعليك أن تصدقى بكتاب نبيك ثم ارسل باحضار اعلم الافرنج
باللغة العربية البارون دساسى فانه هو الذى يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه
عن ذلك فسألته فاجابها بقوله انه يوجد فى القرآن قوله تعالى ان الذين امنوا
والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فحجها بذلك فأذنت
بعمودية ولدها ثم بعد ذلك انتهى الامر على ماقيل أنها تنصرت وماتت كافرة

كل دين ان فاتك الاسلام * فحال لانه اوهام

ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليا انسان لابس ايضا كالافرنج واسمه
محمد منطلق اللسان فى غير اللغة العربية فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير
فسألته عن بلده بمصر فاجاب بأنه من مدينة اسيوط من اشرافها وان اباه
يسمى السيد عبد الرحيم وهو من اكابر هذه البلدة وامه تسمى مسعودة او قريبا
من ذلك الاسم وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره ويقول انه باق على
اسلامه وانه يعرف من الامور الدينية الله واحد ومحمد رسوله والله كريم ومن
العجائب انى بعد كلامه توسمت فيه الخير وكان على وجهه سمة اشراف اسيوط

حقيقة فان صح كلامه كان من اولاد سيدى حورا بن سيدى ابى القاسم الطهطاوى واشراف طهطا من اولاد سيدى يحيى ابن القطب الربانى سيدى ابى القاسم وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير ذريته اهل جزيرة شندويل وشهرة سيدى ابى القاسم الطهطاوى لاتخفى على من يعرفه وان لم يذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات وكثير من الاشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حورا المتقدم ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة السبكتا كل وامرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين ولنذكرها فى الكلام على باريس ومكثنا فى هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا الى باريس

(الفصل الثانى فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس وفى المسافة بينهما)

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا الى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة او موضعا فيها فاما أن يأكلوا على كيسهم او يدفعوا قدرا معلوما للعربية والقوت مدة الطريق ثم ان السفر يكون ليلا ونهارا الاوقت الاكل ونحوه وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب مشتملة على سائر انواع المطعومات والمشروبات فى غاية النظافة والظرافة وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم وبالجملة فهى مستكملة الآلات والادوات فلما ركبنا عربات السفر كل جماعة منا فى يوم وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا مستمرا على حالة واحدة ولا يتأثر الانسان كسفر البحر بالرياح ونحوها وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث ومدينة ليون على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ومن ليون الى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ومن مرسيليا الى باريس مائتان واحد عشر فرسخا فرنساويا وقد مكثنا فى ليون نحو اثنتى عشرة ساعة للاستراحة ولم اردا خل هذه المدينة الا بالمرور فيها او من شباك البيت الذى كنا فيه

ومن لم يستطع اعلام رضوى * لينزل بعضها نزل السفوحا

ثم سرنا منها الى باريس فدخلناها صبيحة اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا وقد مررنا بقرى كثيرة واغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر عظيمة الابنية مزينة بالاشجار وبالجملة فالقرى مسلسلة متصلة بعضها غالبا خصوصا

مع جدة السير حتى ان الانسان لا يظن الا انه فى بلدة واحدة والمسافرون غالبا فى ظل الاشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق وندر تخلفه فى بعض المحال ثم ان الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة ان جمال النساء وصفاء ابدانهن اعظم من ذلك فى مدينة باريس غيران نساء الارياف اقل تزيينا من نساء باريس كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران

(المقالة الثالثة)

الفصل الاول فى تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة ارضها ومزاج اقليمها وقطرها

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس بارى بالباء الفارسية التى تلفظ بين الفاء والباء ولكن يكتب هذا الاسم باريس ولا ينطق بالسين ابدا فيه كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها ابدا خصوصا حرف السين فى آخر بعض الكلمات فانه لا ينطق به ابدا مثلا اثينه بامالة التاء مدينة حكماء اليونان تكتب بالفرنساوية آتينس وتقرأ اتين ثم ان العرب والترك ونحوهم يكتبون باريس او بريس او باريزو ربما قالوا فارس واظن أن الاوفق كتابتها بالسين وان اشتهر على السنة غير اهلها قراءتها بالزاى ولعل ذلك انما نشأ عن أن السين فى اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا فى بعض الاحيان بعض شروط وان كانت مفقودة هنا الا فى حال النسبة فان النسبة الى باريس عند الفرنسيس بارزيانى وهذا بعينه هو السبب لان النسبة ترد الاشياء الى اصولها ولكن هذه القاعدة فى النسبة العربية والنسبة هنا اعجمية وقد مشيت فى بعض اشعارى التى انشدتها فيها على كتابتها بالسين حيث قلت

* لئن طلقت باريسا ثلاثا * فما هذا لغير وصال مصر
* فكل منهما عندى عروس * ولكن مصر ليست بنت كفر

وقلت

* لقد ذكروا شموس الحسن طرا * وقالوا ان مطلعها بمصر

* ولكن لوراوها وهى تبدو * بباريس لخصوها بذكر *

وسميت بذلك لان طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى البار يزيين ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الاطراف والحواشى وليس هذا الاسم منقولا عن باريس اسم رجل شهير كما قاله بعضهم ثم ان هذه المدينة من اعمر مدائن الدنيا ومن اعظم مدائن الافرنج الآن وهى كرسى بلاد الفرنسيس وقاعدة ملك فرانسا وسيأتى تفصيل ذلك فى محله وهى موضوعة فى التاسعة والاربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى يعنى أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر واما طولها فانه يختلف فاذا اعتبرنا خط نصف النهار الذى ينسب اليه الفرنساوية اطوال سائر الاماكن وهو خط نصف النهار المرسوم فى رصدهم السلطانى وهو يمر بباريس فهو حينئذ مبدأ الاطوال على حساب الفرنساوية كان طولها صفرا واما اذا حسبنا على خط نصف النهار الذى كان يأخذ بطليموس الاطوال منه ولا زال الى الآن مبدأ اطوال بعض الامم كاهل الفلك وهو خط نصف نهار الجزائر الخالدات ببحر المغرب كانت باريس فى عشرين درجة تقريبا من الطول الشرقى ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتى الطول والعرض من مكان من الامكنة وثمرة ذلك وان كان يخرجنا عما نحن بصدده فنقول اعلم أن علماء الهيئة قد اوضحوا بالادلة كروية الارض وانها غير صادقة التكوير ثم صنعوا على هيئتها صورة وسموها صورة الارض ولامكان تقسيم الارض وتسهيل معرفتها توهموا فيها دوائر انصاف نهار ودوائر متوازية ومحورا وقطبين ورسموها على صورتها المصطنعة فمحور الكرة الارضية هو الخط الموازى لمحور الفلك وطرفاه هما القطبان ويسمى احدهما القطب الشمالى والآخر القطب الجنوبى ودوائر انصاف النهار هى الدوائر التى تمر من احد القطبين الى الآخر وعلة تسميتها بذلك انه اذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بذلك المحل ومركز هذه الدوائر هو مركز الارض واما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة اعمدة على دوائر انصاف النهار وهى التى بينها وبين مركزها توازٍ على محور الارض

واعظمها

واعظمها دائرة الاستواء وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين وهى تنصف الكرة نصفين احدهما النصف الشمالى والآخر النصف الجنوبى ثم ان دوائر انصاف النهار والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم الى ثلثمائة وستين درجة وكل درجة تتجزأ الى ستين دقيقة وكل دقيقة الى ستين ثانية وكل ثانية الى ستين ثالثة وهكذا وللافرنج تقسيم آخر جديد وهو أن الدائرة تنقسم الى اربعة ارباع وكل ربع يتجزا مائة تسمى درجات مائينية وكل درجة مائة دقيقة مائينية وكل دقيقة مائة ثانية كذلك وهكذا وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الاعشارى والحساب المترى والاول اشهر استعمالا وبهذه الدوائر يتحدد الطول والعرض وذلك أن العرض هو بعد دائرة متوازية عن المتوازية العظمى التى هى دائرة الاستواء فان اخذ نحو جهة الشمال كان عرضا شماليا ونهايته تسعون درجة وان كان جهة الجنوب فجنوبى ونهايته كذلك واما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على انه اولى وهو شرقى وقدره مائة وثمانون درجة وغربى وقدره كذلك وقد وضع اصحاب الجغرافيا فى الاكرة او الخرطات على كل دائرة متوازية ما تبعد به من الدرجات عن دائرة الاستواء كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الاولية وقد رسم كما اسلفناه بطليموس الحكيم دائرة نصف النهار الاولية فى الجزائر الخالدات فلما انكشفت بلاد امريكة اختار الافرنج أن يجعل اهل كل قطر من الاقطار خط نصف نهارهم الاولى ببلادهم لينسبوا اليها ما عداها كما صنع الفرنساوية فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الاولى فى مدينة باريس وبقيت منهم امم كالفلمنك على اخذ الاطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات وفى الواقع أن الاولى كما هو الظاهر اتخاذ مبدأ الطوال مشترك لجميع الامم ينسب اليه ما عداه ويكون فى قطر لا عمار بعده معلوم او ممتاز بمزية كمكة المشرفة ثم ان كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن اخذها بتفاوت الاوقات وذلك انه من المعلوم أن الشمس او الارض كما يقوله الافرنج تقطع حركتها اليومية فى اربع وعشرين ساعة فهى تقطع من الدائرة التى ترسمها فى سيرها خمس عشرة

درجة فى كل ساعة فتقطع درجة كل اربع دقائق يعنى انه اذا دخل
وقت الظهر فى القاهرة مثلا فلا يدخل وقته فى المكان الذى يبعد عنها جهة
الغرب بخمس عشرة درجة الا بعد ساعة و يدخل بعد ساعتين فيما يبعد عنها
ثلاثين درجة وهلم جرا وبعكس ذلك فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق
فانه اذا كان الظهر فى القاهرة يكون قد مضى ساعة بعد الظهر فى المكان
الذى يبعد عنها جهة المشرق بخمس عشرة درجة ويكون مضى ساعتان فيما
يبعد عنها فى هذه الجهة ثلاثين درجة الى آخره فلنذكر هنا حينئذ متى يكون
الظهر فى باريس اذا كان الظهر فى اصول البلاد الغربية منها والشرقية
وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد فيقال اذا كان وقت الظهر
فى مصر القاهرة لا يدخل وقته فى باريس الا بعد مضى ساعتين الا اربع دقائق
واذا كان الظهر فى اسلامبول كان فى باريس بعد مضى ساعة وست واربعين
دقيقة واذا كان فى بغداد كان دخوله فى باريس بعد ساعتين وثمان واربعين
دقيقة وفى حلب اذا دخل الظهر لا يدخل فى باريس الا بعد ساعتين وثلث
واذا دخل الظهر فى الجزائر لا يدخل فى باريس الا بعد اربع دقائق
تقريبا واذا دخل فى تونس فيدخل فى باريس بعد مضى نصف ساعة
ودقيقتين ووقت الظهر فى اصفهان يدخل فى باريس بعد مضى ثلاث ساعات
واثنين وعشرين دقيقة واذا كان فى مدينة بكين بكسر الباء والكاف كرسى
ملك الصين يكون فى باريس سبع ساعات واحدى واربعين دقيقة وفى مدينة
الباب والابواب تكون ساعة وثمانيا واربعين دقيقة وفى مدينة رومة الكبرى
نصف ساعة وثمانى دقائق وهذه البلاد على الشرق من مدينة باريس واما
البلاد التى على غربيها فاذا كان الظهر فى مدينة مدريد كرسى ملك الاندلس
فانه يكون فات وقته فى باريس باربع دقائق واذا كان فى مدينة اشبونة كرسى
البرتغال فانه يكون فات وقته فى باريس بخمس دقائق ونصف واذا دخل وقته
فى فيلادلفيا بكسر الفاء وسكون الياء وفتح اللام وكسر الدال المهملة وسكون
اللام وكسر الفاء مدينة بامريكة فانه يكون قد مضى بعده فى باريس خمس

ساعات وثلاث عشرة دقيقة واذا كان وقته فى مدينة ريوجانيرو بكسر الراء وضم الياء وكسر النون وسكون الياء كرسى سلطنة ابرزيلة فى امريكة فهو ثلاث ساعات تقريبا واذا كان نصف النهار فى جزيرة كنفو فى امريكة الموسقو يكون نصف الليل فى باريس فانهما متقاطران والمسافة بين باريس واسكندرية سبعمائة وتسعة وستون فرسخا فرنساويا وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسعة فراسخ وبينها وبين مكة المشرفة سبعمائة واربعون فرسخا وبينها وبين اسلامبول خمسمائة وستون فرسخا وبينها وبين حلب ثمانمائة وستة وستون فرسخا وبينها وبين مراكش سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا وبينها وبين تونس ثلثمائة وسبعون فرسخا وبينها وبين مدينة لوندره كرسى الانكليز مائة فرسخ وبينها وبين مدينة بتربرغ كرسى الموسقو خمسمائة وستة واربعون فرسخا وبينها وبين مدينة موسقو كرسى الموسقوبية القديم ستمائة فرسخ وبينها وبين مدينة رومة كرسى البابا ثلثمائة وخمسة وعشرون فرسخا وبينها وبين مدينة بجه كرسى النمسا ثلثمائة وخمسة وعشرون ايضا وبينها وبين مدينة نابلى ثلثمائة واربعة وثمانون فرسخا وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمان عشرة قامة ومن المعلوم انها من بلاد المنطقة المعتدلة فليست فى غاية الحرارة ولا فى غاية البرودة فان اقصى درجات الحر فيها يكون احدى وثلاثين درجة ونصفا وهذا نادر والحر الاوسط تسع وعشرون درجة واقصى درجات البرد بها فى الغالب اثنتا عشرة درجة وندر بلوغه ثمانية عشر والبرد الاوسط سبع درجات ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات فى الذوبان الى حد فوران الماء ودرجات البرد من شروعه فى الجمود والاغلب فيها عدم صحو الزمن وكثرة الغيوم بحيث تمكث الشمس فى الشتاء عدة ايام لا تتكشف ولا يرى جرمها غالبا فكأنها الامات وعاش الليل ويحسن هنا قول بعضهم

* قلت والليل مقيم * ودجاه غير سارى *

* اعظم الخالق اجر الـ * ـخلق فى شمس النهار *

* فلقد ماتت كاما * تعز اسى واصطبارى *

وفى ايام الغيوم يصلح لها مافى ديوان الشهاب الحجازى من قول الشاعر

* تطل الشمس ترمقنا بطرف * خفى مدنف من خلف ستر *
* تحاول فتق غيم وهو يأبى * كعنين يحاول فتق بكر *

وقد فقد بعض الشعراء الورقة المشتملة على البيت الاول وعثر على الورقة المشتملة على البيت الثانى من هذين البيتين فكمله بقوله

* ازال الغيم ضوء الشمس عنا * فمازالت وقد حجبت بستر *
* تحاول فتق غيم وهو يأبى * كعنين يحاول فتق بكر *

وقد ضمن هذا المعنى العلامة الصفتى فى قوله

* وطلعة مصر معشوقى ولكن * اريد وصالها وتريد هجرى *
* احاول من تحجبها اختراقا * كعنين يحاول فتق بكر *

وضمن ذلك ايضا فى عكا فقال

* وعكاء الفريدة فى جمال * لها مهج الفراعن دون مهر *
* وخاطبها سوى من كان فيها * كعنين يحاول فتق بكر

فضض ولى النعم ختامها وزالت بكارتها فكان ماظن انه عنين بالنسبة اليها هو شديد قوى على فض الختام بجميع مدن الشام وغير الشام وكان جديرا بأن يتمثل بقول الشاعر

* نعشقتها بكرا على بعد حجبها * تتيه ولا يوما يعالى تعبأ *
* فازلت ايدى الجهد حتى اقتضضتها * وصيرتها ارضا تداس وتوطأ *

وقد ارخ شعراء مصر أخذ مدن الشام والروم وأجادوا * واما المطر فانه لا ينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة واذا نزل فى الغالب نزل بكثرة فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره الى جعل اعالى الدور محدودبة لتنزل منها المياه الى اسفل الدور وفى سائر البيوت والطرق مجار وبالوعات فتجرى وقت المطر سائر طرق باريس محدودة بمجار كالقناة الجارية المياه خصوصا وارض هذه المدينة مبلطة بالحجر فلا تتشرب المياه ابدا بل تسير الى هذه المجارى ومنها الى البالوعات وتغير مزاج الهواء والزمن فى باريس امر عجيب فانه قد يتغير فى اليوم الواحد

اومع ما بعده حال الزمن مثلا يكون فى الصباح صحو عجيب لايظن الانسان تغيره فلا يمضى نصف ساعة الا ويذهب بالكلية ويخلفه المطر الشديد وقد يكون حر يوم من الايام اربعا وعشرين درجة ولا يصل اليوم الآتى الى اثنى عشر وهكذا فقل أن يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد فمزاجها كمزاج اهلها كما سيأتى ومعلوم انه ينبغى أن يتحفظ الانسان من ضرر هذا التغير وان كان هواء باريس فى الجملة طيبا مناسبا للصحة ومع أن حرها لا يصل الى حر القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف ابدا ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد الى شدة الحر واما بردها فانه وان كان فى طاقة الانسان تحمله من غير عظيم تعب فانه لا يمكن للناس الشغل الا بالتدفئة بالنار فلذلك كان فى سائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية فى الاود ليوقد فيها النار وهى مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر فى الاودة دخان الحطب فان هذه المداخن نافذة الى الهواء فيجذب الهواء الدخان ويطرده خارج البيت وفى بعض الاود يصنعون نوعا من الفرن له باب من الحديد ويلحقون به قصبة من صفيح وينفذون هذه القصبة فى فرجة تتصل بالهواء فيضعون الخشب فى الفرن ويغلقون باب المحمى فيصعد الدخان جهة القصبة ومنها يصعد الى الخلا فتسخن الفرن وتحمى قصبتها فتسخن الاودة اوالرواق ونحوها وعندهم نوع آخر عجيب يسمى المداخن المستوية وعادة المدخنة اوالفرن المسماة عند الفرنساوية بوالا أن ظاهرها مطلى طلاء عظيما فى غاية النظافة والمدخنة دائما مرخمة الجوانب ولها عرصة من حديد وهى عند الفرنساوية لحسن صناعتها من زينة المحل فيكتنفونها فى الشتاء ومن اعظم اكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار ولا عجب فى ذلك نسأل الله انقاذنا من حر نار جهنم ولله در القائل

* النار فاكهة الشتاء فمن يرد * اكل الفواكه شاتيا فليصطل *

واحسن من قال

* دخلت يوما على صديق * والبرد يفرى به الفريا *
* فاوقد النار قلت كلا * لا نت اولى بها صليا *

وبالجملة فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤنة فهذا ما يستعينون به على البرد واما ما يستعينون به على التوقى من ضرر المطر فهو المظلات المسماة فى مصر بالشمسيات يعنى وقايات الشمس وتسمى تلك عند الفرنساوية وقاية المطر وفى الحر تمشى النساء بالشمسيات ولا يمكن للرجال ذلك ابدا وارض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة الا وبه بستان عظيم الاشجار والخضراوات وغيرها واغلب النباتات الغريبة يوجد بهذه البلدة فانهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم مثلا شجر النخل لا يخرج الا فى الاقاليم الحارة ومع ذلك صنع الفرنساوية كل الحيل حتى زرعوا منه شيأ وان كان لا يثمر الا انه ينفعهم فى الرجوع اليه عند قراءتهم فى علم النباتات وقد اشتهر عندنا أن النخل لا يوجد الا ببلاد الاسلام ويرد عليه انه عند كشف بلاد امريكة وجدوا بها نخلا غير منقول كما هو الظاهر من بلادنا فانظر هذا مع قول الفاضل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ما نصه * نخل شجرة مباركة عجيبة من عجائبها انها لا تنبت الا فى بلاد الاسلام انتهى ولعل النخل الموجود فى غير بلاد الاسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند اهل النباتات والمقصور على بلاد الاسلام نخل التمر لمناسبة مزاج قطرها فتأمل * ويقرب ارض باريس عين ماء معدنى باردة الماء ويشقها نهران احدهما وهو الاعظم والاشهر يقال له نهر السين بفتح السين والآخر نهر غوبلان قال بعض علماء الكيميا من الافرنج ان اقل المياه خليطا بالمواد الخارجية نيل مصر ونهر الكنك ببلاد الهند ونهر السين بباريس ويتفرع على ذلك اعتبار ما بهما فى فن الطب من الامور المناسبة لصحة الابدان وانه يحسن تطبيب وطبخ الخضروات بها دون غيرها وتحليل الصابون بها للغسل ونحو ذلك وفى نهر السين بداخل باريس ثلاثة جزائر احداها تسمى جزيرة السيتة وكان بها باريس القديمة والسيتة بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية معناها المدينة فكأنه قيل جزيرة المدينة وشتان بين هذا وبين النيل والروضة والمقياس فان نزهة الانسان فى الروضة والمقياس لا تضاهى لان الخليج

يعبر مصر والسين يعبر باريس الا ان نهر السين بتمامه يشق باريس وتجرى بها
السفن العظيمة الوسق وبه الارصفة الجيدة والتطاقة على حوافيه ومع ذلك
فنزهته غير سارة وشتان ايضا بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره فان ماء
النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله كما هو العادة فى ماء نهر
السين لكان من اعظم الادوية واقول ايضا انه فرق بعيد بين طعم ماء نهر السين
وماء العيون والقطوع والسواقى ببلاد صعيد مصر وبالجملة والتفصيل ففرق
بعيد بين تربة مصر وباريس ومياههما وهوائهما الا فى نحو الفروج واقليمهما
فلولا نجابة اهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن تدبيرهم واعتناؤهم
بتمهيد مصالح بلادهم لكانت مدينتهم كلا شئ فانظر مثلا الى نهر السين فانه
وان كان نزهة فى ايام الحر فانه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود
والانعقاد حتى انه يمكن أن يداس عليه بالعربات وانظر الى اشجار هذه
المدينة فانها تكون مورقة فى ايام الحر وفى ايام البرد لا تجدها الا قرعة
رديئة المنظر كأنها حطب محطب وهذا فى سائر البلاد الباردة وقال بعضهم
فى هذا المعنى

* سألت الغصن لم تعرى شتاء * وتبدو فى الربيع وانت كاسى *
* فقال لى الربيع على قدوم * خلعت على البشير به لباسى *

قال بعضهم فى وصف يوم برد ولياد * فى يوم برد جملة القدمنه فى حى * ومحال
سرب كأن الظفر فيه لابن ماء السماء * كأنما ماجت الارض فرسا لانهلال السحاب
وقويت اوتادها اذ صارلها بالسماء من حبال المطر امتدا الاسباب * وكأن السماء
قد رأت ما بالارض من السرور فبعثت تهنيها بصوت الرباب * فلكم تفتحت
اعين النور لعيون الغمام السابحة * ولكم استترت به مسرة واستقرت به سائحة *
ولكم ضحكت الارض لبكاء السماء بمدامعها * وظهر البشر على وجهها * وانظر
الى زمن تلك المدينة فانه دائما ممطر فى سائر ايام الشتاء وغالب ايام الحر فاذا انتزه
الانسان ساعة تنكد ساعة اخرى وذهب حظه بالرعد والبرق وانهطال المطر
والصواعق الأن الثلوج بها ومجارى البالوعات تقى من الوحل المضر عليست

كارض جيلان الذى قال فيها الشاعر

* اتت بارض جيلان زمانا * ولم يك ذاك منى غير جهل *

* فلم احصل على خير متاح * سوى سمع الغيوث وخوض وحل *

واهلها الا يبالون بذلك فيقال فى سائر ايامها ما قاله بعضهم فى وصف يوم شديد البرد من أنه يوم يجمد خمره * ويخمد جمره * ويخف فيه الثقيل اذا هجر * ويثقل فيه الخفيف اذا هجم * الا أن الفرنساوية يكثرون من الملاهى فى ليالى الشتاء لانهم يبذلون جهدهم فى التوقى من مضارها نسال الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها ادوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر ام الدنيا وقد مدحتها مدة اقامتى بباريس بقصيدة تتضمن مدح ولى النعمة دام عز دولته امين وها هى هذه القصيدة

* ناح الحمام على غصون البان * فاباح شيمة مغرم ولهان *

* ما خلته مذ صاح الا انه * اضحى قيد اليفه ومعانى *

* وكأنه يلقى الى اشارة * كيف اصطبارى مذ نأى خلانى *

* مع اننى والله مذ فارقتهم * ما طاب لى عيشى وصفو زمانى *

* لكننى صب اصون تلهفى * حتى كأنى لست بالالهفان *

* وبباطن الاحشاء نار او بدت * جمراتها ما طاقها الثقلان *

* ابكى دما من مهجتى لفراقهم * واود أن لا تشعر العينان *

* لى مذهب فى عشقهم وارثه * ومذاهب العشاق فى اعلان *

* ماذا على اذا كتمت صبابتى * حتى لوان الموت فى الكتمان *

ما احسن القتلى باغصان النقى * ما اطيب الاحزان بالغزلان *

قالوا التهوى والهوى يكسو الفتى * ابدا ثياب مذلة وهوان *

* فاجبتهم لو صح هذا اننى * اختار ذلى فيه طول زمانى *

* والذل للعشاق غير معرة * بل عين كل معزة للعانى *

* اصبو الى من ماز قد الهيفا * يزرى ترنحه بغصن البان *

واحن

واجن نحو شقيق ثم خده * قد نم فيه شقايق النعمان
ويروقنى ابدا نزاهة مقلتى * فى حسن طلعة فاتك فتان
امسى واصبح بين شعر حالك * ومنير وجه هكذا الملوان
ولطالما قضيت معه حقبة * ونسيم مصر معطر الاردان
زمن على به لمصر فديتها * حق وثيق عاطل النكران
لو شاهدت عيناى فائض نيلها * لم توف بعض شفائه احزانى
او لو حكى قلبى بحار علومها * طربا لما اخلو من الخفقان
ولكم بازهرها شموس اشرقت * وانارت الاكوان بالعرفان
خشذا عبير علومهم عم الورى * وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهمو مصر فصارت روضة * وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا * منها العروس بهجة الاكوان
قالوا انعطر روضها فاجبتهم * عطارها حسن شذاه معانى
حبر له شهدت اكابر عصره * بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره * لاجبت بالتصديق والاذعان
هذا لعمرى ان فيها سادة * قد زينوا بالحسن والاحسان
يا ايها النافى عليك فخارها * فاليك ان الشاهد الحسنان
ولئن حلفت بأن مصر لجنة * وقطوفها اللفا ترى دوانى
والنيل كوثرها الشهى شرابه * لا بر كل البر فى ايمانى
دار يحق لها التفاخر سيما * بعزيزها جدوى بنى عثمان
حاز المحامد اذ دعى بمحمد * ورقى العلا فعلا على الاقران
من كان مثل اميرنا فقريشه * اسكندر او كسرى انوشروان
فى وجهه النصر المبين على العدا * لاحت بشائره لكل معانى
فى كفه سيفان سيف عناية * والشهم ابراهيم سيف ثانى
سل عنه نبيك الحجاز مشافها * بدمار اهل الزيغ والبهتان
من قبل كانت سبله مذعورة * والآن صارت فى كمال امان

لاغروان نجد ادامت شكره * فلقد كساها حلة الايمان
وسعت الى زنج طلائع جيشه * فاطاعها العاتى من السودان
وتقلب الاروام عدل شاهد * كم منه قد نالوا اشد طعان
حتى لقد باؤا بوافر خزيهم * وتقاسموا حظا من الخسران
لم تخط قامة رمحه اغراضها * واصابة الاغراض نيل امانى
احيى بدولته علوما قد غدت * لوضوحها تجلى على الاذهان
بطل مكارمه الجليلة قلدت * هام الزمان مكلل التيجان
يهنيك يا مصر لقد حزت البها * بمحمد باشا على الشان
فاحظى بطاهر حكمه وتمتعى * وبذلك افتخرى على البلدان
مدى اكف الشكر وابتهلى بأن * يبقيه مولاه طويل زمان

واما مصر فانها سليمة من مكاره برد باريس كما انها خالية ايضا عن الامور المحتاج اليها فى وقت الحر مثل الاستعانة على تطرية الزمن فان اهل باريس مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الارض وقت الحر فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات و يمشون العجلة بالخيل ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع فلا تزال العجلات ماشية والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى ابلغ من ساعة ولهم غير ذلك من الحيل فمصرنا اولى بهذا لغلبة حرها (قد صار الآن جل ذلك بمصر) ثم من غرائب نهر السين انه يوجد فيه مراكب عظيمة فيها أعظم حمامات باريس المشيدة البناء وفى كل حمام منها ابلغ من مائة خلوة وسيأتى ذكرها ومن الامور المستحسنة ايضا أنهم يصنعون مجارى تحت الارض توصل ماء النهر الى حمامات اخرى وسط المدينة او الى صهاريج بهندسة مكملة فانظر اين سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال فان ذلك اهون مصرفا وايسر فى كل زمن وشطوط هذا النهر داخل المدينة مرصفة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين يطل المار بجانبها على النهر وهى محكمة البناء وقناطر هذا النهر بباريس ست عشرة قنطرة فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات ولها اربعمائة

قدم من الطول وعرضها سبعة وثلاثون قدما ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسندة على حجارة من احجار الصوانة وقد بنيت هذه القنطرة فى خمس سنوات وصرف فيها ثلاثون مليونا من الفرنكات يعنى ثلاثين الف الف فرنك وتسمى هذه القنطرة قنطرة استرلتز سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النمسا والموسقو فيقال لهذه الواقعة واقعة استرلتز ويقال لها واقعة السلاطين الثلاثة ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون * واسترلتز بلدة وقعت هذه النصرة بقربها وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور فلذلك ابدوها ببناء هذه القنطرة فسميتها بهذا الاسم للتذكار وبقاء الآثار ونهر السين يشق باريس نحو فرسخين وعرضه فيها مختلف فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا فى كل ثانية اوالف ومائتان فى كل دقيقة وسطح ارض باريس صنفان فالاول جبس والثانى طين ماء نهر السين بعد زيادته وارضها مركبة من راقات مختلفة * فالراق الاول مزرعة طينية مرملة ذات حصى * الثانى طفل مختلط بجبس وصدف * الثالث طفل صوانى * الرابع طفل جيرى صدفى * الخامس حجر الجير المخلوط بصدف * السادس البحر الملح * السابع طين شبيه بالابليزى * الثامن من طباشير وجير مفعوم طباشيرى ثم ان هذه المدينة مشقوقة ومخاطة بصفوف اشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية لا يخرج بعضها عن بعض ابدا وعلى منوالها بطريق شبرا وفى ابى زعبل وجهاد اباد وهى مورقة فى ايام الحر يستظل المار بها من حر الشمس وتسمى البلوار بضم الباء وسكون اللام فيوجد فى باريس بلوارات خارجة كالسور للمدينة وبلوارات داخل المدينة ومحيط البلوارات الخارجة ابلغ من خمسة فراسخ ونصف وعدد بلوارات باريس اثنان وعشرون بلوارا وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع يعنى الميادين كفسحة الرميلة بالقاهرة فى مجرد الاتساع لا فى الوساخة وعددها خمسة وسبعون ميدانا ولهذه المدينة ابواب خارجية برانية كباب النصر بالقاهرة وهى ثمانية وخمسون بابا وبهذه المدينة اربع قنايات من صنف

المسماة عيونا وثلاثة دواليب تجرى المياه بالنواعير الا انها عظيمة وستة وثمانون صهريجا ومائة واربع عشرة حنفية على الطرق ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون اهلها دائما فى الزيادة البينة وارضها فى الاتساع وعماراتها فى التكميل والتحسين وهم ثم جميعا فى توسيع دائرتها بالابنية العظيمة لاعانة ملوكهم على ذلك برفع عوائد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن قال الشاعر

هم الملوك اذا ارادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان

ان البناء اذا تعاظم شأنه * اضحى يدل على عظيم الشان

وبذلك تكثر اهلها فان اهلها الآن يعنى اهل الاستيطان بها فوق مليون من الانفس ومحيطها سبعة فراسخ فرنساوية ومطايا هذه المدينة كغيرها من بلاد فرانسا العربات الا انه يكثر فيها ذلك ويتنوع ولا تزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع وسيأتى تفصيل ذلك فى غير هذا المحل

* (الفصل الثانى فى الكلام على اهل باريس) *

اعلم ان البارزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات وليسوا مثل النصارى القبطة فى أنهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة وليسوا اسراء التقليد اصلا بل يحبون دائما معرفة اصل الشئ والاستدلال عليه حتى ان عامتهم ايضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الامور العميقة كل انسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الانعام كعوام اكثر البلاد المتبربرة وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى الصنائع الدنيئة فيحتاج الصانع بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيأ لم يسبق به او يكمل ما ابتدعه غيره ومما يعينهم على ذلك زيادة عن الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر فهم يقتدون بقول الشاعر

لعمرى رأيت المرء بعد زواله * حديثا بما قد كان يأتى ويصنع

فحيث الفتى لا بد يذكر بعده * فذكراه بالحسنى اجل وارفع

وقول ابن دريد

وانما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقيل لاسكندر لو استكثرت من النساء كثر ولدك وطاب بهم ذكرك فقال دوام الذكر في حسن السيرة والسنن ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الاشياء الجديدة وحب التغيير والتبديل في سائر الامور خصوصا في امر الملبس فانه لا قرار له ابدا عندهم ولم تقف لهم الى الآن عادة في التزيي وليس معنى هذا انهم يغيرون ملبسهم بالكلية بل معناه انهم يتنوعون فيه مثلا لا يغيرون لبس البرنيطة ولا ينتقلون منها الى العمامة وانما هم تارة يلبسون البرنيطة على شكل ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر سواء في صورتها او لونها وهكذا ومن طباعهم المهارة والخفة فان صاحب المقام قد تجده يجري في السكة كالصغير ومن طباعهم ايضا الطيش والتلون فينتقل الانسان منهم عن الفرح الى الحزن وبالعكس ومن الجد الى الهزل وبالعكس حتى ان الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة امور متضادة وهذا كله في الامور الغير المهمة واما في الامور المهمة فآراؤهم في السياسات لا تتغير كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره ومع كثرة ميلهم الى اوطانهم يحبون الاسفار فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب حتى انهم قد يلقون انفسهم في المهالك لمصلحة تعود على اوطانهم فكأنهم مصداق قول الحاجري

كل المنازل والبلاد عزيزة * عندي ولا كمواطني وبلادي

وقال آخر

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى * وحنينه ابدا لاول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة وانما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف الى السؤال

عن احوال البلاد وعوايد اهلها لينظروا بقصدهم فى الحضر والسفر وقد جرت
عادة النفوس الى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به كما قال الشاعر

ان النفوس على اختلاف طباعها * طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة الا باقوالهم وافعالهم لا باموالهم الا انهم لا يمنعون عن
اصحابهم ما يطلبون استعارته لاجنبيه الا اذا وثقوا بالمكافأة وهم فى الحقيقة
اقرب للبخل من الكرم وقد ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا مختصر السير والعوايد
فى ذكر الضيافة وفى الواقع حقيقة السبب فى ذلك هو أن الكرم فى العرب
ومن اوصافهم توفيتهم غالبا الحقوق الواجبة عليهم وعدم اهمالهم اشغالهم
ابدا فانهم لا يكلون من الاشغال سواء الغنى والفقير فكأن لسان حالهم يقول
ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ومن المركوز فى طبعهم حب الرياء
والسمعة لا الكبر والحقد فهم كما يقولون فى مدح انفسهم اخلص قلوبا من الغنم
عند ذبحها وان كانوا عند الغضب اشد افتراسا من الثور فان الانسان منهم
اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل
انسان نفسه خصوصا من داء الفقر او العشق ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد
وعدم الغدر وقلة الخيانة ومن كلام بعض الحكماء المواعيد شباك الكرام
يصطادون بها محامد الاحرار وقال آخر كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة
الديانة وقال آخر الشكر زكاة النعمة والوفاء به صلاح العقبى وقيل وعد الكريم
الزم من دين الغريم وقال بعضهم الخيانات تؤدى الامانات ومن طباعهم الغالبة
الصدق ويعتنون كثيرا بالمروءة الانسانية قال بعضهم فى مدحها المروءة اسم
جامع للمحاسن كلها ومن الصفات التى يقبح وصف الانسان بها عندهم كفر النعم
مثل غيرهم فيرون أن شكر المنعم واجب واظن أن جميع الامم ترى ذلك
وان كانت قد تفقد هذه الصفة عند افراد فهو خروج عن الطبع فهى كشفقة
الوالد وبر الولد فانهما قد يتخلفان فى بعض الافراد مع أنهما صفتان جبليتان
عند سائر الامم والملل ومما قيل فى ذلك وهو احسن ما قيل مع ما فيه من
الاستطراد

هب البعث لم يأتنا نذره * وأن لظى النار لم تضرم
أليس بكاف لذى فكرة * حياء المسيء من المنعم

و يقال ان ابابكر الخوارزمى الشاعر المشهور قصد الصاحب ابن عباد فاحسن نزله واكرمه واقام فى نعمته مدة ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما فى مكان حيث يجلس الصاحب وهما

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت * كفاه بالجود حتى اخجل الديما
فانها خطرات من وساوسه * يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمى

اقول لركب من خراسان اقبلوا * امات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره * الا لعن الرحمن من يكفر النعم

وهذا بخلاف ابى طالب عبد السلام ابن الحسين المأمونى من اولاد المأمون وهو شاعر محسن اقبل على الصاحب ابن عباد فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الاذن بالرحيل ومن وداعها قوله

اسير عنك ولى فى كل جارحة * فم بشكر لك يجرى منطقا أربا
انى لاهوى مقامى فى ذرا كرما * تهوى بعيك فى العافين أن تهبا
لكن لسانى يجرى السير عنك لان * يطبق الارض مدحا فيك منتصبا
اطلق تحت اهلى والانام همو * اذا ترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم ايضا صرف الاموال فى حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب فانهم مسرفون غاية السرف ثم ان الرجال عندهم عبيد النساء وتحت امرهن سواء كن حالات ام لا قال بعضهم ان النساء عند الهنود معدات للذبح وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت وعند الافرنج كالصغار المدللين قال الشاعر

أعص النساء فتلك الطاعة الحسنه * فلن يسود فتى يعطى النساء رسنه
يعقنه عن كثير من فضائله * ولو سعى طالبا العلم الف سنه

ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا اصلا مع أن هفواتهن كثيرة معهم فان الانسان ولو من اعيانهم قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية و ينفصل عنها مدة العمر والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب اقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رؤس الاشهاد تتلوث فيها الذرية بالفضيحة وان كانت بدون لعان ولا تعرض للاولاد وهذا يقع كثيرا في العائلات الكبيرة والصغيرة و يشهد مجلس المرافعة الخاص والعام فلا يعتبر الآخرون بذلك مع انه ينبغي الاحتراس منهن كما قال الشاعر

لا يمكن ظنك الاسيئا * بالنسا ان كنت من اهل الفطن
ما رمى الانسان في مهلكة * قط الا ظنه الظن الحسن

ومن كلام بعض العرب العرباء خطابا لزوجته

ان امرء غره منكن واحدة * بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

ومن الامور المستحسنة في طباعهم الشبيهة حقيقة بطباع العرب عدم ميلهم الى الاحداث والتشبيب فيهم اصلا فهذا امر منسي الذكر عندهم تأباه طبيعتهم واخلاقهم فمن محاسن لسانهم واشعارهم انها تأبى تغزل الجنس في جنسه فلا يحسن في اللغة الفرنساوية قول الرجل عشقت غلاما فان هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل فلذلك اذا ترجم احدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام الى وجه آخر فيقول في ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة اوذاتا ليتخلص من ذلك فانهم يرون هذا من فساد الاخلاق والحق معهم وذلك أن احد الجنسين له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها اليه كخاصة المغناطيس في جذب الحديد مثلا وكخاصة الكهربا في جذب الاشياء ونحو ذلك فاذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة وخرج عن الحالة الطبيعية وهذا الامر عندهم من اشد الفواحش حتى انه قلما ذكروه صريحا في كتبهم بل يكنون عنه بما امكن ولا يسمع التحدث به اصلا و يعجبني قول الشيخ عباس اليمني

كلفت بسعدى والرباب وزينب * ولم اعتبر اس العذار ولامه

ولا احترت تشبيها بأمرد مذهبا * وان ذم طبعى من يراه ولامه
وماحسنه عندى سوى فى عجاجة * وحمل قناة كالشهاب ولامه
ويغشى سعير الحرب ليس يصده * حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه

ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة بمثل المصاحبة والملاعبة والمسارة ومما قاله بعض اهل المجون الفرنساوية لا تغتر بأباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ولكن على كثرة تجربتها انتهى كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الاوائل خصوصا فى حق غير المتزوج فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء لا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وان كثر وقال آخر النساء حبائل الشيطان وقال الشاعر

تمتع بها ماساعفتك ولاتكن * جزوعا اذا بانت فسوف تبين
فان هى اعطتك الليان فانها * لآخر من طلابها ستلين
وان حلفت لا ينقض النأى عهدها * فليس لمخضوب البنان يمين

وبالجملة فهذه المدينة كباقى مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات وان كانت مدينة باريس من احكم سائر بلاد الدنيا ودار العلوم البرانية واثينة الفرنساوية فيقد دليلها فيما تقدم نوع مقابلة باثينة اى مدينة حكماء اليونان ثم رأيت بعض اهل الادب من الفرنساوية قال مامعناه ان البارزيين اشبه الناس بأهل أثينة اوهم اثينيو هذا الزمان فان عقولهم رومانية وطباعهم يونانية انتهى وقد اطلعناأن الفرنساوية من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين واقول هنا انهم ينكرون خوارق العادات ويعتقدون انه لا يمكن تخلف الامور الطبيعية اصلا وأن الاديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الاديان وأن الممالك العامرة تصنع فيها الامور السياسية كالامور الشرعية ومن عقائدهم القبيحة قولهم ان عقول حكمائهم وطبائعيهم اعظم من عقول

الانبياء واذكى منها ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر مع أن من الحكم العاقل من يصدق بالقضاء ويأخذ بالحزم فى سائر الاشياء وان كان لا ينبغى للانسان أن يحيل الاشياء على المقادير او يحتج بها قبل الوقوع فان من الامثال التى سارت بها الركبان * من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير ومن كلام بعضهم اذا وقعت المجادلة فالسكوت افضل من الكلام واذا وقعت المحاربة فالتدبير افضل من التقدير ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق وتعلمهم نظاما عجيبا فرغ منه ثم لا يزال يلاحظهم بصفة له تعالى تسمى صفة العناية والحفظ تتعلق بالممكنات اجمالا بمعنى انها تمنعها عن خلل انتظام الملك وسنذكر بعض عقائدهم فى غير هذا المحل * ثم ان لون اهل باريس البياض المشرب بالحمرة وقل وجود السمرة فى اهلها المتاصلين بها واتماد ذلك لانهم لا يزوجون عادة الزنجية للابيض اوبالعكس محافظة على عدم الاختلاط فى اللون حتى لا يكون عندهم ابن امة قال الشاعر

فى الهند طير ناطق * سبحان مولى النسمه
يقول فى تغريده * ابن الامه ما النسمه

بل لا يعدون انه قد يكون للزنج جمال اصلا بل لون السواد عندهم من صفات القبح فليس لهم فى المحبة مذهبان ولا يحسن عندهم قول الشاعر فى غلام اسود

اسود الوجه كأن بنانى خطته * بلفظ تحله آمالى
فيه معنى من البدور ولكن * نفضت صبغها عليه الليالى
لم يشنك السواد بل زدت حسنا * انما يلبس السواد الموالى

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر

الا ان عندى عاشق السمر غالط * وان الملاح البيض ابهى وابهج
وانى لا هوى كل بيضاء غادة * يضيء لها وجه وثغر مفلج
وحسبى انى اتبع الحق فى الهوى * ولا شك أن الحق ابيض ابلج

على انه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء فى الطبخ ونحوه لما يركز

فى اذهانهم أن السودان عارون عن الظرافة اللازمة ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسامرة والملاطفة يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال سواء الاحرار وغيرهن خصوصا يوم الاحد الذى هو عيد النصارى ويوم بطالتهم وليلة الاثنين فى البالات والمراقص الآتى ذكرها ويحسن قول بعضهم شعر

والراقصات وقد مالت ذوائبها * على خصور كاوساط الزنابير
يحقق الرداف بها عنا فيقضها * عقد البنود وشدات الزنانير

وما قيل ان باريس جنة النساء واعراف الرجال وجحيم الخيل وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن او بجمالهن واما الرجال فانهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء فان الانسان يحرم نفسه وينزه عشيقته واما الخيل فانها تجر العربات ليلا ونهارا على احجار ارض باريس خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربية امرأة جميلة فان العربجى يجهد خيله ليوصلها الى مقصدها عاجلا فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة * وحيث ان باريس من بلاد الفرنسيس فمعلوم أن لسان اهلها هو اللسان الفرنساوى ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول اعلم ان اللسان الفرنساوى من الافرنجية المستحدثة وهو لسان الغلوا يعنى قدماء الفرنسيس ثم كمل من اللغة اللاطينية واضيف اليه شئ من اللغة اليونانية النمساوية وبشئ من لغة الصقالبة وغيرها ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم تلقوا كلمات العلوم من لغات اهلها واكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية حتى كان لسانهم من اشيع الالسن واوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية فانه خال عنها وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس مثلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال الانادرا فان كانت فهى من هزليات اهزلياتهم وكذلك مثل الجناس التام والناقص فانه لا معنى له عندهم وتذهب طرافة

مايترجم اليهم من العربية مما يكون مرموزا به لذلك مثل قول صاحب البديعية

من الدقيق ومن تذكار ذى سلم * براعة العين فى استهلالها بدم
ومن اصيل النقى تم النقى وبدا * تناقص الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل الى لغاتهم ماقلته فى نظم مصطلح الحديث

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا * ومرسل الدمع من عينى قد اتصلا
تواترت قصتى فى الناس قاطبة * حتى لضعفى رثى لى كل من عذلا
تعنعن السحب عن عينى روايتها * كما يسلسل عنها القطر اذ هملا
رفعت امرى الى قاضى الهوى فأبى * وقال مالى على هذا المليح ولا
ياقلب صبرا على مافيك من علل * ولا تشذ وتجزع واترك المللا
ودع بقية ما بجملة من رمق * لديه لا تعتبر تعنيف من عذلا
فـذا الشلاح وبالتدليس مشتهر * وقوله منكر زور وما قبلا

الى آخر قولى فيها * وقفت حبى عليه لا يجاوزه * وهكذا شأن صب فى الهوى كلا * وسيأتى تتميم الكلام على ذلك وبالجملة فلكل لسان اصطلاح واصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ما امكن وتصريف الفعل مع فعل آخر مثلا اذا اراد الانسان أن يخبر بانه اكل فانه يقول املك أكولا يعنى فلا يمكن تصريف اكل فى بعض احواله الامع فعل الملك او التلبس فكأنه يقول تلبست بالاكل واذا اراد أن يقول خرجت يقول انا كون مخرجا يعنى خرجت وهكذا ويسمى فعل الملك وفعل الكينونة فعلين مساعدين يعنى انهما يعينان على تصريف الافعال ويتجردان عن معناهما الاصلى واذا ارادوا تعدية الفعل قالوا افعلت له الاكل يعنى جعلته يأكل او اكلته وفعلت له الخروج يعنى اخرجته وهكذا فلا يحكم تصريف الافعال كما يمكن فى اللغة العربية فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية ثم ان قواعد اللسان الفرنساوى وفن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى غرماتيق واغرمير بتشديد الميم عند الفرنسيس ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات فكأنه يقول

فن النحو قيدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة كما تقول نحن علوم العربية ونريد بها
الاثنى عشر علما المجموعة فى قول شيخنا العطار

نحو وصرف عروض بعده لغة * ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء
كذا المعانى بيان الخط قافية * تاريخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة فباب الزيادة
والنقص فيها مفتوح اذ حصرها وتقسيمها فى ذلك جعلى "لاحصرى" والظاهر
أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط فكيف يكون
كل من الشعر والقريض والقافية علما مستقلا برأسه وكل من النحو والصرف
والاشتقاق علما برأسه وانظر ما المراد بالتاريخ وبكونه من العلوم العربية
مع أن اول من ألف فيه علماء اليونان واول ما ظهر فى هذا الفن كتب اوميروس
فى واقعة تروادة ولم تؤلف فيه العرب الا فى الازمنة الاخيرة اللهم الا أن يكون
المراد بالتاريخ طريقة انشاء تواريخ الحوادث السنوية على اسلوب حساب
الجمل فيكون ايضا تسميته علما من قبيل التوسع فى تعريف العلم ❊ وعلم الخط قديم
ايضا فالافرنج يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام بل ويعدون منه
المنطق والوضع والمناظرة ❊ ثم ان اللغة الفرنساوية كغيرها من اللغات الافرنجية
لها اصطلاح خاص بها وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها
وخطها وانشاؤها ومعانيها وهذا ما يسمى اغرماتيق فحينئذ سائر اللغات ذات
القواعد لها فن يجمع قواعدها سواء كانت لدفع الخطاء فى القراءة او الكتابة فيها
او التصنيف بها فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك بل كل لغة
من اللغات يوجد فيها ذلك نعم اللغة العربية افصح اللغات واعظمها واوسعها
واحلاها على السمع فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر ما يتعلق بها
فله ادراك فى النحو فى حد ذاته وفى غيره كالصرف فمن الجهل أن يقال انه لا يعرف
شيأ بدليل جهله باللغة العربية واذا تبحر الانسان فى لغة من اللغات كان عالما
باللغة الاخرى بالقوة يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الاخرى وعبر له عنه كان قابلا
لتلقيه ومقابلته بلغته بل ربما كان يعرفه من قبل ويعرف زيادة عليه ويبحث فيه

ويبطل منه ما لا يقبله العقل كيف والكلام هو الملكة وحينئذ فقد لا يعرف الانسان المطولات باللغة العربية ويعرف ذلك باللغة الفرنساوية لو ترجم له على أن كل لغة مخدومة تلقاها مطولها واطولها وبعدها ثم ليس كل مائع ماء ولا كل سقف سماء ولا كل بيت بيت الله ولا كل محمد رسول الله وكما قال الشاعر

وهيهات ما كل النسيم مجازيا * ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر

وما كل مخضوب البنان بثينة * ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو اعظم اللغات وابهج * وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج * ولله در من قال

يليق الخطاب اليعربي باهله * فيهدى الوفا النقص والحسن القبح

ومن شرف الاعراب أن محمدا * اتى عربي الاصل من عرب فصح

وأن المثانى انزلت بلسانه * بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع ما يتراءى أن الاعجام لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا اصل له ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الافرنج بمعرفة اللغات المشرقية خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى البارون سلوسترى دساسى وهو من اكابر باريس واحد اعضاء جملة جمعيات من علماء فرانسا وغيرها وقد انتشرت تراجمه فى باريس وشاع فضله فى اللغة العربية حتى أنه لخص شرح المقامات الحريرية وسماه مختار الشروح وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه لا بواسطة معلم الا فى مبدء امره ولم يحضر مثل الشيخ خالد فضلا عن حضور المغنى مع انه يمكنه قراءة المغنى كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولا يمكنه ان يتكلم بالعربية الا اذا كان بيده الكتاب فاذا اراد شرح عبارة اغرب فى الالفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف ونظم عبارته فانه بليغ وان كان به يسير من الركاكة وسبب ذلك انه لم يكن

من قواعد الالسن الافرنجية فلذلك مالت اليها عبارته فى العربية قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجسرى على نهج دينه ودين الاسلام من غير أن يغبن احدهما

بسم الله المبدئ المعيد • الحمد لله العالى المتعالى • الذى له الاسماء الحسنى • ولا يخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شئ اقصى ولا ادنى • العليم الذى ليس لعلمه نهايه • والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغايه • لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان • ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان • مسبب الاسباب الذى لا يتحرك فى اطراف الارض والسماء متحرك الا بقدرته وارادته • ولا يتكلم فى اكناف الآفاق متكلم الا بالهامه وافادته • احمده حمد من اعترف بتقصير فهمه وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه الى تحصيل بعض العلوم والفنون • واشكره شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل فاخرجه برأفته وتأييده الى فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من الاباطيل الظنون • ثم اتوسل اليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين • واوليائه المقربين • الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر • وكالتاج على مفرق العصر • واسأله عز وجل أن يجعلنى من عباده المهتدين • الذين انعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين • انه على كل شئ قدير • وباجابة هذا الدعاء جدير • اما بعد فلما فضل الله جنس الناس على سائر المبدعات بفوائد الافهام • واختص بنى آدم من بين اصناف الحيوانات بكرامة الكلام • بعث فى كل امة من الامم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط احكام شريعتها معروفا مشهورا • ويصير للناظر فى طريقة الفصاحة اماما ودستورا • فمن اشتهر بذلك بين الانام • وصار المشار اليه فى هذا الباب عند اهل الاسلام • مؤلف المقامات المشهور بالحريرى وهو الشيخ الامام ابو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى الذى ازدرى من كان قبله من الادباء والفصحاء • واعجز من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء • فانى لما رأيت أن كتابه المذكور لم يزل منذ ألفه الى زماننا هذا عند اهل الادب كالعلم المشهور بحسب الخاصة والعامة

واسطة عقده * وخلاصة نقده * ويعتقدونه نور مصباحه * وضياء صباحه * بل لا يشك احد منهم انه ازهار بستانه * واثمار جنانه * وزلال مائه * ونسيم هوائه * احببت أن اشرحه شرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل * اكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل * وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير وذكرهم الحاج خليفة فى كتابه المسمى كشف الظنون * عن اسامى الكتب والفنون * وما وصل يدى اليه من مؤلفاتهم شروح اربعة منها غريب الايضاح فى غريب المقامات الحريرية للامام برهان الدين ابى الفتح ناصر ابن عبد السيد المطرزى الخوارزمى المتوفى سنة عشر وستمائة وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل المقصود * والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وانواع الادب وهو صاحب كتاب المغرب تكلم فيه على الالفاظ التى يستعملها الفقهاء من الغريب ومنها كتاب شرح ما غمض من الالفاظ اللغوية من المقامات الحريرية تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى المتوفى سنة عشرة وستمائة قال انى رأيت المقامات الحريرية مشحونة بالالفاظ اللغوية وهى احد الكتب التى عنى بها علماء العربية ودعانى ذلك الى تفسير ما غمض من الفاظها على الايجاز وقد كنت عثرت لبعض الناس على شئ من ذلك الا انه اسهب بما لا يحتاج اليه وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشيها ومنها شرح المقامات للاستاذ اللغوى النحوى ابى العباس احمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسى الشريشى المتوفى سنة تسعة عشر وستمائة وهو شرح طويل ذكر الشريشى انه لم يترك فى كتاب من شروح المقامات فائدة الا استخرجها * ولا عائدة الا استدرجها ولا نكتة الا علقها * ولا غريبة الا استلحقها * حتى صار شرحه تاليفا فى المقامات يغنى عن كل شرح تقدم فيها * ولا يحوج الى سواه فى لفظة من الفاظها ولا معنى من معانيها * وقد اخذ شيأ كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب سلوان المطاع فى عدوان الاتباع المتوفى بمدينة حماه سنة خمس وستين وخمسمائة ومن شرح الفندهجى وهو الشيخ الامام تاج الدين ابو سعيد محمد

ابن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى الفندهجى وقيل البندهجى
الصوفى المتوفى بمدينة دمشق سنة اربعة وثمانين وخمسمائة ومنها شرح آخر
تأليف الشيخ شمس الدين ابى بكر محمد بن ابى بكر الرازى صاحب اسئلة
القرآن ومختار الصحاح المتوفى بعد سنة ستين وستمائة وهذا الشرح لم يذكره
الحاج خليفة فى كتابه المذكور وهو شرح لطيف يشهد لصاحبه بكمال الادب
الا أن النسخة التى هى فى ملكى نسخة ناقصة سقط منها نحو نصف الكتاب
حتى لم يبق الا شرح الخطبة ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين اخذا من قول
الحريرى وانى والله طالما تلقيت الشتاء بكافاته الى آخرها وشرح ما يتلوها
من المقامات الا قوله فى المقامة الخمسين

(ولم تزل معتكفا على التعيج الشنع)

هذا ما كان لى من شروح المقامات وقد اجتمع عندى ايضا نسخ ست من كتاب
المقامات بلا شرح غير أن اكثرها يوجد به من التعليقات والحواشى ما ينتفع به
القارى وقد اخترت من تلك الشروح والحواشى كل ما يحتاج اليه طالب العلم
فى تحصيل المقصود ويستعين به الراغب فى الادب على ادراك المطلوب
ثم اضفت الى ذلك شيأ كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ومن مجمع الامثال
للعلامة الميدانى وكتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابن خلكان
ثم من ديوان البحترى ومن ديوان المتنبى وشرح المعلقات للزوزنى وغير هذا
من كتب الادب كل ذلك ليتيسر على من انجبه الغوص فى بحار اللغات العربية
أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة * وليسهل على المولع بغرائب العلوم الادبية
المشرقية أن يصل من جواهر معادنها الى كل فلذة ثمينة جزيلة * وانما المرجو
ممن نظر فى هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذنى على ما ظهر عليه من العثرات *
بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات * والله اسأله أن يجعل هذا
الكتاب لمن تصفحه من اهل الشرق والغرب ناصحا مفيدا * ولجميع من أسرع
الى مورده من ابناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا * انتهى كلامه
وقال فى المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب ان المقامات البديعية تفضل المقامات

الحريرية وقد ترجم الى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنين فى مجموعه كتاب الانيس المفيد * للطالب المستفيد * وجامع الشذور * من منظوم ومنثور * وبالجملة فمعرفته خصوصا فى اللغة العربية مشهورة مع انه لا يمكنه أن يتكلم بالعربى الابغاية الصعوبة وقد رأيت له فى بعض كتب توقفات عظيمة وايرادات جليلة ومناقضات قوية وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات

شعر

العلم لا يدرك بالتمنى * عليك بالتكرار والتأنى

كم اعجمى ألكن اخن * ادركه بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه التحفة السنية فى علم العربية فانه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به ابدا وله مجموع سماه المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية فقد جمعه وترجمه من العربية الى الفرنساوية وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم خصوصا فى اللغة الفارسية فانه بارع فيها غاية البراعة وشهرته بالفضل فى بلاد الافرنج لا تنكر حتى انه قد اتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم واتساع دائرة هذا الحبر فى معرفة لغات اهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابى فيلسوف الاسلام من أنه كان يحسن سبعين لسانا ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير فنقول هو ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى الفارابى الحكيم الفيلسوف فيلسوف الاسلام الماهر الباهر قدم على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع العلوم فادخل عليه وهو بزى الاتراك وكان ذلك عادته فوقف بين يديه فقال له سيف الدولة اجلس فقال حيث انت او حيث انا فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مجلس سيف الدولة وزاحمه فى مسنده حتى اخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان يسارهم به قل أن يعرفه احد فقال لهم بذلك اللسان ان هذا الشيخ

قد اساء الادب وانى مسائله عن اشياء ان لم يعرف بها فاخرجوه فقال له ابو نصر
بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فتعجب سيف الدولة منه
وقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن اكثر من سبعين لسانا فعظم
عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ولم يزل كلامه
يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل و بقى يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون
ما يقول فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك فى أن تأكل قال لا
قال فهل تشرب قال لا قال فهل تسمع قال نعم فأمر سيف الدولة باحضار
القيان فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بانواع الملاهى فلم يحرك احد منهم آلته
الا عابه ابو نصر وقال له اخطأت فقال له سيف الدولة فهل تحسن فى هذه
الصنعة شيأ قال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها واخرج منها عيدانا
فركبها ثم لعب بها فضحك كل من فى المجلس ثم فكها وركبها ولعب بها فبكى كل
من فى المجلس ثم فكها وركبها ولعب بها فنام كل من فى المجلس حتى البوّاب
فتركهم نياما وخرج * وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة مقامه
بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجمع ماء او مشتبك اشجار ورياض يؤلف هنالك
كتبه ويغشاه المشتغلون عليه وكان يلازم غياض المرجل ورياض يصنف
هنالك وقد ينام فتحمل الريح تلك الاوراق وتنقلها من مكان الى مكان قيل وهو
السبب فى تمزق بعض مصنفاته فانه كان يصنف فى الرقاع دون الكراريس
* وكان ازهد الناس فى الدنيا مستقلا منها اجرى عليه سيف الدولة فى كل يوم
اربعة دراهم ومن شعره

لما رأيت الزمان نكسا * وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال * وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا * به من العزة اقتناع
اشرب مما اقتنيت راحا * لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى * ومن قراقيرها اسماع
وأجتنى من علوم قوم * قد اقفرت منهم البقاع

ومنه

انى حل حيز ذى باطل * وكن بالحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا * ولا المرء فى الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على * اقل من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعـن على نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم اولى بنا * فماذا التزاحم فى المركز

توفى ابو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ من الهجرة

ثم ان الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة اوجها حتى ان كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم فى الفاظ العلم الاصطلاحية حتى علوم السوقة فانها لها مدارس كمدرسة الطباخة يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها وان كان هذا من انواع الهوس غير انه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الاشياء ولو الدنيئة وسواء فى ذلك الذكور والاناث فان النساء تاليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى اخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ومنهن من تتمثل بانشائها ومراسلاتها المستغربة ومن هنا يظهر لك أن قول بعض ارباب الامثال جمال المرء عقله وجمال المراة لسانها لا يليق بتلك البلاد فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها ثم العلوم الادبية الفرنساوية لا بأس بها ولكن لغتها واشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليههم ما يستحسنونه فيقولون مثلا اله الجمال واله العشق واله كذا فألفاظهم فى بعض الاحيان كفرية صريحة وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون وانما هذا من باب التمثيل ونحوه وبالجملة فكثير من الاشعار الفرنساوية لا بأس به ولنذكر لك شيأ من بعض اشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير

واذا القلوب تعلقت * رات الجميع جميلا
كسفينة تسعى الى * شعب يكون مهولا
أبقى على زمن الهنا * ان صح كان بخيلا

وقوله مترجما لى

ودّع القلب فيك يا قاتلى * يا خيال المسعد الزائر
ان روحى بالجراح اصطلت * وعلى البرء لست بالقادر
وسرورى فى الهوى لحة * مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة نظم العقود فى كسر العود للخواجة يعقوب المصرى منشأ الفرنساوى استيطانا وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنين واربعين واخرجتها من ظلمات الكفر الى نور الاسلام قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير

زادنى الحال اذ صفا لى حالى * وغنائى بالعود والالحان
باسم ربى والسادة الاعيان * وترنمت شجوة بالحسان
وبسعدى ذات الجبين المفدّى

خصنى سعدها الى انشادى * ورمى النار لحظها فى فؤادى
فلهذا شعرى غدا فى اتقاد * وبدا من حماسه فى انفراد
لذوى الفهم والمعارف يهدى

احرق العشق قلبنا كاحتراقى * فانت نطق اللظى بالعناق
فتضامنا ضمة المشتاق * وتلاثمنا عادة العشاق
فتثنت لتقبيل الغصن قدّا

شنف السمع من رقيق التغانى * واسمع يا اخى صوت المثانى
يا خليلى بالله هلا ترانى * انى قد احييت شعر ابن هانى
بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذه ابيات تخلص الشاعر الى ذم العشق وتوابعه فقال

واحيائى واخجلتى صارفنى * أنى فى هوى الملاح اغنى
برخيم الغناء كظبى اغن * وباوتارى انشدى واثنى
ما ارى هذا للفضائل اجدى

انا بلى كلها لى عقبه * اومالى عواقب مستقيمه

بل على طاعة الهوى مستديمه * انما هـذه مراق ذميمه

اقتنى هزلها وارفض جدّا

اعلى احتساء كاس نصيب * شامل غير كافل لاريب

مع انى والله غير مريب * همتى همة الذكى النجيب

تقتص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته لاسيما وهى تتأذى من فراقه

ويح عزوسودد نشتريه * بنواح الملاح اذ نشتهيه

يافؤادى سل عنداى تيه * يغفر الذنب من قتال بنيه

لنوال الفخار علك تهدى

يافؤادى قداسلمتك الامورا * واباحتك تغبر ان يبورا

اقترضى على القلب أن تجورا * لست الفيك آسفا مقهورا

حيث قد بت قلبها الآن قدّا

ومن جملة قوله فى مدح افندينا حفظه الله مخاطبا لمصر فى هذه القصيدة

بسيامات فيك اضحى كفيلا * بيد دانت من مضى التقبيلا

جددت فى جبينك الاكليلا * نضرت غصنا فيك حاز ذبولا

واعادت فيه الشبيبة ودا

وقال فيها مخاطبا لولى النعمة حفظه الله تعالى مشيرا الى واقعة المماليك

فعلك الخير عنده حسن ذكر * مستقر على مدى كل دهر

فاغتنم حفظ مشتهى نيل مصر * فلقد شابه دماسيف نصر

وغدا فى حماك يشفق رعدا

وهذه القصيدة كغيرها من الاشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى اصلها ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علو نفس صاحبها ومثل ذلك لطائف القصائد العربية فانه لايمكن ترجمتها الى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حسنها بل وبما صارت باردة وسيأتى تتميم الكلام على غالب

(الفصل الثالث في تدبير الدولة الفرنساوية)

ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ونستوفي غالب احكامهم لتكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر فنقول قد سلف لنا أن باريس هي كرسي بلاد الفرنسيس وهي محل اقامة ملك فرانسا واقاربه وعائلته المسماة البربون بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم الباء الثانية فلا يكون ملك فرانسا الا من هذه العائلة وعملكة الفرنساوية متوارثة ومسكن ملك فرانسا سراية تسمى التوارى بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرانسا بقولهم كابينة التوارى يعني ديوان هذه السراية اى ديوان الملك ثم ان اصل القوة في تدبير المملكة لملك فرانسا ثم الجماعة اهل شمبردوبير بفتح الشين وسكون الميم يعني ديوان البير بفتح الموحدة اى اهل المشورة الاولى ثم الديوان رسل العمالات ثم ان الديوان الاول يعني ديوان البير هو في قصر باريس يسمى قصر لقسمبورغ والديوان الثاني في قصر بوربون ثم يلي ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء ثم ديوان يسمى الديوان الخصوصي وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى ديوان سر الملك وديوان يسمى ديوان الدولة للمشورة فحينئذ ملك فرانسا صاحب قوة تامة في مملكته بشرط رضاء تلك الدواوين المذكورة وله خصوصيات أخرسيأتي ذكرها في السياسة الفرنساوية ووظيفة اهل ديوان البير تجديد قانون مفقود او ابقاء قانون موجود على حاله ويسمى القانون عند الفرنساوية شريعة فلذلك يقولون شريعة الملك الفلاني ومن وظيفة ديوان البير أن يعضد حقوق تاج المملكة ويحامى عنه ويمانع سائر من يتعرض لها وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة في زمن اجتماع ديوان رسل العمالات باذن ملك الفرنسيس وعدد اهل ذلك الديوان غير منحصر في عدة مخصوصة ولا يقبل دخول الانسان فيه الا وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يشرك في الشورى الا وهو ابن ثلاثين سنة مالم يكن من بيت المملكة والانفيمبر دولاته يحسب من اهل هذا

الديوان ويشرك في المشورة حين يبلغ عمره خمسا وعشرين سنة وكانت وظيفة البيرية متوارثة للذكور فيقدم اكبر الاولاد ثم بعد موته يقدم من يليه وهكذا ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والاوامر والتدبير والبحث عن ايراد الدولة ومدخولها ومصرفها والمنازعة في ذلك والممانعة عن الرعية في المكوس والفرد وغيرها ابعاد الظلم والجور وهذا الديوان مؤلف من عدة رجال ينصبهم اهالي العمالات وعددهم اربعمائة وثمانية وعشرون رسولا ولا يقبل الامين يكون سنه اربعين سنة ولا بد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها الف فرنك كل سنة * واما الوزراء فانهم متعددون فنهم وزير الامور الداخلية ثم وزير الحرب ثم وزير الامور الخارجية ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيس النازلين ببلاد يعمرونها في غير بلاد الفرنسيس ثم وزير الخزينة ثم وزير الامور الدينية ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ثم وزير التجارات ووزير الامور الداخلية نظير الكتخدا بمصر ووزير الخزينة نظير الخازندار ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ووزير الامور الخارجية نظير رئيس افندى بالدولة العثمانية ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية وهكذا غير أنه عندنا ليس وزيرا وعندهم يعدونه من الوزراء * واما الديوان المخصوص فانه تخصيص الملك لجماعة بمشورته اياهم على مادة مخصوصة والغالب على اهل هذا الديوان كونهم من اقاربه ووزرائه * واما ديوان سر الملك فانه يتألف من وزراء السر ومن اربعة وزراء أخر لهم وزارة مطلقة ثم جماعة من ارباب المشورة في الدولة * واما ديوان الدولة فانه يتألف ممن يعينه الملك من اقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة ثم من وزراء الدولة المطلقين ومن ارباب المشورة ومن جماعة وكلاء على التقارير ومن جماعة يسمعون المشورة ليتعلموا تدبير الدول ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرانسا ليس مطلق التصرف وأن السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها اهل الدواوين

وأن ديوان البير بمانع عن الملك وديوان رسل العمالات يحامى عن الرعية والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه اساسا لسياستهم هو القانون الذى الفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر بضم اللام وكسر الواو ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم وفيه امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل * والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة ومعناها فى اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها فاطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة فلنذكره لتدوان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما ابدا والعدل اساس العمران ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء اوفى ضده من كلام بعضهم ظلم البناى والايامى مفتاح الفقر * والحلم حجاب الآفات * وقلوب الرعية خزائن ملكها فما اودعه اياها وجده فيها * وقال آخر لا سلطان الا برجال ولا رجال الا بمال ولا مال الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل * وقيل فيما يقرب من هذا المعنى سلطان الملوك على اجسام الرعايا لا على قلوبهم * وقال بعضهم * ابلغ الاشياء فى تدبير المملكة تشييدها بالعدل وحفظها من الخلل * وقيل اذا اردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ان المولى اذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذره فى مخالفته * وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل

تروم ولاة الجور نصرا على العدا * وهيهات يلقى النصر غير مصيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه * سهام دعاء من قسى قلوب

(وقال آخر)

لا يبلغ المقتال والظلوم * والبغى مرعى نبته وخيم
مضجع الظالم بئس المضجع * ومصرع الباغى فبئس المصرع
ان القصاص واقع بالمثل * والدهر يجزى بيسير القتل

وفى هذا القانون عدة مقاصد المقصد الاوّل الحق العام للفرنساوية ● الثانى كيفية تدبير المملكة ● الثالث فى منصب ديوان البير ● الرابع فى منصب ديوان رسل العمالات الذين هم امناء الرعايا ونوابهم ● الخامس فى منصب الوزراء ● السادس فى طبقات القضاة وحكمهم ● السابع فى حقوق الرعية قال صاحب الشرطة المذكورة

الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم

المادّة الاولى سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة ● المادّة الثانية يعطون من اموالهم بغير امتياز شيأ معينا لبيت المال كل انسان على حسب ثروته ● المادّة الثالثة كل واحد منهم متأهل لاخذ اىّ منصب كان واىّ رتبة كانت ● المادّة الرابعة ذات كل واحد منهم يستقل بها ويضمن له حرّيتها فلا يتعرّض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة وبالصورة المعينة التى يطلبها بها الحاكم ● المادّة الخامسة كل انسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه احد فى ذلك بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرّض له فى عبادته ● المادّة السادسة يشترط أن تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية ● المادّة السابعة تعمير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع له شئ من بيت مال النصرانية ولا يخرج منه شئ لتعمير معابد غير هذا الدين ● المادّة الثامنة لا يمنع انسان فى فرانسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط أن لا يضرّ ما فى القانون فاذا ضرّ ازيل ● المادّة التاسعة سائر الاملاك والاراضى حرم فلا يتعدّى احد على ملك آخر ● المادّة العاشرة للدولة دون غيرها أن تكره انسانا على شرآء عقاره لسبب عام النفع بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء ● المادّة الحادية عشر جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآرآء والفتن يجب نسيانه وكذلك ما وقع من المحكمة واهل البلد ● المادّة الثانية عشر اخذ العساكر برتب ويتقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر

كيفية تدبير المملكة الفرنساوية

المادة الثالثة عشر ذات الملك محترمة ووزراؤه هم الكفلاء فى كل مايقع يعنى هم الذين يطالبون ويحكم عليهم ولا يمكن أن يمضى حكم الا اذا نفذه امر الملك * المادة الرابعة عشر الملك هو اعظم اهل الدولة فهو الذى يأمر وينهى فى عساكر البر والبحر وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها وهو الذى يولى المناصب الاصلية ويجدد بعض قوانين وسياسات ويأمر بما يلزم ويمضيه اذا كان فيه منفعة للدولة * المادة الخامسة عشر تدبير امور المعاملات بفعل الملك وديوان البير وديوان رسل العمالات * المادة السادسة عشر يقرر الملك وحده جزآء القوانين ويأمر باعلانها واظهارها * المادة السابعة عشر يبعث القانون بأمر الملك الى ديوان البير اولا ثم الى ديوان رسل العمالات الا قانون الجبايات والفردة فانه يبعث اولا الى ديوان رسل العمالات * المادة الثامنة عشر تنفيذ الدولة القانون اذا رضى به جمهور كل من الديوانين * المادة التاسعة عشر لاحد الديوانين أن يلتمس من الملك اظهار قانون فى امر كذا وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون * المادة العشرون يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى وماصنعه احد الديوانين واستقر رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة ايام * المادة الحادية والعشرون اذا رضى الديوان الآخر بالقانون فانه يسوغ عرضه على الملك فاذا طرحه الديوان الآخر لايمكن عرضه اى الملك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة * الثانية والعشرون الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للرعية * الثالثة والعشرون ماهية الملك محدودة له مدة توليته على كيفية واحدة لاتزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان البير يعنى ديوان المشورة الاولى * الرابعة والعشرون ديوان البير هو جزء ذاتى لتشريع القوانين التدبيرية * الخامسة والعشرون يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة اشهر بأمر الملك فى زمن واحد مع افتتاح ديوان رسل العمالات فيفتتحان معا فى يوم واحد ويغلقان كذلك * السادسة والعشرون لو اجتمع ديوان البير قبل افتتاح ديوان رسل العمالات او قبل اذن ملك فرانسا كان سائر

الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء وملغياء * السابعة والعشرون تسمية الشخص بيرفرانسا هو حق الملك وعدد اهل ديوان البير غير محدود وللملك أن يلقب البير بأى لقب كان وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته وأن يجعله متوارثا لذريته * الثامنة والعشرون يمكن أن يدخل البير فى الديوان وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يبدى رأيه فى المشورة الابعد بلوغه فى السن ثلاثين سنة * التاسعة والعشرون رئيس ديوان البير هو قاضى قضاة فرانسا مهردار ملكها اى وزير خاتم ملكها فان اعتذر خلفه من اهل الديوان من يعينه الملك لذلك * الثلاثون اقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة البيرية بمجرد ولادتهم ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان ولا يكون لهم كلمة ورأى فى المجلس الابعد بلوغهم فى السن خمسا وعشرين سنة * الحادية والثلاثون لا يمكن لاحد من اهل مجلس البير أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه الا بأذن من الملك بأن يبعث رسولا فان فعلوا ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا * الثانية والثلاثون كل آراء ديوان البير يجب كتمها عن غيرهم * الثالثة والثلاثون ديوان الملك هو الذى يستقل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القوانين * الرابعة والثلاثون لا يمكن أن يقبض احد على واحد من اهل ديوان البير الا بأمر ذلك الديوان ولا يمكن ان يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات

ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون بكسر الخاء الذين يقال لهم الكلكتور بكسر اللام المشددة وسكون الكاف وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة * السادسة والثلاثون كل العمالات تبقى على ماهى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل * السابعة والثلاثون من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات لا خمسة كما كانت * الثامنة والثلاثون لا يصلح الانسان للدخول فى ديوان الرسل الا اذا بلغ اربعين سنة وكان له املاك يدفع عليها ألف فرنك فردة * التاسعة والثلاثون

لابد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف نفس موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران لإختيار الرسل منها فان لم يكمل من يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها مما لهم املاك يدفعون عليها دون ألف فرنك ثم اختيار الرسل من جملة الخمسين * الاربعون شرط الكتور اى المنتخب للرسل أن يكون له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سنة * الحادية والاربعون رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك فيدخلون فى اهل هذا المجلس * الثانية والاربعون يجب أن يكون نصف رسل العمالات فصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة * الثالثة والاربعون رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان * الرابعة والاربعون مجالس هذا الديوان تكون جهرية الا اذا اراد خمسة من رسل العمالات كتم شئ فانه يجوز اخراج الناس الاجانب من الديوان * الخامسة والاربعون الديوان ينقسم الى دواوين صغيرة تسمى البورو يعنى مكاتب فاهل هذه البورو يتحصن الاشياء التى يتحسنها الملك ويبعثها * السادسة والاربعون لا يتم تصليح شئ فى آداب سياسات فرانسا ولا يمضى الا اذا رضى به الملك وبحث فيه فى تلك الدواوين الصغيرة * السابعة والاربعون ديوان رسل العمالات يتلقى تقارير طلب الفرد والمكوس ولا تصل الى ديوان البير الا اذا رضى بها ذلك الديوان * الثامنة والاربعون لا يمكن أن تنفذ امر الملك فى الفرد الا اذا رضى به الديوانان واقره الملك * التاسعة والاربعون فردة العقار لا تقطع الا سنة فسنة ويمكن قطع غيرها الاجل معلوم * الخمسون على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ولكن متى اراد وله أن يحل ديوان رسل العمالات بشرط أن يصنع ديوان رسل جديدا وأن لا يزيد فى تجديد الآخر عن ثلاثة اشهر * الحادية والخمسون لا يمكن أن يقبض احد على انسان من اهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان وشهرا ونصفا قبل فتحه وشهرا ونصفا بعده * الثانية والخمسون لا يمكن أن يقبض على احد من اعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات مادام الديوان مفتوحا ومادام اجتماع الديوان الا اذا

بحث وهو متلبس بالخطيئة او اذن الديوان باخذه * الثالثة والخمسون عرض الحال الذى يعرض على احد الديوانين لا يقبل الا اذا كان مكتوبا وآداب السياسة الفرنساوية لا تجوز ان يقدم الانسان تقريرا بنفسه فى المجلس

(الوزراء)

المادة الرابعة والخمسون * يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين وله زيادة على ذلك حق الحضور فى احدهما ومتى طلب أن يتكلم فى الديوان وجب أن يصغى الى كلامه * الخامسة والخمسون يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء فتسمع دعواه فى ديوان البير ليحكم بينهم ذلك الديوان فيفصل خصومتهم * السادسة والخمسون لا يتهم الوزير الا بخيانة فى التدبير بالرشوة او باختلاس الاموال فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر فى القوانين المخصوصة

(طائفة القضاة)

المادة السابعة والخمسون * الحكم حق الملك يعتبر كأنه صادر منه فيحكم القضاة المنصوبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ويمتون الحكم باسم الملك * الثامنة والخمسون اذا ولى الملك قاضيا وجب ابقاؤه ولا يجوز عزله * التاسعة والخمسون القضاة المنصوبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر * الستون اقامة قضاة المعاملات لا يمكن ابطالها ابدا * الحادية والستون اقامة قضاة المصالحة تبقى ايضا ولكن قاضى المصالحة يجوز عزله وان كان منصبه يأتيه من الملك * الثانية والستون لا شئ يخرج عن حكم هؤلاء القضاة * الثالثة والستون لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم او مجالس زائدة الا بجمع قضاة النقباء الذين يقال لهم بريوتال اذا احتاج الامر الى ذلك * الرابعة والستون اقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعى تكون على رؤس الاشهاد فى مواد العقوبات الا اذا كان الذنب مضرا اشهاره بين العامة او مخلا بالحياء فان اهل الحكمية يخبرون الناس بأن هذا الامر يقع سرا * الخامسة والستون اقامة

الجماعة المحكمين المسماة جورية الجنايات لاتبطل ابدا واذا لزم تغيير بعض شئ في مواد القضاة لا يمكن الا اذا كان بقانون من الدوانين * السادسة والستون قانون معاقبة الانسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد ابطل بالكلية ولا يمكن تجديده ابدا * السابعة والستون للملك أن يعفو عن الانسان وأن يخفف مواد العقوبات * الثامنة والستون كتب قوانين السياسات التي عليها العمل الغير المناقضة لما في هذه الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها الا اذا تغير بقانون آخر

(حقوق الناس التي يضمنها الديوان)

المادة التاسعة والستون كل اهل العسكرية سوى اصحاب خدمة دائمة او متروكين لوقت الحاجة وكل النساء المتوفى عنهن ازواجهن وهم في العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخرجهم * السبعون ديون الرعية التي في ذمة الديوان هي مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع ارباب الديون * المادة الحادية والسبعون لم يحصل لاهل الشرف القديم من درجات الشرف الا الاسم فقط وكذلك لارباب الشرف الجديد ثم للملك فرانسا ان يعطي درجة الشرف الفرنساوي لاى انسان شاء ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه فليس للشرف مزية غير التسمية * الثانية والسبعون من له علامة التميز المسماة درجة الشوالية يعني الفارس في قمته فان له أن يحفظها على الصورة التي يعينها ملك فرانسا لهذه الدرجة * الثالثة والسبعون القبائل والنزلات الخارجة من فرانسا لتعمير بلاد اخرى وللاستيطان بها تكون مدبرة بقوانين وسياسات اخرى * الرابعة والسبعون * على كل ملك من ملوك فرانسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنساوية أن لا يحيد عن هذه الشرطة * ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل من منذ الفتنة الاخيرة الحاصلة في سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وألف بتاريخ الميلاد فراجعها في باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة انتهى فاذا تأملت رأيت اغلب ما في هذه الشرطة نفيسا

وعلى كل حال فامره نافذ عند الفرنساوية ولنذكر هنا بعض ملاحظات
فنقول * قوله فى المادة الاولى سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة
معناه سائر من يوجد فى بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لايختلفون فى اجراء
الاحكام المذكورة فى القانون حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك
وينفذ عليه الحكم كغيره فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على
اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بانه كالعظيم نظرا الى اجراء
الاحكام ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية
وهى من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم
فى الآداب الحضرية * ومايسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين مايطلق عليه
عندنا العدل والانصاف وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى
فى الاحكام والقوانين بحيث لايجور الحاكم على انسان بل القوانين هى المحكمة
والمعتبرة فهذه البلاد حرية يقول الشاعر

وقد ملأ العدل أقطارها * وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل فى قطر من الاقطار فهو نسبى اضافى لاعدل كلى حقيقى
فانه لاوجود له الآن فى بلدة من البلدان فهو كالايمان الكامل والحلال
الصرف وامثال ذلك ونظائره فلامعنى لحصر المستحيل فى الغول والعنقاء
والخل الوفى كما هو مذكور فى قوله

لما رأيت بنى الزمان ومابهم * خل وفى للشدائد أصطفى
ايقنت أن المستحيل ثلاثة * الغول والعنقاء والخل الوفى

مع أن ذلك ممنوع فى العنقاء فانها نوع من الطيور موجود الافراد يذكر
عند ارباب علم الحشائش وذكر الثعلبى فى قصص الانبياء قضية العنقاء مع
سيدنا سليمان فى تكذيبها بالقدر نعم لاوجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند
العامة من العرب والافرنج من انها من اعلاها عقاب ومن اسفلها اسد
وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود * واما المادة الثانية فانها محض سياسة
ويمكن أن يقال ان الفرد ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك

البلاد لطابت النفس خصوصا اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لاتفى بحاجة بيت المال اوكانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها اصل فى الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم * ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء الخراج عمود الملك * ومدة اقامتى بباريس لم اسمع احدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات ابدا ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى وتنفع بيت مالهم خصوصا واصحاب الاموال فى امان من الظلم والرشوة * واما المادة الثالثة فلا ضرر فيها ابدا بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد فعله حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تقدمهم على حالة واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة ابيه وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعته ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع لان الابن يحسن عادة ما رأى اباه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع فى غيره فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضيا صنعته لا يتمنى اعلى منها بل لايبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها انتهى ويرد عليه انه ليس فى كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله وبلغ آماله * واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء * واما المادة الثامنة فانها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات الاولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة فان الانسان

يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سوآء كانت داخلية اوخارجية اى داخل المملكة اوخارجها وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالايحصى الا انها قد تتضمن اخبارا تتشوف نفس الانسان الى العلم بها على انها ربما تضمنت مسائل علية جديدة التحقيق اوتنبيهات مفيدة اونصائح نافعة سوآء كانت صادرة من الجليل اوالحقير لانه قد يخطر ببال الحقير مالايخطر ببال العظيم كما قال بعضهم لا تحتقر الرأى الجليل يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لاتستهان لهوان غواصها

وقال الشاعر

لما سمعت به سمعت بواحد * ورأيته فاذا هو الثقلان

فوجدت كل الصيد فى جوف الفرا * ولقيت كل الناس فى انسان

ومن فوائدها أن الانسان اذا فعل فعلا عظيما اورديئا وكان من الامور المهمة كتبه اهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب وردع صاحب الفعلة الخبيثة وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولاتبديل وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر واما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف وهى واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعاف وتقيها بما فى العاشرة من باب اللياقة الظاهرة * وفى المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهى أن تدبير امر المعاملات لثلاثة مراتب المرتبة الاولى الملك مع وزرآئه والثانية مرتبة البيرية الحامية للملك والثالثة مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لاتظلم من احد وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها وهى آمنة منه بالكلية ولايخفى عليك حكمة باقى المواد

(خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة)

(حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم)

(مضمون الشرطة بعد التغيير)

الفرنساوية مستوون فى الاحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغنى فان هذه مزايا لا تنفع لها الا فى الاجتماع الانسانى والتمدن فقط لا فى الشريعة فلذلك كان جميعهم يقبل فى المناصب العسكرية والبلدية كما انه يعين الدولة من ماله على قدر حاله وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا فى الصور المذكورة فى كتب الاحكام ومن قبض على انسان فى صورة غير منصوصة فى الاحكام يعاقب عقوبة شديدة ومن الاشياء التى ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل انسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرض لعابد فى عبادته ولا يجوز وقف شئ على الكنائس او اهداء شئ لها الا باذن صريح من الدولة وكل فرنساوى له أن يبدى رأيه فى مادة السياسات او فى مادة الاديان بشرط أن لا يخل بالانتظام المذكور فى كتب الاحكام * كل الاملاك على الاطلاق حرم لا تهتك فلا يكره انسان ابدا على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة بشرط اخذه قبل التخلية قيمته والمحكمة هى التى تحكم بذلك * كل انسان عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه يعنى انه كل سنة يجمع اولادا احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لاخذ العساكر السنوية منهم ومدة خدمة العسكرية ثمانى سنوات وكل فرنساوى عمره ثمانى عشرة سنة وله حقوقه البلدية يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية * ويعافى من العسكرية عدة اناس * الاول من طوله دون متر وخمسة وسبعين سنتمترا يعنى اربعة اقدام وعشرة براميق * الثانى اصحاب العلل * الثالث الابن الاكبر الاخوة الايتام من ابيهم وامهم * الرابع الابن البكرى او المنفرد او ابن الابن الاكبر او المنفرد عند فقده اذا كانت الام او الجدة لا زوج لها او كان ابوه اعمى او سنه سبعين سنة * الخامس البكرى احد الاخوين اللذين وقعا فى قرعة واحدة * السادس الاخ الذى اخوه باق تحت البيرق او مات فى الخدمة او جرح فى الحرب

ولو اراد انسان أن ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة
من خوف الهرب الا اذا كان الهارب قبض عليه فى السنة او مات تحت بيرق
الفرنساوية وفى احد وعشرين فى شهر دقمبر من كل سنة كل العساكر التى تمت
خدمتهم يؤذن لهم بالعود الى محالهم ولما كان لا يمكن لكل انسان أن يدخل
بنفسه فى عمل الدولة وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك اربعمائة وثلاثين وكيلا
تبعثها الى باريس فى المشورة وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا
عن حقها او يصنعوا ما فيه مصلحة لها وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط
التى منها أن يكون عمره خمسا وعشرين سنة له أن يكون ممن له مدخل
فى انتخاب رسل عمالاته * وكل فرنساوى له أن يكون رسولا اذا كان عمره
ثلاثين سنة وكان موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الاحكام * وفى كل
مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ومجامع انتخاب للاقاليم الصغيرة * ومجامع
المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار وتعين ١٧٢ رسولا
ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ودفاتر ارباب الانتخاب
تطبع وتكتب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان
أن يكتب اعلامابه وكل منتخب بكسر الخاء يكتب رأيه سرا فى ورقة و يعطيها
للرئيس مطوية والرئيس يضعها فى اناء القرعة وديوان رسل العمالات يتجدد
اهله بالكلية كل خمس سنوات ولا يمكن اخذ القرد الا بخلاصة من مشورة
الديوانين مقررة من طرف الملك ويمكن لاهل البلدان أن يراسلوا اهل الديوانين
بطرق العرضحال ليشتكوا من شئ او يعرضوا شيأ نافعا * القضاة لا ينعزلون
فلا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيطانه * والدعاوى تقام جهرا وذنوب
الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جماعة يسمون الجوريين والعقوبة بالقبض
على الاموال بطلت * للملك أن يعفو عن المعاقب وان يخفف العقاب الشديد *
على الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتقاء الكرسى بأن يعملوا بما فى كتاب قوانين
المملكة * ثم انه يطول علينا ذكر الاحكام الشرعية او القانونية المنصوبة عند
الفرنساوية فلنقل ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب

السماوية

السماوية وانما هي مأخوذة من قوانين أخرغالبها سياسي وهي مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ويقال لها الحقوق الفرنساوية اى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة ثم أن بباريس عدة محاكم وفى كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضاة وحوله رؤساء وارباب مشورة ووكلاء الخصوم ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين وموقع الوقائع

(شعر)

من ادعى أن له حاجة * تخرجه عن منهج الشرع
فلاتكونن له صاحبا * فانه ضرّ بلا نفع

(الفصل الرابع في عادة سكنى اهل باريس ومايتبع ذلك)

من المعلوم أن البلدة او المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش والبلاد الافرنجية مشحونة بانواع المعارف والآداب التي لا ينكر انسان انها تجلب الانس وتزين العمران وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الامم الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف فهي اعظم ادبا وعمرانا والبنادر اولى في العمارات عادة من القرى و الضياع * والمدن العظمى اولى من سائر البنادر وتخت المملكة اولى من سائر ماعداها من مدن تلك المملكة فحينئذ لا يجب أن قيل ان باريس التي هي قاعدة ملك الفرنسيس من اعظم بلاد الافرنج بناء وعمارة وان كانت عماراتها غير جيدة المادة فهي جيدة الهندسة والصناعة على انه ربما يقال ايضا ان مادتها جيدة الا انها ناقصة لعدم كثرة حجر الرخام فيها ولخلوها عن بعض اشياء أخر كيف لا واساس حيطانها من احجار النحاتة وكذلك الحيطان الخارجية واما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيد في الغالب واما عواميدها فهي غالبا من النحاس قل أن كانت من الرخام كما أن تبليط الارض يتخذ من حجر البلاط وقد يكون من الرخام الاسود مع البلاط وذلك أن الطرق دائما مبلطة بحجر البلاط المربع والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور والقيعان بالآجر او بالخشب او بالمرمر الاسود مع البلاط المشغول وجودة الحجر او الخشب تختلف باختلاف يسار

الانسان ثم ان حيطان الغرفات والارض من خشب كما تقدم وهم يطلونه بالطلاء ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا لطيفا فهو احسن من عادة تبيض الحيطان بالجير فان الورق لا يعود منه شئ على من مس الجدار بخلاف الجير بل وهو اهون مصرفا واعظم منظرا واسهل فعلا خصوصا في اوضاتهم المزينة بانواع من الامتعة التي لا يمكن الافصاح عنها غاية ما يقال أن الفرنساوية يحاولون اضعاف نور الاوض بوضع الستائر الملونة خصوصا الخضراء وارض اوضهم مبلطة بخشب او بنوع من القرميد الاحمر ويحكون ارض الاوضة كل يوم بالشمع الاصفر المسمى عندهم شمع الحك وعندهم حكاكون بالاجرة معدون لذلك بالخصوص وتحت اسرتهم المكسوة بالخيشات وبالمشمعات وغيرها سجادات عظيمة يطؤنها بالنعال وفي كل اوضة مدخنة للنار وهي على شكل صفة الظل مرخمة بجيد الرخام وفوقها ساعة بشخشة وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الابيض او من البلور فيها ازهار او تقليد ازهار وحول هذا من الجهتين القناديل الافرنجية الدولابية التي لا بد رك صورتها حقيقة الا من رآها موقودة وفي غالب اوضهم آلة الموسيقى المسماة البيانو بكسر الباء وضم النون فاذا كانت الاوضة اوضة شغل وقرآءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج او البقس او غيرهما واغلب الاوض مشحون بالصور خصوصا صور الاقارب وفي اوضة الشغل ايضا قد توجد صور عجيبة واشياء من غرآئب ما كان عند القدماء على اختلافهم وربما رأيت على طاولة الشغل اوراق الوقائع على اختلاف اجناسها وربما رأيت كذلك في اوض الاكابر النبيات العظيمة التي توقد بشموع العسل وربما رأيت ايضا في اوضهم في يوم تلقي الناس طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من اراد من الضيوف أن يسرح ناظره وينزه خاطره في قرآءة هذه الاشياء وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقرآءة الكتب فهي انسهم ومن التوقيعات اللطيفة الكتاب وعاء ملئ علما وظرف حشي ظرفا ومن لك بروضة

تقلب فى حجر و بستان يحمل فى كم وما احسن قول بعضهم شعرا

دفترى مؤنسى وفكرى سميرى * ويدى نادمى وحلى نجيبى
ولسانى سيفى وبطشى قريضى * ودواتى عيشى ودرجى ربيى

وقال آخر

لنا جلساء ما يمل حديثهم * البا مأمونون غيبا ومشهدا
يفيد وننا من علمهم علم ما مضى * وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا
فان قلت اموات فما انت كاذب * وان قلت احياء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم * نعم المحدث الدفتر * ومن كلام بعض الظرفاء * ما رأيت باكيا احسن تبسما من القلم * ثم ان جميع هذه التحف يكمل الانس بها بحضور سيدة البيت اى زوجة صاحبه التى تحيى الضيوف اصالة وزوجها يحييهم بالتبعية فاين هذه الاوضاع بما احتوت عليه من اللطائف من اوضنا التى يحيى فيها الانسان باعطاء شبق الدخان من يد خادم فى الغالب اسود اللون واما السقوف فانها من الخشب النفيس ثم ان البيت فى العادة مصنوع من اربع طبقات بعضها فوق بعض ما عدا البناء الارضى فلا يحسب دورا وقد يصل الى سبعة ادوار وغيرها تحت الارض من المخادع التى تستعمل ايضا لربط الخيل او المطبخ وذخائر البيت وخصوصا النبيذ والخشب الموقود ثم ان البيت عندهم كما فى بيوت القاهرة مشتمل على عدة مساكن مستقلة ففى كل دور من ادوار البيت جملة مساكن وكل مسكن متنافذ الاوضات وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت الى ثلاث مراتب * المرتبة الاولى بيت عادى * والثانية بيت لاحد من الكبار * والثالثة بيوت الملك واقاربه ودواوين المشورة ونحوها فالاول يسمى بيتا والثانى يسمى دارا والثالث يسمى قصرا او سراية ويمكن ايضا تقسيم البيوت من حيثية اخرى الى ثلاث مراتب ايضا المرتبة الاولى البيوت التى لها حاجب ولها باب كبير يسع دخول العربة منه والثانية البيوت التى داخلها دهاليز ولها بواب ولا يمكن ان تدخل العربة من بابها والثالثة البيوت التى لا بواب لها اى لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ووظيفة البواب

في باريس أن ينتظر الساكن الى نصف الليل فاذا اراد الساكن ان يسهر
في المدينة زيادة عن نصف الليل فعليه أن ينبه البوّاب لينتظره ولكن لابدّ أن
يعطيه بعض شيء وليس على الحارات بوّاب اصلا وليس لها ابواب كما في مصر
ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكرآء حتى ان الدار العظيمة قد يبلغ
ثمنها مليون فرنك يعني نحو ثلاثة ملايين قروشا مصرية ثم ان كرآء الساكن
في باريس قد يكون لمجرّد المسكن وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم
وجميع اثاثها وآلاتها وآلات البيت عند الفرنسيس هي آلات الطباخة والمأكل
باجمعها بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها وآلة الفراش للنوم وهو في الغالب
عدة طرّاحات احداها من الريش وملاية فرشه تتغير كل شهر وحرامات الغطاء
ثم الات الجمل وتلقي الزوار وهي الكراسي المكسوّة بالحرير المشغول ونحوه
والسدلات المكسوة كذلك والكراسي العادية والآلات العظيمة المنظر
كالساعات الكبيرة المسماة عندهم بندول وكأواني الازهار العظيمة وغيرها
من اواني القهوة المموّهة بالذهب وكالتحفة المعلقة التي تتقد بالشموع المكرّرة
وكخزانة الكتب التي لها باب من القزاز يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة
التجليد وكل انسان له خزنة كتب سوآء الغني والفقير حيث ان سائر العامة
يكتبون ويقرؤن * والغالب أن الرجل ينام في اوضة غير التي تنام فيها زوجته
اذا تقادم الزواج ومن العوآيد التي لابأس بها أن قصر ملك فرانسا وقصور
اقاربه تنفتح حين خروج السلطان واقاربه كل سنة الى الاقامة في الخلاء مدة
اشهر فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك واقاربه فيرون اثاث البيت
وسائر الاشياء الغريبة ولكن لايدخل احد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها
الاذن بدخول شخص او شخصين او اكثر وهذه الورقة توجد عند كثير
من الناس فاذا طلبها الانسان ممن يعرفه اعطاه اياها فيرى في البيت ازدحاما عظيما
للفرجة على جميع ما في حريم الملك واقاربه وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته
من الامور العجيبة التي ينبغي التفرج عليها وفيه كثير من الصور التي لاتمتاز
عن الناس الا بعدم النطق وفيه مصوّر كثير من ملوك فرانسا وغيرهم

وكل اقارب السلطنة وكل الاشياء الغريبة واغلب الاشياء الموجودة في حريم السلطنة مستحسنة من جهة جودة صناعتها لاغلاستها بالمادة ❊ مثلا سائر الفراش كالكراسي والاسرة حتى كراسي المملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ومطلية بالذهب الا انه لا يوجد بها كثير من الاحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الامراء الكبار بكثرة فبني امور الفرنساوية في جميع امورهم على التجمل لا على الزينة واظهار الغنى والتفاخر ثم سائر الاغنياء بباريس يسكنون في الشتاء في نفس المدينة وقد اسلفنا في ذكر طبيعة اقليم باريس أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران في القيعان والاود واما في مدة الحر فمن له يسار يسكن في الخلاء لان التصور بالخلاء اسلم هواء من داخل المدينة ومن الناس من يسافر في بعض بلاد فرانسا او ما جاورها من البلاد ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ويطلع على البلاد ويعرف عوائد اهلها خصوصا في مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل او مدة الفراغ يعني البطالة حتى النساء فانهن يسافرن وحدهن او مع رجل يتفق معهن على السفر وينفق عليهن مدة سفره معهن لان النساء ايضا متولعات بحب المعارف والوقوف على اسرار الكائنات والبحث عنها وليس انه قد يأتي منهن من بلاد الافرنج الى مصر ليرى غرائبها من الاهرام والبرابي ونحوها فهن كالرجال في جميع الامور نعم قد يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من انفسهن الاجنبي وهن غير متزوجات فيشعرن بالحمل ويخشين الفضيحة بين الناس فيظهرن السفر لمجرد السياحة او لقصد آخر ليلدن ويضعن المولود عند مرضع باجرة خاصة ليتربى في البلاد الغريبة ومع هذا الامر فليس بشائع وبالجملة ما كل بارقة تجود بمائها في نساء الفرنساوية ذوات العرض ومنهن من هي بضد ذلك وهو الاغلب لاستيلاء فن العشق في فرانسا على قلوب غالب الناس ذكورا واناثا وعشقهم حلال لانهم لا يصدقون بأنه يكون لغرض آخر الا انه قد يتم بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج ❊ ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الاوساخ وان كانت بالنسبة لبيوت اهل

الفلنك كلاشئ فان اهل الفلنك اشد جميع الامم نظافة ظاهرية كما أن اهل
مصر فى قديم الزمان كانوا ايضا اعظم اهل الدنيا نظافة ولم يقلدهم ذراريهم
وهم القبطة فى ذلك وكما أن باريس نظيفة فهى خلية ايضا من السميات بل ومن
الحشرات فلا يسمع بأن انسانا لدغته عقرب ابدا وتعهد الفرنساوية تنظيف
بيوتهم وملابسهم امر عجيب وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكها
الموضوعة بالهندسة وضعا عظيما يجلب النور والهوآء داخل البيوت
وخارجها وظرفات الشبابيك دآئما من القزاز حتى اذا اغلقت فان النور
لا يحتجب اصلا وفوقها دآئما الستائر للغنى والفقير كما أن ستائر الفرش التى هى
نوع من الناموسية غالبة لسائر اهل باريس

* (الفصل الخامس فى اغذية اهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب) *

اعلم أن قوت اهل المدينة هو الحنطة وهى فى الغالب صغيرة الحبوب
الا اذا كانت منقولة من البلاد الغربية فيطحنونها فى طواحين الهوآء والماء
ويخبزونها عند الفران فيباع الخبز فى دكانه وسائر الناس لهامرتب يومى تشتريه
من الخباز وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه لان سائر الناس مشغولون
فى اشغال خاصة فصناعة العيش فى البيوت تشغلهم * ثم ان المحتسب يأمر
الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفى المدينة وفى الحقيقة
لا يمكن فقد العيش ابدا بمدينة باريس بل ولا فقد غيره من امور الاغذية * وادم
اهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والالبان والبيض وغيرها
والغالب تعدد الاطعمة ولو عند الفقرآء * ثم ان المذابح عندهم تكون
باطراف المدينة لا داخلها وحكمة ذلك امران دفع الوخم ودفع اضرار البهائم اذا
انفلتت * وكيفية الذبح تختلف عندهم * فاما ذبح الضأن فانه اهون من ذبح
غيره فانهم يغرزون السكين ورآء زوره يعنى بين زوره ورقبته ثم يقطعونه بعكس
ما نفعل * واما ذبح العجول فانه مثله * واما الثيران فيضربونها بمقامع من حديد
فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ثم يكررون ذلك عدة مرات فينقطع الثور
النفس مع بقاء الحركة ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن ولقد بعث خدمالى

مصر يا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى فلما رآى معاملة الثيران بمثل ذلك الامر البشع جاء يستجير و يحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بلاد الافرنج والاذاق العذاب كالثيران التى رآها والعجول والثيران تكون من البقر اذ لا وجود للجواميس بهذه البلاد الافرنجية * واما ذبح الطيور فانه على انواع مختلفة فمنهم من يصنع فيها كالغنم ومنهم من يقطع لسان الطائر ومنهم من يخنقه بفتله خيط ومنهم من يذبحه من قفاه الى غير ذلك * واما الارانب فانها لا تذبح ابدا بل تخنق ليحقن فيها دمها واما ذبح الخنازير فلم اره لانه مذبحا مخصوصا والظاهر انهم يصنعون بها كالعجول ثم من الامور التى بها راحة الناس بمدينة باريس محال الاكل المسماة الرسطراطور اى الاوكنجية فانها مستوفية لما يجده الانسان فى بيته بل اعظم وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضرا وفى هذه الرسطراطور غرف لطيفة متعددة مستوفية لا آلات البيوت وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة باعظم الفراش وكما يوجد فى الرسطراطور انواع المآكل والمشارب يوجد فيها انواع الفواكه والنقل وعادة الفرنساوية الاكل فى طباق كالطباق العجمية او الصينية لا فى آنية النحاس ابدا ويضعون على السفرة دائما قدام كل انسان شوكة وسكينا وملعقة والشوكة والملعقة من الفضة ويرون أن من النظافة او الشلبنة أن لا يمس الانسان الشئ بيده وكل انسان له طبق قدامه بل وكل طعام له طبق وقدام الانسان قدح فيصب فيه ما يشرب به من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب فلا يتعدى احد على قدح الآخر * وأوانى الشرب دائما من البلور والزجاج وعلى السفرة عدة اوان صغيرة من الزجاج احدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفى الثالث خردل الى آخره * وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جدا وابتداء المائدة عندهم الشوربة واختتامها الحلويات والفواكه والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الاكل بدل الماء وفى الغالب خصوصا الاكابر التابعين أن يشربوا من النبيذ قدرا لا يحصل به سكر اصلا فان السكر عندهم من العيوب والرذائل وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيأ يسيرا من العرقى ثم انهم مع شربهم

من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرا فى اشعارهم وليس لهم اسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب اصلا فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتغالون فى ذلك معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى وهى هزليات فى مدح الخمرة لا تدخل فى الادبيات الصحيحة فى شئ اصلا ويكثر فى باريس شرب الشاى عقب الطعام لانهم يقولون انه هاضم للطعام ومنهم من يشرب القهوة مع السكر وفى عوايد اغلب الناس أن يفتتوا الخبز فى القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطوها فى الصباح واذا اردت بعض شئ يتعلق بالمأكل والمشرب فراجع فصل المأكل والمشارب فى ترجمتنا كتاب قلائد المفاخر * ثم ان الغالب أن ما يطعمه اهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبه فمن الخبز ما تزيد قيمته على خمسة وثلاثين مليونا من الفرنكات وتأكل من اللحوم نحو واحد وثمانين ألف ثور وأربعمائة وثلاثين ثورا ومن البقر نحو ثلاثة عشر ألف بقرة ومن الضأن اربعمائة وسبعين ألف كبش ومن الخنازير الوحشية والاهلية نحو مائة ألف خنزير ومن السمن بنحو عشرة ملايين من الفرنكات ومن البيض بنحو خمسة آلاف فرنك * ومن غرائب الاشياء أن فيها التحيل على عدم عفونة الاشياء التى من شأنها العفونة فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمس سنين من غير تغير وادخار اللحم طريا عشر سنوات وادخار الفواكه لوجودها فى غير اوانها ومع كثرة تفننهم فى الاطعمة والفطورات ونحوها فطعامهم على الاطلاق عديم اللذة ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة الا فى الخوخ واما خماراتها فانها لا تحصى فما من حارة الا وهى مشحونة بهذه الخمارات ولا يجتمع فيها الا اراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه الشراب الشراب ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم اضرار اصلا وقد اتفق لى ذات يوم وانا مار فى طريق فى باريس أن سكرانا صاح قائلا يا تركى يا تركى وقبض بشيابى وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه فدخلت معه واجلسته على كرسى وقلت لرب الحانوت على سبيل

المزح هل تريد أن تعطيني ثمن هذا الرجل سكرا اوتفلا فقال صاحب الحانوت
ليس هنا شىء ببلادكم يجوز التصرف فى النوع الانسانى فما كان جوابى له
الا انى قلت ان هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الادميين
وهذا كله والرجل جالس على الكرسى ولا يشعر بشىء ثم تركته بهذا المحل
وذهبت

(الفصل السادس فى ملابس الفرنسيس)

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج البرنيطة وأن نعالهم فى الاكثر
الصرم السوداء والتاسومات وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الاسود واما
الفرنساوية فانهم فى الغالب ايضا على هذا الملبس الا انهم لا يلزمون ملبسا خاصا
بل كل انسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه والغالب أن لبسهم ليس
له زينة وانما هو فى غاية النظافة ومن العوايد العظيمة انتشار لبس القمصان
والالبسة والصديريات تحت ملابسهم فان الموسر يغير فى الاسبوع عدة مرات
وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش فلذلك كان لا اثر للقمل ونحوه الا عند
من اشتد به الفقر وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة
خصوصا اذا تزين بأعلى ما عليهن ولكن ليس لهن كثير من الحلى فان حليهن هو
الحلق المذهب فى آذانهن ونوع من الاساور الذهب يلبسنه فى ايديهن خارج
الاكمام وعقد خفيف فى اجيادهن واما الخلاخل فلا يعرفنها ابدا ولبسهن فى
العادة الاقمشة الرقيقة من الحرير او الشيت او البفت الخفيف ولهن فى البرد شريط
فروة قصيرة يضعنه على رقابهن ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه الى قرب
القدمين ومن عوايدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق اثوابهن حتى يظهر الخصر
نحيفا ويبرز الردف كثيفا وما انشده الحاجرى فى ديوانه وان كان فيه خروج
قوله

وممزنر بالتيه استاذه * كم الفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده * والمسلمون بأسرهم فى أسره
فوجهه لولا رشاقة قده * مارق اسلامى لشدة كفره

ومن العجائب انه يمكن الانسان أن يضع في المصروفة الحزام فترى يديه ادقته
ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر
حتى يكون قوامهن دآ ئما معتدلا لا اعوجاج به ولهن كثير من الحيل
ومن خصالهن التي لا يمكن الانسان أن لا يستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور
كعادة نساء العرب فان الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤسهن ويضعن
فيه دآ ئما مشطا ونحوه ومن عوائدهن في ايام الحر كشف الاشياء الظاهرة
من البدن فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدى حتى انه يمكن أن يظهر
ظهرهن وفي ليالي الرقص يعلمن عن اذرعتهن وبالجملة فلا يعد ذلك من الامور
المخلة عند اهل هذه البلاد ولكن لا يمكن لهن ابدا كشف شيء من الرجلين بل هن
دآ ئما لابسات الشرابات الساترة للساقين خصوصا في الخروج الى الطرق
وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة اصلا فلا يصلح لهن قول الشاعر

لم أنسه اذ قام يكشف عامدا • عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا ان قام فيه قيامتي • ان القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس هي علامة حزن تلبس مدة معلومة ولها محل
معلوم فالرجل يضع علامة الحزن في برنيطته مدة معلومة والمرأة في ثيابها والولد
على فقد ابيه اوامه يلبس علامة الحزن ستة اشهر وعلى فقد الجدة اربعة اشهر
ونصفا والزوجة على فقد الزوج سنة وستة اسابيع وعلى فقد الزوجة ستة اشهر
وعلى فقد الاخ او الاخت شهرين وعلى فقد الخال والخالة والعم والعمة ثلاثة
اسابيع وعلى فقد اولاد الاعمام والعمات والاخوال والخالات اسبوعين ثم ان
ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريبا ومن
الحرير بثلاثة ملايين من الفرنكات ومن الفراوى بمليون من الفرنكات ولعل
السبب في ذلك هو أن الفراوى تشترى من خصوص باريس لاهل باريس ومن
المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لتصو الاقرع وردىء الشعر
بل قد يستعملونها في اللحى والشارب للتقليد وقد شاعت عندهم تلك العادة
من زمن لويز الرابع عشر ملك فرانسا حيث ان هذا الملك كان يلبسها

ولا يخلعهامن رأسه اصلا الاعند النوم ولازالت الى الآن مستعملة لكن للافرع اوردي الشمروس الفريب انهاتستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة

* (الفصل السابع فى منتزهات مدينة باريس) *

اعلم ان هؤلاء الخلق حيث انهم بعد اشغالهم المعتادة المعاشية لاشغل لهم بأمور الطاعات فانهم يقضون حياتهم فى الامور الدنيوية واللهو واللعب ويتفننون فى ذلك تفننا عجيبا فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى التياتر بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية والسبكتاكل وهي يلعب فيها تقليد سائر ماوقع وفى الحقيقة أن هذه الالعاب هي جد فى صورة هزل فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة وذلك لانه يرى فيها سائر الاعمال الصالحة والسيئة ومدح الاولى وذم الثانية حتى ان الفرنساوية يقولون انها تؤدب اخلاق الانسان وتهذبها فهى وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية مامعناه باللغة العربية قد تصلح العوايد باللعب وصورة هذه التياترات انها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة وفيها عدة ادوار كل دور له اود موضوعة حول القبة من داخله وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الاود بحيث ان سائر مايقع فيه يراه من هو فى داخل البيت وهو منور بالصفات العظيمة وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب وسائر مايصنع من الاشياء التى تظهر وسائر النساء والرجال المعدة للعب ثم انهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة فاذا ارادوا تقليد سلطان مثلا فى سائر ماوقع منه وضعوا ذلك المقعد على شكل سرايته وصوروا ذاته وانشدوا اشعاره وهلم جرا ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ثم يرفعونها ويبتدؤن باللعب ثم ان النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس ارباب فضل عظيم وفصاحة وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الادبية والاشعار ولو سمعت مايحفظه اللاعب من الاشعار

وما يبديه من التوريات في اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب * ومن العجائب انهم في اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ويتعمقون في ذلك وقت اللعب حتى يظن انهم من العلماء بل الاولاد الصغار التي تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها ثم انهم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى ثم يلعبون ما يريدون لعبه واللعبة التي تظهر تكتب في ورقة وتلصق في حيطان المدينة وتكتب في التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام وفي الليلة يلعبون لعبات وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة فاذا ارادوا مثلا لعب شاه العجم ألبسوا لاعبا لبس ملك العجم واحضروه واجلسوه على كرسي * وهكذا وهذه السبكتاكلات يصورون فيها سائر ما وجد حتى انهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا وقد رأيت مرة في الليل انهم خفوا التياتر بضوء ورشمس وتسييرها وتنوير التياتر بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور الضعف حتى كأن الناس في الصباح ولهم اشياء اغرب من هذا وبالجملة فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل واعظم السبكتاكلات في مدينة باريس المسماة الاوبره بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة وفتح الراء وفيها اعظم الآلاتية واهل الرقص وفيها الغناء على الآلات والرقص بأشارات كأشارات الاخرس تدل على امور عجيبة ومنها تياتر تسمى او بره كوميك ينشد فيها الاشعار المفرحة وبها تياتر تسمى التياتر الطليانية وبها اعظم الآلاتية وفيها تنشد الاشعار المنظومة باللغة الطليانية وهذه كلها من السبكتاكلات الكبيرة وفي باريس سبكتاكلات اخرى وهي مثل تلك الا انها صغيرة وهنالك ايضا سبكتاكلات يلعبون فيها الخيل والفيلة ونحوها ومنها التياتر المسماة تياتر فرنكوني بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية وفيها فيل مشهور بالالعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا وكأن اكبر التياترات الاوبرة فاصغرها تياتر تسمى تياتر الكمت وهي معدة لتزاهة الصغار كالحاوي في مصر والكمت اسم معلم هذه السبكتاكل وكل اللاعبين

واللاعبات صغار السن وهذه التياتر يوجد بها كثير من الشعبيات والسيم ونحوها ولو لم تشتمل التياتر في فرانسا على كثير من النزهات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة فانظر الى اللاعبين بها فانهم يحترزون ما امكن عن الامور التي يفتتن بها الخلق بالمساواة ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر واهل السماع ونحوهم ولا اعرف اسماء عربيا يليق بمعنى السبكتاكل او التياتر غير أن لفظ سبكتاكل معناه منظر او متنزه او نحو ذلك ولفظ تياتر معناه الاصلي كذلك ثم سمي بها اللعب ومحله ويقرب أن يكون نظيرها اهل اللعب المسمي خيالي اول الخيالي نوع منها وتشتهر عند الترك باسم كديه وهذا الاسم قاصر الا أن يتوسع فيه ولا مانع أن تترجم لفظة تياتر او سبكتاكل بلفظ خيالي ويتوسع في معنى هذه الكلمة ويقرب من تصوير السبكتاكل اوهو منها مواضع يصورفيها للانسان منظر بلد او اراض او نحو ذلك فمن ذلك بانورمه وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التي تريد تصويرها فتى صورة مصر ترى كانك على منارة السلطان حسن مثلا والرميلة تحتك وباقي المدينة ومنها كسمورمه وفيه صورة بلدة ثم اخرى وهكذا ومنه ديورمه وفيه صورة دار ومنها اورانورمه وفيه صورة الفلك الاعظم وسائر مايحتوى عليه مصورا على مذهب الافرنج فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك ومنها اوروبرمه وفيه صورة بلاد الافرنج ۞ ومن المتنزهات محال الرقص المسماة البال وفيه الغناء والرقص وقل ان دخلت ليلا في بيت من بيوت الاكابر الا وسمعت به الموسيقى والمغنى ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى اصلا لعدم معرفتنا بلسانهم ولله در من قال في مثل هذا الامر

ولم افهم معانيها ولكن ۞ شجت كبدي فلم اجهل شجاها
فكنت كانني اعمى معنى ۞ بحب الغانيات ولا يراها

والبال قسمان بال عام ويدخله سائر الناس كالبال في القهاوي والبساتين وبال خاص وهو أن يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك كالفرح في مصر والبال دائما مشتمل على الرجال والنساء وفيه وقدات عظيمة

وكراسى الجلوس والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس احد من الرجال الا اذا اكتفت النساء واذا دخلت امرأة على اهل المجلس ولم يكن ثم كرسى خال قام لها رجل واجلسها ولا تقوم لها امرأة لتجلسها فالانثى دائما فى المجالس معظمة اكثر من الرجل ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما امكن قدرجته بعد زوجته او نساء البيت * ومن المتنزهات جمعية الناس كقهوة مصر الآن فيها دائما آلات الموسيقى والغناء والرقص وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة وبالجملة فالموسيقى بالاصالة والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس كما قال الشاعر

هل العيش الا ماء كرم مصفق * ترقرقه فى الكاس ماء غمام

وعود بنان حين ساعد شدوه * على نغم الاوتار ناى زنام

وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون وقد اشار اليه المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب فهو نظير المصارعة فى موازنة الاعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض فليس كل قوى يعرف المصارعة بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الاعضاء وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شئ واحد يعرف بالتأمل ويتعلق بالرقص فى فرانسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص فى ارض مصر فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات واما فى باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر ابدا وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا وسواء كان يعرفها او لا وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ولا يكفيهن واحد ولا اثنان بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة انفسهن من التعلق بشئ واحد كما قال الشاعر

أيا من ليس يرضيها خليل * ولا الف خليل كل عام

اراك بقية من قوم موسى * فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع فى الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الانسان ويده فى خاصرة من يرقص معه واغلب الاوقات يمسكها بيده وبالجملة فمس المرأة ايا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى وكلما احسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عدهذا من الادب وصاحبة البيت تحيي اهل المجلس ومن النزه المواسم العامة التى تصنع فى الصيف ومبناها على الرقص والآلات وتسييب البارود ونحو ذلك ومن المواسم العامة عندهم ايام تسمى ايام الكرنوال وتسمى عند قبطة مصر ايام الرفاع وهى عدة ايام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات فيتشكل الرجل بشكل امرأة والمرأة فى صورة رجل ويتزاآى الخواجة فى صورة راع ونحو ذلك وبالجملة فيباح سائر ما لا يضر براحة المملكة وانتظامها ويقول الفرنساوية ان هذه الايام أيام جنون ويدور بهذه البلدة عجل اسمن عجول فرانسا فى موكب عظيم مدة ايام الزفر الثلاثة ثم يذبح ويعطون لصاحبه بخشيشا فى نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم * ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة ففى باريس نحو اربعة بساتين كبرى يتماشى فيها العام والخاص فمنها حديقة التولرى التى بها قصر الملك وهى من اعظم المنتزهات يدخلها المتجملون من الناس ويحجز الاسافل من دخولها فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء

لو كنت املك للرياض صيانة * يوما لما وصل اللئام ترابها

ومنها حديقة تسمى الشنزليزه ومعناه بالعربية رياض الجنة وهى من ارق المنتزهات وانضرها وهى بستان عظيم يبلغ اربعين اربانا والاربان هو قياس يقرب من الفدان ومع أن طول طريقها نحو الف قامة فانها موضوعة بحيث انك اذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك وفى هذه الروضة العظيمة دائما شئ من الملاهى لا يمكن حصره وسائر اشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض رتبت بحيث انه يوجد مدخل من كل الجهات فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات وفى وسط كل جملة من الاشجار يوجد محل مربع وهذه الحديقة يتصل احد جوانبها بنهر السين وبينها وبينه

وصيف ومجانبها الآخر بيوت باطراق الخلاء وفيها كثير من القهاوى والسطر اطورات يعنى بيوت الاكل وفيها سائر انواع الطعام والشراب وهى مجمع الاحباب والاكابر وبها كثير من المراع للخيل ويدخل فيها الاكابر بالعربات المزينة وفيها عدة آلاف من الكراسى بالاجرة يجلس عليها فى زمن الربيع نهارا وفى زمن الصيف ليلا واعظم اجتماع الناس فيها يوم الاحد فانه يوم البطالة عند الفرنساوية وبالجملة فهذه الحديقة محل المواسم والافراح العامة والزينات وبها تماشى سائر النساء ايجالات ٭ ومن المتنزهات المحال المسماة البلوار وهى الاشجار المتصافة المتوازية وقد اسلفنا بيانها وهى محل تماشى فيه سائر الناس فى سائر الايام وفيه اعظم قهاوى باريس وتدور فيه الآلاتية المتنقلون بآلاتهم وفيه كثير من محال التياترات وبه ايضا تدور النساء اللواتى يتعرضن بالرجال سيما بالليل فهو فى جميع الليالى وفى ليلة الاثنين يحوى كثيرا من الناس فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ذراعه فى ذراعها الى نصف الليل ويصلح هنا قول الشاعر

لا تلق الا بليل من تواصله ٭ فالشمس نمامة والليل قواد

كم عاشق وظلام الليل يستره ٭ لاقى الاحبة والواشون رقاد

وقال آخر

ايها الليل طر بغير جناح ٭ ليس للعين راحة فى الصباح

كيف لا ابغض الصباح وفيه ٭ بان عنى الوالوجوه الملاح

ولا يمدح الليل الا من ترقب فيه وصال محبوبه ٭ وتفقد فيه نيل مطلوبه ٭ بخلاف من كثر فيه حرقه ٭ وزاد ارقه ٭ وطال سهاده ٭ وطار رقاده ٭ فانه يهوى الصباح ٭ ليذهب همه ويرتاح

قال الشاعر

الا ايها الليل الطويل الا انجلى ٭ بصبح وما الاصباح منك بامثل

فيالك من ليل كأن نجومه ٭ على صخمات الجوشدت بيذبل

وقال آخر

ليلى وليلى نفى نومى اختلافهما * بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلى كلما بخلت * بالطول ليلى وان جادت به بخلا

وقال من يشكو من الليل

ياليل طل اولا تطل * لابدلى أن اسهرك
لو كان عندى قمرى * مابت ارعى قمرك

وقال آخر مثله

ياليل طل ياشوق دم * انى على الحالين صابر
لى فيك اجر مجاهد * ان صح أن الليل كافر

وهذا ايضا من باب الشكوى ومن المتنزهات ايضا سوق تباع فيه الازهار وفى هذا السوق تجد سائر الاشجار والنباتات والازهار الغريبة النادرة ولو فى غير اوانها حتى ان الانسان يمكنه أن يجد بستانا فى يوم واحد بأن يشترى سائر ما يحتاجه ثم يزرعه فى يوم وبالجملة فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المتنزهات الا بصحة البدن

(الفصل الثامن فى سياسة صحة الابدان بمدينة باريس)

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الابدان وكان الافرنج احكم الامم كثر اعتناؤهم بهذا الفن وتكميل آلاته ووسايطه وكانوا اشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات والحمام الباردة المياه وتريض الجسم وتعويده على الامور الشاقة كالعوم وركوب الخيل والالعاب التى يخف بها البدن * والحمامات فى باريس متنوعة وفى الحقيقة هى الطف من حمامات مصر غير أن حمامات مصر انفع منها واتقن واحسن فى الجملة وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط وفى بعض الخلوات مغطسان وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر ولكن هذه العادة اسلم بالنسبة للعورة فانه لا طريقة أن يطلع انسان على عورة آخر حتى ان الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الانسان صاحبه وليس فى دخول الانسان هذه المغاطس الصغيرة لذة كالدخول فى الحمامات

ولا يعرق الانسان بها ابدا اذا الحرارة لا توجد الا فى المغطس لا فى الخلوة ابدا
وان كان يمكن أن يوصى الانسان على حمام بالحضار فانهم يصنعون له ذلك
ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد وفى الحمام صفان من الخلاوى صف الرجال
وصف النساء وكأنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة فاذا طلب
الانسان حماما فى بيته اوكان مريضا اونحو ذلك فانهم يحملون اليه فى عربة
كالبرميل الماء البارد فى شقة والساخن فى اخرى ومعها حمام فيوضع
الحمام فى بيت الانسان ويملأ من الماء المسخن فيغتسل الانسان منه ثم بعد فراغه
يحملونه الى بيت الحمام ومن الحمامات حمام يضع فيه الانسان بعض بدنه لبعض
الامراض فيسمى نصف حمام والحمامات بباريس كثيرة واشهرها ثلاثون حماما
تقريبا ومن امور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم
السباحة وهى ثلاثة مكاتب على نهر السين ومنها مدارس لتخفيف البدن
وجعله قابلا للاشياء العجيبة كالبهلوانية والمصارعة ونحو ذلك

(الفصل التاسع فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية)

اعلم أن مدينة باريس هى اعظم مدن الافرنج التى يرحل اليها الغرباء لتعلم العلوم
خصوصا العلوم الطبية وقد ينتقل اليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن
تداويهم فيها والعلوم الطبية التى تسمى ايضا علم الحكمة هى علم الطب والجراحة
والتشريح وفن الفيسيولوجيا ومعرفة داء الانسان من حاله وسياسة الصحة
لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك والحكماء فى باريس كثيرون جدا حتى يوجد
فى كل خط عدة حكماء بل الطرق مملوءة من الحكماء حتى أن الانسان اذا اصيب
فى الطريق بداء فانه لابد أن يجد الحكيم حالا لكثرة الحكماء بهذه البلدة ووضع
المرضى بالنسبة للاطباء مختلف فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده
وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها اليه ومن المرضى من يذهب الى الطبيب
فى بيته وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قاصدا فى بيته لتلقى الناس ومن المرضى
من ينتقل مدة معينة فى بيت يسمى بيت الصحة معد لمن يدفع قدرا معينا فى نظير
اكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك وفى باريس بيوت حكماء

معدّة لمن ابتلى بخلل شئ من عظام البدن كالاحديداب فانه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب فيقومون بدنه بشئ من علم الحيل كما اذا كان انسان مقطوع احد الاطراف فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن او الخشب شيأ فى محله وفى هذه المدينة ايضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس وفى هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج اليه فى الولادة ومن المواضع المعدّة للمرضى والتى يوجد فيها الاطباء المارستانات العامة فيدخلها المرضى للعلاج ولاقامة مدة المرض بلا عوض * ثم ان الاطباء فى باريس فرقتان احداهما اطباء عامة لمطلق الامراض على تنويعها والاخرى لداآت خاصة وذلك أن علم الطب متسع جدا فقل أن يشتغل انسان بسائر فروعه ويحققها فاحتاج اطباء الفرنساوية الى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغى له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ويتقوى فيه ويتبحر حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الاطباء بتحقيق ذلك الفن حتى يجلب اليه من بداء يدخله شئ من ذلك الفن فلذلك يوجد فى باريس اطباء مثلا لخصوص مرض الرئة واطباء لمرض العين تسمى المكحلاتية واطباء لامراض الاذنين واطباء لداء الانف وتجبيره حتى ان من اطباء الانف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الانف المجدوع صحيحا وفى باريس اطباء تستعمل جاذبية المقناطيس الانسانية للاستعانة على مداواة الانسان وتفصيل ذلك أن فى باريس جماعة من الطبايعية تزعم انه ثبت عندهم أن بدن الانسان يشتمل على مادّة سيالية يعنى جاذبية المقناطيس الانسانية يعنى أن هذه المادّة لها خاصية المقناطيس وتحصل هذه بتقريب اليد عدّة مرات كالمسح فينعس الانسان او تغيب حواسه حتى لا يحس بشئ فاذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شئ او بفتح شئ من بدنه من غير أن يشعر بشئ ابدا وقد جرب ذلك فى قطع ثدى امرأة بعد مغناطيسيتها فمكثت عدّة ايام ثم ماتت فقال علماء المقناطيسية انها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع فانها عاشت بعده فالمقناطيسية نافعة لمعالجة الامراض العصبية وفى باريس ايضا حكماء

لخصوص مداواة خلل العقل اولالم اعضاء التناسل اوالمصورة ولخصوص
الامراض الجلدية المنفرة وغيرها كالجذام والجرب وفى باريس ايضا حكماء
لتوليد النساء فان العادة ايضا فى باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف
بامور الولادة وبها حكماء لمعالجة البياضة التى تنزل بالعين والماء الذى يعميها
وبها حكماء لاوجاع الصدر وداء الفالج الذى هو شلل بعض الاعضاء فيداوونه
بعلاج يسمى الاكيكتوو بكسر الهمزة والكاف وسكون الميم وضم الباء
وسكون الكاف وضم التاء يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة فيخرجون بذلك
شيأ من الدم يتبع لتخفيف ضرر هذا الداء وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة
الانسان وهذا العلاج يسمى الارتوپيدى بضم الهمزة وسكون الراء وضم
التاء وكسر الباء وسكون الياء وفتح الدال يعنى فن اصلاح خلل أعضاء
الاطفال فمن الحكماء من يصلح خلل الفم اوالوجه ومنهم من يشتغل بتدبير
الاعضاء الناقصة لتخلفها باعضاء اخرى مدبرة * ثم ان فروع العلوم الطبية
كثيرة فالمشهور منها فن التشريح وفن تمييز امراض الانسان من حال
طبيعته وفن الكيميا العقاقيرية وفن اسباب الامراض الباطنية الطبية وعلم
الجراحة الطبية ووضع العصابة على الجراح والتضميد بالمراهم وفن تطبيب
ملازم الفراش المبتلى بامراض ظاهرية وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى
بامراض باطنية وفن معالجة النساء وتوليد الحامل وعلم الطبيعة التى تدخل
الطب وعلم العقاقير والادوية المفردة اوالمركبة وصناعة المعالجة ومباشرة
المريض * ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة فبها مدرسة كبيرة
تسمى اكدمة الحكمة السلطانية وهى ديوان الحكماء السلطانية وهى مجعولة
لحاجة المملكة الفرنساوية ومباشرة الامراض العامة الضرر كالامراض
الوبائية والامراض التى يعتقد الفرنساوية انها معدية وكرض فصل البهائم ومن
وظيفة علماء اكدمة الحكمة معالجة سائر الناس بما يتعلق بالمملكة موقوفا
على النفع العام كاشهار تلقيح البقرى لاخراج الجدرى وامتحان الادوية
الجديدة والادوية المكتومة وامتحان الادوية المعدنية الاصلية او المصطنعة

لادخالها فى الادوية وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية اعظم الحكماء الفرنساوية ولنذكر هنا بعض مايتعلق بمارستان باريس فى فصل فعل الخير وقد اسلفنا بعض شئ من ذلك فى الفصل السابق

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن حتى تتم فائدة هذه الرحلة وهذه النبذة ترجمتها فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها لصغر حجمها فهى وان كانت تخرجنا عما نحن بصدده الآن منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة

نصيحة الطبيب

المادة الاولى فى وصية صحاح البدن

لاشك أن الاطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم ومع ذلك فالاولى الاستغناء عنهم لانهم رفقاء المرضى فلتحرص على حفظ انفسنا من اسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبيبة * والدواء المجرب لمنع الاحتياج اليه هو اعتياد الكد والقناعة ولنذكر لك بعض امور اخر الاولى لاتسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة اودارا غائرة فى الارض يسيرا فان كلا هذين الوضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الايام * ارفع ارض بيتك بعض قراريط برمل اوحصى اوطوب مسحوق اوما اشبه ذلك وتجنب البناء فى ارض مماسة لارض اعلى منها * اجعل منافس الهواء الى الجنوب الشرقى اى اجعله بين الشرق والجنوب فان ذلك للصحة اسلم من جميع الاوضاع * الثانى الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور وافتحها فى غالب الاحيان لان البرد للصحة اوفق من الحر فاهل الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم ابرك من اهل الجنوب والمريض يشفى فى غرفة مفتوحة لسائر الرياح ورب هلاك لو كان بجانب الحرارة * الثالث بركة الماء الراكد اذا اشتد قربها من البيوت فانه يتصاعد منها ابخرة لاتناسب الصحة بل تؤذيها اوربما قتلت وبسبب ذلك ترى بعض البلدان ممتلئا بالاوباء فاجتنب هذه الاشياء الجالبة للامراض والاوجاع * الرابع السكر

رى البدن ويحرقه ويسرع بالشيب فنصيب من يتهمك على شرب الخمور
وغيرها من المسكرات أن يصاب بداء الذبول ويقصر الاجل * الخامس
من اسباب الامراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر والبرد ونزول المطر
السريع اونزوله باردا فى وسط الايام الحارة فاولى مايطرد هذه الامراض
أن تلبس ازيد مما يقتضيه الفصل فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف
ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع واذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل
بالماء الفاتر فان لم يبتل الا العضو فقط فاغسله وحده * السادس احذر
اذا اشتد حرك أن تمكث فى موضع بارد اوتشرب ماء شديد البرودة والا فالعرق
ينحبس حالا ويتداخل فى الباطن ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر
والقولنج المحرق ونحو ذلك فاذا نفذ القضاء وابتلى باحدها فالواجب تداركه
لعله يخف فاول ماتحس بمبادى العلامات فضع القدمين فى ماء هين الحرارة
وطرّ بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق او الصدر او البطن واحتقن بالماء الفاتر
المخلوط بيسير اللبن وتعاط الشوربة التى صورتها أن تأخذ قبضة من زهر
الخبازى وتضعها فى اناء خزف مع اوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع
قدح ماء مغلى وغط الاناء ودعها تبرد فتى بردت هذه الشوربة فصفها بخرقة
وذوب فيها اوقيتين من العسل فاذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه
الطبيب من الدراهم فان ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك وربما كان ذلك الطبيب
لا يفيدك فى هذا الداء شيأ

(المادة الثانية فى الدلالة على ما يصنع حين اخذ)
(المرض فى الظهور)

اعلم أن كثيرا من الناس باعتناء فاسد يريد أن يداوى المرضى فيهلكهم فاول
ما يسد وقليل من الحمى او التى مثلا يجد احسن من تعريق المريض فيضغطه
تحت اغطية ثقيلة ويحجب عنه الهواء ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة
وربما سقاه خمرا حارا او حلوا فهل من الاعضاء من يستطيع حمل ذلك اوليس
أن هذا يمرض من ليس بمريض نعم قد يكون العرق به الشفاء لكن حين

تكون الامراض قد صدرت عند انحباسه اوبعد تقليل هذه اوازالتها بكثرة تعاطى الشوربات وعلى كل حال فلابد من ادخال الهواء اللين فى موضع المريض لما أن حاجة الانسان الى الهواء كحاجة السمك الى الماء والشوربات الحادة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيبسه والخمر هو سم حقيق فى الحمى فعليك بخلاف ذلك من الشوربات الرطبة الباردة فانها تذيب الاخلاط المتفسدة وتسهل خروجها وتخفف الحرارة وتنظف المعدة وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى الحمى فيعطيه المرق فيضاعف المه مع أن من الحقيقة المقررة عند اكابر الاطباء أن المريض الذى به خبرة المعدة كلما اعطوه من الاغذية زاد ضعفه وهذه الاغذية اذا تفسدت بالاخلاط المعفونة التى تختلط معها فى الجوف تجلب مرضا جديدا فما يتعين فى شفاء المريض هو مايضعف المرض فى كل عشرين مريضا يموتون فى الارياف فاكثر من الثلثين يمكن انه كان يشفى بلاشئ لوكان فى موضع مستور من مضار الرياح وكان لايشرب الاماء مبردا ولكن لامفر من القدر واغلب الامراض الحادة والحميات يتقدمها ايام تشويش كيسر الخدر وقلة النشاط وعدم شهية الاكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل عديم الراحة غير المصلح القوى بل وثقل الصدر والميل الى البرودة وتيسر العرق غير المعتاد وانقطاع العرق المعتاد وعند ذلك يتيسر تداركه اوتخفيف هذه الامراض المضرة باربعة * الاول ترك سائر الاشغال الشاقة والمداومة على الاشغال الهينة * الثانى تقليل اكل المغذيات اواجتنابها لاسيما ترك اللحم والمرق والبيض والنبيذ * الثالث اكثار الشرب يعنى ان يشرب كل يوم قزازة فاكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة اومن الماء الفاتر المخلوط فى كل قزازة اما بخمسة عشر او بعشرين حبة من الملح المعتاد او بقصان خل او بملاعق من العسل * الرابع الاحتقان بماء فاتر او بهذا الهواء وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش اومن زهر الخبازى وتغمرهما وترش عليهما نصف قزازة ماء مغلى وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما

اوقية عسل

(المادة الثالثة فى الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض)

اعلم انه ينبغى للمريض اذا تلبس بالبرودة او الحمى او الالم أن يلزم الفراش والجلوس وأن يتغطى زيادة عن عادته وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن الشوربة السابقة فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم الا الغطاء المعتاد ثم ان بعض اهالى القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا و يتغطون بغطاء ثقيل من الزغب والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الاحيان الا فى مدة الحر او اشتداد الحمى فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش وللغطاء ملاحف او اكسية اقل خطرا من الريش فهذا هو ما يريح المريض و ينبغى الحذر من تسخين هواء محل المريض ومن كثرة الناس واللغط ومن الكلام معه الا على قدر الحاجة و ينبغى فتح طيقانه واقلا ربع ساعة فى النهار و ربع ساعة بالليل و ينبغى مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ولكن لا يعاد المريض عن جريان الاهوية فلتسحب عليه ستارة فراشه او ليحجب عن الهواء بكيفية اخرى وفى زمن الحر ينبغى ابقاء طاقة من الطيقان مفتوحة ويحسن ايضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة و ينبغى فى الهجير والمريض متعب بالهواء الحار أن يرش بلاط غرفته وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه تغمس فى اناء فيه ماء لتكون مسقية وليجتنب المريض تناول الاطعمة المغذية ولا يأكل الا يسيرا من خفيف الثريد المنضج او الارز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح ولا بأس فى الصيف بالاثمار المستوية وفى الشتاء بالتفاح المنضج او البرقوق و الاجاص بعد تيبيسهما وطبخهما فهذه الاثمار اذا اكلت بلا اكثار منها تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة فهى الاغذية اللائقة بالمحموم واستعمل الشراب الرطب والمبرد الذى ذكرناه سابقا ولا بأس ايضا أن تضع فى نحو قزازة الماء طاسة من عصير الفواكه

التى ذكرناها قريبا و ينبغى للمريض أن يشرب كل يوم قزازتين من ماء فأكثر وأن يتناول فى المرة يسيرا فنى كل ربع ساعة يشرب فنجانا مالم ينم واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة فنى اعتدال الزمن يكون فى مزاج طراوة نسيم الغرفة ولو امتنع المريض من حاجة الانسان جملة ايام اولم يبل بكثرة اوخروج بوله احمر اوخلط فى كلامه اوكانت حمته قوية اوكان وجع رأسه اوكليته شديدا اوكانت بطنه متألمة اوكان محتاجا كثيرا الى النوم فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره فى المادة الثانية فالاحتقان شفاء المحموم الا اذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن واذا خف المرض فينبغى الخروج من الفراش فى اليوم ساعة فأكثر كما يمكنه ولكنه لا اقل من نصف ساعة ولا ينبغى ترك فراشه وهو متلبس بالعرق ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم وتغيير ما على بدنه كل يوم من اذا تيسر ذلك ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك واعتقاد أنه يخشى على المريض من خروجه من فراشه فيتركه فى ثيابه المتسخة وهذه الثياب لا تقتصر فى اضرارها على ابقاء اصل المرض فقط بل تقويه فقيل ان المريض تعبان جدا وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فانه يزيد ما بقى من قوته و يسرع تخفيف الله

المادة الرابعة فى معالجة الناقه

اعلم انه مادام بالانسان قليل من الحمى فلا يتناول الا الاغذية الخفيفة التى بيناها فاذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها كقليل من اللحم الطرى او السمك او المرقة او البيض غير النضيج فهذه الاغذية تصلح القوى بشرط عدم الاكثار فيما يتناول منها والاقتصار على الحمية لان المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة الا ليسير الهضم فلو اعطيتها فوق ما فى قوتها لم ينهضم سائر ما يدخل فيها بل يتصد وقوام البدن انما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل اليها فقط فينبغى للناقه أن يكون كالمريض فى تناوله قليلا فى كل مرة ولكن فى غالب الاوقات وأن لا يتعاطى فى المرة الا جنسا واحدا من الاطعمة وأن لا يكثر من تغيير الاطعمة وأن لا يستعجل فى مضغ ما يتناوله من الجوامد وأن لا يكثر من الشرب

وخير الشراب هو الماء المخلوط بشئ من الانبذة وليسر على قدر ما يستطيع ماشيا اوراكبا عربية اوفرسا ومن العبث ترك ركوب الخيل فى هذه الحالة لمن يملك الخيل كاغلب اهل الارياف واذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا للمادة الهضم بخلاف فعله قبل فهو بما يضر الهضم وليتناول من تمام من المرض يسيرا من الطعام فى المساء لان النوم اريح واصلح له من الاكل ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ثم اذا جاوز يومين من غير خروج شئ فليحتقن ثالث يوم اوقبله ان علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة اوالانتفاخ اوضيق الصدر او وجع الرأس و ينبغى لمن تمام من مرضه جديدا أن لا يسرع فى العود الى شغله فان لم يصبر الى تمام عافيته طال ضعفه فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه فان لم يحفظ على نفسه والا اصابه مرض الذبول فينبغى حين ارادة الاخذ بالمبادى مراقبة العواقب

المادة الخامسة فى وصايا عامة على الصحة

احفظ القناعة فى الاكل فمن لم يقنع لايشبع بل يهلك نفسه * قيل من ارخى على الطعام طويل عنانه * حفر مقبرته بحدة اسنانه * لا تأكل دون مرتين فى اليوم بل لا بأس بثلاثة والصغار لهم أن يأكلوا اربع مرات بل خمسة * لا تنم عقب الاكل ومدة النوم للسليم ست ساعات اوسبعة وللضعيف والصغير اطول من ذلك * تضمحل القوة والعقل و يذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم * النظافة نصف الصحة فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع * لا تمضغ الدخان ولا تستنشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعفة على طول الزمن وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم و ينتن النفس وتسود الاسنان وتفسد وقد شوهد أن كثيرا من الناس اعترته الحاقة بالاكثار من شرب الدخان اوشم النشوق * اياك والانهماك على تعاطى الخمور والمسكرات سيما ايام الصوم وقد توهم انها تشد القوى مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى ادنى زمن و يعقبها وهن وذلك كما أن النار تذكو اذا اكثرت من نفخها وترى الوقود سريعا ولا تعطى الحرارة الا درجة واما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت

الصيف فعليهم تغطية رؤسهم وأن يتداركوا اشغالهم

المادّة السادسة في معالجات جملة علل وامراض

الاوّل الزكام والنزلة يقال هذا ليس بشيء ان هو الا زكام او نزلة نعم نسلم أن الانسان لا يموت بذلك لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له ومن كلام بعض الحكماء الاقدمين يهلك بالنزلة والزكام ابلغ مما يهلك بالوباء وعلاج ذلك استعمال الشربة المذكورة في المادّة الاولى او تعاطي سلاقة الخمان التي ربعها او ثلثها لبن وينبغي قبيل النوم وضع الرجلين في الماء الفاتر ولو انحبست البطن تعين الاحتقان وينبغي الاقتصار على تناول الاطعمة الخفيفة وتعاطي اليسير في المأكل ولا بأس بتعاطي بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الاحمر وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرق المحروق او الخمر المعطر او الحلوم مع أن هذا كالقاء الحطب في النار اذ هذه الاشربة اقرب في تثقيل هذا الداء من ازالته او ليس أن هذا الداء حرارة وهي تزداد بهذه الاشربة ❊ الثاني وجع الاسنان اذا كان الوجع ناشئا عن فساد السن تعذر علاجه كما قيل الكلبتان فالا لائق قلعه والا دام الوجع وفسد غيره من الاسنان وربما جر ذلك الى فساد الحنك ولكن لو اختير بقاء السن خوفا من قلعه فلا بأس أن تختبر بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة في قطرات من عصير القرنفل فان ذلك يصلحها زمنا طويلا وربما كانت نهايته نفتها وسقوطها او يمكن ايضا اصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا وتمضمض بسليق النبات المسمى حشيشة الفضة واما اذا تحرك الوجع من غير أن تكون الاسنان متفسدة فأدم الغرغرة بالشعير او بالماء واللبن وتضميد الصدغ بالضماد المطري واتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر ولا تشرب الانبذة المخدرة ولا تكثر من الاكل واما اذا كان بالاسنان قرح فتنضيجه بأن تديم في فمك لبنا او تينا مطبوخا في لبن فاذا انضج فافتحه فانه سهل غير مؤلم ❊ الثالث السكتة اعلم أن داء السكتة يأتي الانسان فجاءة فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ما عدا النبض وبه يعسر التنفس وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة الى الطبيب ومدة انتظار حضوره يجب

اولا كشف رأس المريض وتغطية ماعداه من البدن بشئ خفيف جدا وجلب الهوآء الطرى عنده وفتح طوقه بالكلية * ثانيا اقامه حسبما يمكن رأسه الى اعلا ورجلاه الى اسفل * ثالثا حقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش الطرية والملح * رابعا اسقه كثيرا من الماء حسب الامكان * خامسا ابعاده عن الاشربة المخدرة كالخمر وكذلك الماء المعطر شربا او ضمادا او سعوطا * سادسا عدم مسه وتحريكه الا الضرورة * سابعا عصب الرجلين تحت الداغصة وهى العظم المدور والمتزلق فى وسط الركبة حتى ينحجب الدم عن الصعود الى الرأس وربما رجع ذآء السكتة بعد ذهابه وكلما رجع كان اصعب مما قبله فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو فى هذه الحالة قليلا جدا واولى ما ينفع له أن يترك العشاء وأن يتجنب الاشياء الغزيرة المائية وطيبات الروايح والحوامض والاشربة المقوية والقهوة وأن يأكل قليلا من اللحم وكثيرا من الخضراوات والفواكه وأن يشرب دواء مسهلا مرتين او ثلاثا كل سنة وأن يتريض وأن لا يكثر من السخونة فى اوضته او حرارة الشمس وأن لا يتأخر فى النوم اوفى القيام منه وأن لا يلبث فوق ثمان ساعات فى فراشه * الرابع ضربة الشمس هو مرض يصيب الانسان متى اعترض فى حر الشمس زمنا طويلا عريان الرأس فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد واحترار البشرة واحمرار العيون وجمود الدموع وضعف البصر عن الامتداد الى الضوء وقد يحصل للمريض به سهر وربما احس بالنوم وقلق شديدا وفى الغالب تكون بشرة الوجه محترقة فالمريض لا يزال شديدا حتى يأتى الطبيب سريعا فينبغى فى مدة انتظاره أن تضع رجلى المريض فى ماء فاتر وتدخله نصف حمام او حماما كاملا واحقنه باعشاب مطرية واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء او اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافى المخلوط بيسير الخل والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خرقة مطراة بماء بارد وخل معا * الخامس نهش الحيات * اولا اخرج الزبان اذا التصق بالمحل الملدوغ * ثانيا تعهده بالماء * ثالثا الطخ عليه اما كزبرة او كرفسا او زهر الخان * رابعا فان عظم الحرقان فاسرع ما ينفع هو أن تبل خرقة صوف فى سلاقة الخان وتلطخها وهى هينة

الحرارة خامسا أن تلصق على الوجع لصقة من سحيق بزر الكتان اومن لباب الخبز المنزوج باللبن او العسل * السادس قاعدة يجب اتباعها فى تعهد الصغار والاطفال * يحق على الامهات اللاتى يردن حفظ صحة ابنائهن وتربيتهم أن يتركن عوايد البربر من لف الاطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم وتثقل ارجلهم وايديهم فكيف يقلن لو اخبرهن انسان ان اللازم لصحتهن ان يحتبسن فى اثوابهن وأن يلصقن اذرعتهن بيدنهن وأن لا يتحركن كالمسلسل فلاى شئ يصنعن ذلك باطفالهن وهم ضعاف فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن اطرافهم للهواء * من يتوهم من غير مستند أن الفرس الصغير او العجل كذلك من المستحسن لصحتهما ربطهما وتكتيفهما على ذلك الوجه اوليس أن حكم تربية الادمى كغيره من باقى الحيوانات * السابع السم بالفطر وهى جنس ردئ من الكمأة كثير من الناس من يهلك بميله الى الفطر وكان الاحسن فى حقهم يقينا أن يتجنبوه وقد شوهد غير مرة أن الام تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبريهم به فتقتلهم بيدها واعمال هذا النبات السمى لا يظهر الا بعد مضى ست ساعات الى اثنى عشرة فاول ما تحس بها اطلب الطبيب وتناول مدة انتظار حضوره حبتين او ثلاث حبات من الطرطر مقى اى ملح الطرطير المقيى بعد تذويبه فى طاستى ماء * الثامن السم بالزنجار اعلم ان آنية النحاس التى تستعمل فيها المطبوخات هى خطرة بسبب زنجرتها سريعا والزنجار سم قوى فلتبيض اوانيك وتتابعد وقت بالقصدير ولا تترك الاطعمة تبرد فيها خصوصا اذا كان بها الخل او الحامض او المربيات او الدسمة فاذا اعتراك دوانة يحترز عن ذلك قولنج او قيء فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض فى قزازتى ماء واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقى السم فان لم تجد البيض فاكثر من شرب اللبن فان عدمت اللبن فن الماء المحلى او ماء الصمغ * التاسع داء الكلب وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين وهو يتولد طبيعة فى الذباب والثعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للادميين وغيرهم من الحيوانات وعلامة الكلب الكلب انك تراه اولا كئيبا

ذايلا مدة ايام فيختنق ويسلك الحال المظلمة ولا ينبح بل يختنق ويترك الأكل
والمشرب ثم يحمر بيت اجفانه ويجري من جهة الى اخرى وينفش شعره ويتدلى
لسانه من اللعاب ويتدلى من فمه وينعوج ذنبه بين رجليه ويهرب من المائعات
ويهم أن يعض سائر الناس حتى صاحبه ثم يموت بعد يوم او يومين بشدة
مصارعته وتفوح من جيفته رائحة منتنة فالواجب حينئذ دفنها في عميق من
الارض ومتى عض هذا الكلب الانسان فان الجرح من عادته أن يلتئم
بالسهولة كانه غير مسموم وبعد مدة قليلة او كثيرة وهي ثلاثة اسابيع الى ثلاثة
اشهر يحس بالجرح وجع مكتوم فينتفخ اثره ويحمر وينفتح ويقيح وصديده
تخرج حارة منتنة محرقة ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة
ويعسر عليه التنفس ويمسك الوجع امعاءه ويضطرب في نعاسه ويعطش
عطشا مهلكا ويقاسي اذا شرب ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ويبح
صوته ثم يجن ويموت وليس من شأن من اصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما
بل معظم المبتلين بهذا الداء اذا احس هجومه عليه ينصح الحاضرين بأن
يكونوا منه على حذر ومايذوقه من الالم تقصر عنه العبارة فيتمنى ولو الموت
ومعالجته هي ان اول ما يعضه الكلب تسرع الدواء فيه فان توانيت سرح
السم الى الدم ولا يجدي التطبيب شيأ وذلك الدواء هو أن تستخرج الدم من
الجرح بعد كشفه وتغسله بماء ملح وتكويه بحديدة بعد احراقها في النار حتى
تبيض بعد الاحمرار وتغرزها في سائر اقطار الجرح فلو بقي جزء من الجرح غير
محكم الكي كان الكي كلا شيء ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحرقة دهن
الزاج فتدخله بين شفتي الجرح وتجريه في سائره ومتى اكتوى اللحم تغطيه
بخرقة مدهونة بالقيروطي اي المرهم او بالزبدة الطرية واعلم انه يجب غسل
الثياب المثقوبة باسنان الكلب الكلب لما انها حين تشربت من ريقه
تخلل بها جزء من سمه وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة في هذا المرض
الشديد فلا تتردد او تخف قليلا من الالم الذي يطرد غيره من الالم الشديد
او الهلاك المفزع وايضا اطلب الحكيم لانك لابد ادرأبه هذه المعالجات

السالفة ولا بأس ان تستعمل هذا الدوآء فى اى حيوان معضوض بكلب كلب * وأزل ما على الجرح من الشعر ولو كان المعضوض اذنا او ذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع * وينبغى أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرها * العاشر الاستعانة على افاقة الغريق لا تيأس من افاقة الغريق الا اذا اخذ بدنه فى العفونة فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه او ذهبت حركته بالكلية او فقد امارات الحياة فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات الاخوة فقبل كل شئ اطرد من اجتمع عليه من الخلق لانه يضيق الصدور ويحجب الهوآء ثانيا لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه بحيث يكون وجهه الى اسفل وافتح شفتيه حتى يخرج بسهولة الماء الذى دخل من الفم او الانف وارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف ان تيسرت وادرج باقى بدنه فى غطاء ملففة * ثالثا انقله سريعا الى اقرب موضع * رابعا بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب باسهل ما يمكن ولو بقطعها * لانه لازم * خامسا افرش له عند ذلك بعض طراحات وحشايا ذات صلابة واجعلها قريبا من نار متقدة وضع فوق الطراريح ملحفة من الصوف ووسد الغريق فوقها مرفوع الرأس ملفوف البدن * سادسا دلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقة صوف جديدة يابسة ثم دلك بالملحات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه خصوصا على السرة وما حولها والاولى خصوصا فى الشتاء أن تسخن طاجلا ماء وتملأ منه مثانات على الثلثين من ماء هين الحرارة وتضعها فوق اجزاء البدن المحتاجة للحرارة * سابعا مدة الدلك او عقب وضع المثانات ينبغى أن تدخل الهواء فى صدره بأن تضع قصبة او ريشة فى فم المريض او فى احدى طاقتى انفه مع فتح الاخرى وانفخ فى تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها فان كان النفخ فى الفم فاقبض الانف ولكن ارخ اصابعك مرة بعد اخرى ليخرج منه الهواء احيانا * ثامنا اشممه القلى البخارى يعنى الروح البخارى ويشم ملح النشادر بأن تغرطس ورقة حتى تكون مبرومة فى صورة فتيلة وتملأ بها من قزازة قلى بخارى وتعرضها تحت انف الغريق

اوتدخلها فى منخاره وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق * تاسعا ألعقه ان امكن يسيرا من روح الانبذة المخلوط بالكافورور بما لمكث هذا المائع فى فمه يسيرا من الزمن ثم يلعه ولكن لا تملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه * عاشرا او بلعها فأعطه اكثر منها فلو تحركت معدته من غير وجود قئ وذلك ما يتعبه فأعطه ثلاث حبوب من الطرطير مقى مذوبة فى ثلاثة اواربعة ملاعق ماء فان تقايئ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاترا اوان انزل من المخرج شيأ فقوه بتناوله شيأ من الانبذة * حادى عشر لو ابطأ عن الاحساس فاحقنه حقنة حريفة وصورتها ان تأخذ اوراقا يابسة من الدخان قدر نصف اوقية ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله نحو ربع ساعة وتحقنه به ويصح ان تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل وربع رطل من الملح المعتاد وهذه كيفية معالجة الافاقة للغريق وتدبيرها ممكن لكل انسان حتى يحضر الطبيب فيعينهم ايضا ولو كانت مفيدة فقائدتها لا تحصل الا بعد التدبير مدة ساعات على التوالى فعائدة ذلك بطيئة خفية ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا فمن الغرقى من لا يفيق الا بعد ست ساعات او سبعة من مبدء خروجه من الماء * الحادى عشر غيبوبة الحياة برايحة بيوت الاخلية والبالوعات والآبار والمجارى ونحوها * اولا أخرج سريعا من اصيب بهذا الداء وضعه تحت الهواء ثانيا جرده من الثياب ورش على بدنه ماء باردا اوماء مشوبا بخل وهو اولى واولى منه حامض الخير * ثالثا ألعقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل * رابعا احقنه بحقنة ماء بارد ثم اخل ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب * خامسا أدخل فى انفه طرف شعر ريشة وحركها بالرفق * سادسا أدخل الهواء فى صدره بواسطة قصبة وانفخها بمنفاخ كما سلف فى الغريق عند العمل السابع واسلك سبيل النشاط والاستعجال فى هذه المعالجة فكلما ابطأت كلما ظن اليأس من انتاجها ولما كان الموت لا ينكشف الا بعد مدة تحتم ادامة المعالجة حتى يتيقن * الثانى عشر غيبوبة الحياة بالبرودة اعلم ان شدة البرد قد تستحكم باعمالها فى الانسان فتجمد الاعضاء وتحبس جريان الدم وربما امات بها الانسان ودواؤها مخوف العاقبة جدا

وان كان لاالم به ابدا فبادیها هو الرعشة التي تكاد تصرع الانسان وصلابة الجسم واحتباس الدم وخدر المفاصل وذهاب الاحساس والتذاذ البدن بالنوم وانقياده اليه ولو بالقهر وانقطاع حركات الحياة على التدريج وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الاحياء الى حيز الاموات وفي الحقيقة حركات الحياة ليست الا متوقفة فعليك أن تسرع في معالجته بدوآء سوآء ذهبت امارات الحياة بالكلية او بقي منها شيء واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة الافاقة تكون بالحرارة وهذا وهم فاسد لاضرار الحرارة بكثير من الناس ولكن معالجته هي أن تلف اولا بدنه في ملحفة من صوف وتحمله الى اقرب مايرتاح فيه من الاماكن وتخلع ثيابه وتضعه في فرش غير محمي * ثانيا اذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشيء من ذلك مارا من القلب الى المفاصل ثم بعد لحظات ادلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد و بعده بماء فاتر ثم بماء مسخن ورش على وجهه شيأ من هذه المياه * ثالثا لو تعذر الثلج فضعه في حمام فيه ماء بئر بارد وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن وهلم جرا فأفرغ عليه كل ثلاث دقائق حتى تذهب برودة الماء على التدريج ويصير فاترا معتدلا واجعل جميع ذلك نحو ثلاثة ارباع ساعة فقط فان استشعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام حتى يصير في درجة سخونة الحمام المعتاد ومادام المريض في الحمام فرش على وجهه يسيرا من ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة * رابعا المسه في انفه بطرف ريشة او بفتيلة ورق مسقية من القلي الضاري * خامسا أدخل الهوآء في صدره بواسطة انبوبة او منفاخ كما سبق في الغريق * سادسا أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد وألعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة * سابعا اذا نبق بالمريض الخدر فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل وان كان نومه به شبيها فالحقنه بحقنة حادة وهي ما تقدمت في شأن الغريق ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمور والمسكرات القوية يمكن أن يتدارك به ابعاد هذا الدآء مع أن الامر بعكس ذلك وهو أن كثرة الاشربة تحبس جريان الدم فمن نهمك على تعاطيها فهو اشد تأثرا من غيره

بآفات البرودة * الثالث عشر غيبوبة الحياة بدخان الفحم * كل من يمكث
فى غرفة مغلوقة موقود بها الفحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة فبدؤ ما يحصل للانسان
شدة وجع الرأس و بعد ذلك يعتريه تعسر النفس ثم يقع فى ذبول كحالة الموتى
فان عولج فقد الملك والاهلاك ومعالجته هى أن تسرع الى تعريضه فى الهوآء
وتجرده من أثوابه وتنيمه على ظهره وتسقيه ماء ممزوجا بخل وترش من هذا الماء
على وجهه وصدره وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها وتمسح وجهه
ثم تعيد ذلك عدة مرات وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعلا او غيره من حاد
الرآئحة وتغمزه فى باطن انفه بطرف ريشة وتحقنه مرتين الاولى بماء ممزوج
بخل والثانية بماء ملح فان بقى بعد ذلك على حالته فدلك فقار ظهره بمسحة من
عرف حيوان والطخ شيأ من معجون الخردل على بطن رجليه وأدخل الهواء
فى صدره بأن تدخل فى احدى طاقتى انفه فم منفاخ وتنفخ والحال أن الاخرى
مسدودة فاجتهد وواظب على ذلك وليس فى الغالب يفوق المريض فان
ساعدتك المقادير على افاقته وظهر شئ من امارات الحياة فضعه فى فرش عظيم
التسخين فى غرفة بها الهوآء وألعقه شيأ من خير الاشربة * الرابع عشر فى معالجة
الحرق اول ما يحترق عضو الانسان فليغمس العضو فى ابرد ما يمكن من الماء وان
تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما باسفنجة مملوءة منه وكلما تسخن الماء المستعمل
فى ذلك الغسل فجدده وواظب على ذلك ساعات وافتح ما ينتفخ من الدمامل
بطرف ابرة واحذر أن تقشطها او تسلخ البشرة ثم الطخ على ذلك العضو المرهم
الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازورق ومحل هذا كله ما لم يمض نصف
ساعة قبل غسل العضو المحترق فى ماء بارد والا فهذا الدوآء يكون مضرا بل
فى هذه الحالة لابد أن تكتفى باستعمال المرهم الذى تذوب عنه الزبدة الطرية ولو
رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك *
الخامس عشر فى الجدرى والتخلص من مجيئه بتلقيح البقرى * امر الجدرى
معلوم وكونه اما قاتلا او مشوها لا سيما الوجه بين عند سائر الناس وربما أذهب
البصر واورث اسقاما لا تنقضى الا بانقضاء الاجل وهنالك طريقة لتداركه قبل

اوانه مجربة فمن مرض بالجدرى مع وجودها فهو من سوء تفريط والديه واهمالهما فعلى ابى الانسان وامه المبادرة لذلك فاذا بلغ سن المولود ستة اسابيع الى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدرى بالتلقيح ولا عذر لهما ان اهملا فى ذلك لقدرتهما على مداواته واذهبا فلو تركاه حتى اصيب بالجدرى فصدفات اوان استعمال تلقيح البقرى فيندمان حيث لا ينفع الندم وفى بعض الممالك تلقيح البقرى للاطفال معين على بيت المال فلا كلفة فيه خصوصا على الفقراء فعلى اهل هذه المملكة أن يقبلوا عليه فى الحال ولا يتأخروا الى غد فربما فى اليوم القابل تحرك سم الجدرى ولا يغتر بقول من يزعم انه غير مثمر شيأ فصحيح التجربة اوضح فائدة استعماله ومن استعمله لطفل فاصيب الطفل بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط كون التلقيح كان غير محكم الوضع والحبات التى اخذت كانت غير تامة فاذا استعملته فى المولود فأطلع الحكيم على حبات البقرى تحقق اصابة استعماله وعدمها واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم فهو اخف من شكة ابرة ولا يمرض به الانسان ويصح استعماله لاى عمر كان والجدرى داء متوقع مدة اجل الانسان حتى كانه دين ما له الى القضاء وقضاؤه يحصل بالمسارعة الى استعمال تلقيح البقرى لمن يريد التخلص من اصابته *

* (خاتمة) * هذا آخر ما اردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة * فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه * اذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة * فما ثمرة الاموال للعليل * لا يتمتع منها بشفاء الغليل * يذهب المريض كنوز ذهبه * لمن يبريه من وصبه * ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه * فلا يصح له الشفاء من مرضه * تقرع الامراض باب الخطير * على نسق ما تقرع باب الحقير * ولا ترق لشكواه * ولا تسمع دعواه * حكمة بالغة الحكم العدل * ذى الاقتدار والفضل * فليس بنا قوة ولا حول * بل الكل بحول وقوة ذى الطول * فهو الممرض والشافى * والمبتلى والمعافى * ها نحن الآن فى حيز الحياة والثبات * ولا ندرى هل نعد غدا فى زمرة الاموات * فهذا سر خفى لا نصل الى فهمه * كيف وقد استأثر به الله فى غامض علمه * فلا نثق بالمخايل

القاهرة * من الصحة الزاهية الزاهرة * فربما في اسرع من البرق اللامع * تعترينا الامراض وتلازمنا المضاجع * وقدرتنا على القبض على الاجل * وحفظ الصحة من الخلل * كاقتدارنا على عروج السما * واتخاذ الافلاك ملزما * فعلينا بالاستعداد للمعاد * ولنكن كالمسافر المستحضر على الحل والزاد * العازم على الرحيل * الجازم من الاقامة بالقليل * فقد كان بالامس نوبة الجار * وستأتي غدا نوبة صاحب الدار * ولا خوف علينا ولا حزن * حيث كان خلاص ذممنا حسن * هذا والحمد لله وحده وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وسلم

(الفصل العاشر في فعل الخير بمدينة باريس)

اعلم أن غالب الناس ببلاد الافرنج وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والتجارة فيها يعيشون من كسب ايديهم فاذا حصل للانسان منهم مانع كمرض او نحوه قطع معيشته واضطر الى أن يعيش من غير كسب يده كأن يتكفف الناس او نحو ذلك فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير حتى ان الانسان لا يسأل ما في ايدي الناس وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت اهاليها فاحتاجت الى مارستانات اكثر من غيرها ومعلوم أن مدينة باريس من اعمر المدن واكثرها صناعة وتجارة فلذلك كثرت مارستاناتها ومواضعها المصنوعة لفعل الخير فكانت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة للخلل شح افرادها لهاوبخلهم لما تقدم انهم بمعزل عن الكرم من العرب فليس عندهم حاتم طي ولا ابنه عدي ولم يخرج من بلادهم معن بن زايدة الشهير بالحلم والندى الذي قال فيه الشاعر

يقولون معن لا زكاة لماله * وكيف يزكي المال من هو باذله
اذا حال حول لم يكن في دياره * من المال الا ذكره وجمائله
تراه اذا ما جئته متهللا * كأنك تعطيه الذي انت سائله
هو البحر من كل النواحي اتيته * ولجته المعروف والبر ساحله
اذا مر بالوادي فتبكي تلاله * عليه وبالنادي فتبكي اراملة

تعود بسط الكف حتى لو انه • اراد انقباضا لم تطعه اناملة

ولو لم يكن في كفه غير روحه • لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيرا مما يحكى عن بني العباس والبرامكة اه لا فالملك المنصور والمشهور بالدوانقي اكرم الكرماء بالنسبة اليهم ثم ان البلاد المتحضرة يقل كرمها وايضا يرون أن اعطاء القادر على الشغل شيأ فيه اعانة له على عدم التكسب • وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات واهله خمسة عشر نفسا المشورة العامة وفي هذا الديوان خمس نظارات • النظارة الاولى لمباشرة المارستان • النظارة الثانية لمباشرة مهمات المارستانات والخدمة للمرضى والعقاقير العامة • النظارة الثالثة مباشرة الاوقاف • النظارة الرابعة مباشرة الفقراء في بيوتهم واعانتهم • النظارة الخامسة مباشرة مصاريف المارستان ولوازمها • ولا يدخل الانسان المارستان الا اذا ثبت مرضه بقول الحكماء ومن قام من مرضه في المارستان واراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته اخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته حتى يمكنه الرجوع الى اشغاله واعظم مارستان بباريس المارستان المسمى اوتيل ديو ويقرب أن يكون معناه بيت الله وهو موقوف على المرضى والجرحى ولا يدخل فيه الاطفال ولا ارباب الداء العضال ولا المجانين ولا النفساء ولا ارباب الامراض المزمنة ولا المبتلى بالافرنجي فان كل داء من هذه الاشياء له مارستان خاص • ومن المارستانات الشهيرة في باريس مارستان يسمى سنلويز وهو معد لارباب الامراض المزمنة ولارباب الدماميل والقروح والحكة والجرب ونحو ذلك وفي باريس مارستان لقطاء يعني الاطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يجهلهم اهلهم كاولاد الزنا ونحو ذلك • وبباريس مارستان ايضا للايتام وفيه يدخل الاولاد الفاقدون لاهاليهم وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وانثى فالذكور فيه في جهة والاناث في اخرى ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم اخوات الاحسان ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ولهذا المارستان ديوان يدبره فلا يوضع الصغير في هذا

المارستان الاباء هذا الديوان واذا بلغ الانسان احدى عشرة سنة فى السن فانه
يخرج باذن اهل ذلك الديوان من هذا المارستان ويسكن عند معلم صنعة
ومصرفه يخرج من وقف المارستان وامام الصنعة أن يتبنى الصغير اى يأخذه
و ينزله منزلة ابنه ولكن بشرط أن يثبت لاهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن
حاله * ومن جملة مارستانات باريس مارستان موقوف لتلقيح الجدرى بوضع
البقرى * ومنها مارستانان يسميان مارستانى الشيخوخة والهرم فاحدهما
للذكور والآخر للنساء ومنها مارستان لاصحاب الداء العضال موقوف على
اربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسمائة وعشرين مريضة * ومنها مارستان
الصبيان من اهل باريس او غيرها من العمالات فلهم فيه الاكل والشرب
وسائر ما يحتاجون اليه فى تعليمهم ونحو ذلك * ومنها مارستان المجانين وفيه قشلة
عظيمة تسمى مارستان السقط وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الايدى
او الارجل او نحو ذلك وهو من انظف واعظم المارستانات وفيه ستة عشر طبيبا
وجرائحيا وستة عقاقيرية لصناعة الادوية * ويوجد فى باريس زيادة عن هذه
المارستانات ديوان عام يسمى ديوان الاحسان والمقصود منه تكميل الخير
الذى لا يمكن فى المارستانات كما اذا احترقت تجارة تاجر او انكسر فانه يجبر من هذا
الديوان بشروط معلومة * وفى كل خط بباريس ديوان احسان والاحسان
فيه قسمان احسان حالى واحسان حولى فالاول يعطى الفقير الذى وقف حاله
او حدث له ما يعطله والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل * ومن فعل الخير
بمدينة باريس انه يوجد بشاطئ نهرها عليه وحوائجها روائح لتشميم الغريق
والمغمى عليه والجريح ونحو ذلك ليفيق * ويوجد ايضا بهذه المواضع عدة رجال
من اهل الخبرة لينهضوا لاسعاف من وقعت له حادثة عارضة ومن هذا كله
يتبين أن فعل الخير بمدينة باريس اكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة او المملكة
لا للكل واحد على حدته فانه قد يشاهد فى طرقها أن بعض الناس الذين
لا يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع فى وسط الطريق من الجوع
ورجاء اهلهم يشهرون السائل ويردونه خائبا زاعمين انه لا ينبغى السؤال ابدا

لانه اذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة الى السؤال وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ولان السائلين عندهم اصحاب حيل فى تحصيل الاموال فى غالب الاحوال حتى انهم يتشكلون فى صورة الجاريح ونحوهم ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم * ومن فعل الخير انهم يجمعون عند الحاجة اشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا فمن ذلك انهم جمعوا لاولاد الجنرال فى نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من القروش

* (الفصل الحادى عشر فى كسب مدينة باريس ومهارتها) *

اعلم أن من المركوز فى اذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة اليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة وسوآء فى محبة الاشغال العظيم والحقير ولو حصل من ذلك مشقة او مخاطرة بالنفس فكأنهم فهموا قول الشاعر

حب السلامة يثنى عزم صاحبه * عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا * فى الارض اوسلما فى الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على * ركوبها واقتنع منهن بالبلل

الى أن قال

فانما رجل الدنيا وواحدها * من لايعوّل فى الدنيا على رجل

ثم ان أعظم التجارات وأشهرها فى باريس معاملات الصيارفة * والصيارفة قسمان صيارفة المملكة اوالميرى وصيارفة باريس ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس مايريدون وضعه ويأخذوا كل سنة ربحه المعين فى قانونهم فلايعد عندهم هذا الربح ربا الااذا زادعما فى القانون وللانسان أن يأخذ ماوضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد ومثل ذلك صيارفة باريس فانهم ياخذون ويعطون الاموال بالمرابحة وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال الذين هم صيارفة المملكة ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة أمن من الموضوع عند صيارفة المدينة وذلك

لان صيارفة المدينة يفلسون واما صيارفة الدولة فان ما يأخذونه يكون دينا على الدولة والدولة دائما موجودة ٭ ومن امور المعاملات المهمة عند اهل باريس جمعية تسمى الشركا في الضمانة فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية كما اذا احترق بيته او حانوته او نحو ذلك فانها ترجع له كما كان وتدفع له قيمته ٭ وفي مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانيه فمنها معامل المعادن كاشتغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ومنها معامل الصيني والفرفوري ومعامل الشمع الاسكندراني ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة وشغل السجاجيد ونحو ذلك وصناعتهم تعظم جودتها شيأ فشيأ حتى انهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون اشغالهم على رؤس الاشهاد ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه ٭ وفي باريس عدة خانات عظمى توجد فيها سائر المبيعات ووكائل وحوانيت وبيوت التجارة او الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته وبعض الاحيان قد يكتب اسم المتجر ولا يمكن أن يشرع الانسان في التجارة الا اذا دفع لبيت المال شيأ او لو هينا فيأخذ نيشانا علامة على الاذن له في التجارة فيحتاج أن يكون معه النيشان وعلى تجارته وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة يتعلم فيه التلامذة علم التجارة وعلم تمييز صفات انواع الاشياء المبيعة ومعرفة الاثمان والقيم ٭ وفي هذا المكتب خمس عشرة مدرسة وفيه تلامذة من أقاليم عديدة ويقتضي قانون ذلك المكتب انه يدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الامم ٭ ومن الامور التي تعين على التجارة والكسب تعميم طرق البر والبحر فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التي تسير بالدخان ونصب القناطر ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة والتلغراف وهي الاشارة ونصب البريد بالساعي والبريد بالخيل وغير ذلك ٭ فانظر الى مدينة باريس فان حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر ٭ وفي نهر السين تسير قوارب على صورة العربات وقوارب تمشي بالنار سريعة السير وبمدينة باريس جملة انواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال فمنها عربات معدة لوسق الامتعة من باريس الى البلاد البرانية

وتسمى رولاجه ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه ويسمى الدلجنس
ومنها عربات صغيرة للسفر الى المحال القريبة من باريس تسمى كوكو بضم الكافين
ويدفع فيها على كل رأس قدره معلوم كالسفر فى السفن وفى باريس عربات تستأجر
الى اجل معلوم كيوم اوشهر اوسنة والعربات العادية فى باريس هى ألفيا كره
وهى ما فيها مقعد فيه صدلتان متقابلتان تسعان ستة أنفس ولها حصانان
يسحبانها والكبريوله وهى نصف الفياكره فلها صدفة واحدة وركوب الفياكره
او الكبريوله تكون اجرته بالساعة او يستأجر من محل الى محل آخر واجرة ذلك
محدودة لا تزيد ولا تنقص ووجودها فى سائر طرق باريس اكثر من وجود الحمير
فى طريق القاهرة وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى الامنيبوسه
معناها لكل الخلق وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق مكتوب على بابها
انها تمشى الى الحارة الفلانية فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها
ويدفع كل منهم قدرا معينا وهى موجودة فى امهات خطوط باريس
ومن العربات جنس ينقل امتعة البيوت ومنها عجلات البياعين ويوسقونها
ويدورون بها فى الطرق ليبيعوها وهذه العجلات قد يسحبها حصان وقد يسحبها
حمار وقد يسحبها شخص وحده اومع كلبه وبها اجناس أخر من العجلات لحمل
الحجارة والتراب وغير ذلك ٭ واما البريد المسمى عند الفرنسيس البسطة فانه من
أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها يسهل فيه اخبار الغير بواسطة
المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع ما يكون وتدبيرها
يكيفيتها التى هى عليها من اعظم ما يمكن فان المكاتيب التى تبعث فى البلد
اوالعمالة تصل الى صاحبها من غير شك لان سائر نمرة البيوت مكتوب عليها
بالرقم عددها المسمى النمرة فيها يمتاز البيت عما عداه والمكتوب الذى تبعثه
لانسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة فيأتى الساعى ويأخذه
فيصل المكتوب الى الحارة الاخرى ويأتى رده فى يومه ٭ ثم ان الفرنساوية
يحترمون امور المراسلات غاية الامكان فلا يمكن لانسان أن يفتح مكتوبا معنونا
باسم آخر ولو كان متهما بشئ ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه

الحالة كثرت الرسائل بين الاحباب والاصحاب خصوصا بين العشاق لأمن
الانسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل اليه المعنون باسمه واعلام العشق
بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة وبها ايضا يحصل الوعد بالمواصلة
وفى باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعى ايضا من غير خوف ابدا
ومن الامور النافعة فى التجارات الجرنالات فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة
النافعة او الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها
وصاحب البضاعة يدفع لهم شيأ فى نظير ذلك وسيأتى الكلام عليها ان شاء الله
تعالى وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ويرسلها
مع خدم فى سائر البيوت ولسائر المارين بالطرق ويفرقها عليهم مجانا ففى هذه
الاوراق يذكر اسمه واسم دكانه وما عنده من المبيع ويعين القيمة لسلعته * وبالجملة
ففى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا سواء كان خطيرا او حقيرا ومن
أعظم الاشياء دكاكين العقاقيرية فيها توجد سائر الادوية مجهزة وسائر العقاقير
التى على وجه الارض المعروفة الاسم والخاصية وسائر الخلق بباريس
يحبون الكسب والتجارة سواء الغنى والفقير حتى ان الصغير الذى لا يمكنه
التكلم الا بالاشياء الصغيرة اذا اعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيديه قائلا
ما معناه بالعربية كسبت وقنيت ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا
أطيب الامم كسبا واذا كسدت تجارة احدهم كما هو غالب فى تلك البلاد
فسدحاله وآل امره الى تطلب ما فى ايدى الناس وربما اخذ معه مكتوبا من احد
الكبار يدل على كساد حاله وانه يستحق الاعانة ويكثر وقوع مثل هذا الامر
فى هذه المدينة وان كثر اخذها وعطاؤها * وتداول الامطار والرياح لا يمنع
الانسان منهم عن الخروج الى شغله يقولون بلسان حالهم اليد الفارغة تسارع
الى الشر والقلب الفارغ يسارع الى الاثم واهل باريس اغنياء جدا حتى ان
المتوسط منهم اغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة فلا يرضون قول الشاعر

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا * وليس بجمع المال عز ولا فخر .

بل يحرصون على الاموال ويسلكون سبيل الحرص زاعمين انه يزيد فى الارزاق

ولا

ولا يقتدون بقول الشاعر

وليس يزاد في رزق حريص ✱ ولو ركب العواصف كي يزادا

وقد يوجد بها من اهالي الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك وذلك من كمال العدل عندهم فهو المعوّل عليه في اصول سياساتهم فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار اووزير اشتهر بينهم انه تعدّى مرة وجار ولا شك أنه تأسس في خلوبهم قول الشاعر

والملك الجبار والمنيع ✱ ما عنده هاد ولا شفيع

رعية الجبار مرعى المرتب ✱ والملك العادل نصف المنصب

وهذا لا يمنع من انهم يدفعون الميري عن طيب خاطر لما انهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل انسان منهم ما هو عليه قادر فمال الميري هو قوام صورة الممالك واحسان مصرفه في استحقاقه خير مما هنالك قال الشاعر

والمال اس لقيام الصورة ✱ وخير منه صالح المشورة

ولما كانت رعيتهم رائعة كانت الدولة عندهم لها ايراد سنوي عظيم فان ايراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليونا من الفرنكات ✱ ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية انهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى انهم دونوه وجعلوه علما مندرجا من تدبير الامور الملكية ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى فمن ذلك عدم تعلقهم بالاشياء المقتضية للمصاريف فان الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما واذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره فانه يقلل اتباعه ما امكنه داخل داره وخارجه وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى الدوق درليان وهو الآن السلطان الذي هو من أعظم الفرنسيس مقاما واكثرهم غنى له من الاتباع وسائر من في طرفه من العساكر ونحوها كالبستانجية والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث ان العسكري بمصر له عدة خدم

✱(الفصل الثاني عشر في دين اهل باريس)✱

قد تقدم لنا فى الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى الكاثوليقية وقد بطل
هذا الشرط بعد الفتنة الاخيرة وهم يعترفون للبابا الذى هو ملك رومة بأنه
عظيم النصارى وكبير ملتهم وكما أن الدين الكاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية
كذلك هو دين غالب الناس عندهم وقد يوجد بباريس الملة النصرانية المسماة
البروتستانية وغيرها ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ولا وجود لمسلم
مستوطن بها وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الاطلاق ليس لهم من دين
النصرانية غير الاسم فهم داخلون فى اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم
او اوجبه او نحو ذلك ففى ايام الصيام فى باريس لا ينقطع اكل اللحم فى سائر البيوت
الا ما ندر كبعض القسوس و بيت ملك الفرنسيس القديم واما باقى اهل المدينة
فانهم يستهزؤون بذلك ولا يفعلونه ابدا و يقولون ان سائر تعبدات الاديان التى
لا نعرف حكمتها من البدع والاوهام ولا تعظم القسوس فى هذه البلاد
الا فى الكنائس عند من يذهب اليهم ولا يسأل عنهم ابدا فكأنهم ليسوا الا اعداء
للانوار والمعارف ويقال ان غالب ممالك الافرنج مثل باريس فى مادة الاديان
ثم ان مسيو دساسى لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه قولك ان
الفرنساوية ليس لهم دين البتة وانهم ليسوا نصارى الا بالاسم فيه نظر نعم ان كثيرا
من الفرنساوية خصوصا من سكان باريس ليسوا نصارى الا بالاسم فقط
لا يعتقدون اعتقادات دينهم ولا يتعبدون بعبادات النصرانية بل هم فى اعمالهم
لا يتبعون الا اهواءهم تشغلهم امور الدنيا عن ذكر الآخرة تراهم ما دامت
حياتهم لا يجهدون الا باكتساب الاموال بأى وجه كان واذا احضرهم الموت
ماتوا كالبهائم ولكن فيهم ايضا من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر
و يعمل الصالحات وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ومن العوام
والخواص بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب غير أنهم فى ورعهم وتقاهم
على مراتب شتى منهم من يشارك عامة الناس فى تصرفاتهم و يحضر معهم
فى محافل اللذات اعنى السبكاكل و البال ومجامع الاغانى ومنهم المتقشفون
المعرضون عن كل ما تشتهيه الانفس وهؤلاء أقل عددا وان دخلت كنائسنا ايام

الاعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى هذا انتهت عبارته والحامل له على ذلك كونه من ارباب الديانة وعددهم نادر لا حكم له * ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس او ببلاد النصارى القاثوليقية عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون انه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى كرسى الاعتراف فسائر من اراد أن تغفر ذنوبه يذهب الى كرسى الاعتراف فداخل باب بينه و بين القسيس حائل كالشبكة فيجلس ثم يعترف قدامه بذنوبه و يستغفره فيغفر له وقد عرف عندهم أن اكثر من يدخل الكنيسة او يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والصغار وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب

ان من يدخل الكنيسة يوما * يلق فيها جآذرا وظباء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة فاولاهم الكردينال وهو بعد البابا فى الرتبة وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون كردينالا ثم بعده المطران ثم بعده الاسقف ثم الخورى ثم نائب الخورى ثم الشماس * وعند الفرنساوية اعياد دينية متنقلة يعنى لا تقع فى يوم معين كل سنة بل هى دورية ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد الفصح * فمن اعيادهم الغريبة عيد الرفاع وقد تقدم ومنها عيد ظهور السيد المسيح و يسمى عند الفرنسيس عيد الملوك وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة وتضع فيها حبة فول فى عجينها و يقسمون الفطيرة على الندامى فكل من جاءت حبة الفول فى نصيبه فهو الملك فان جاءت فى نصيب رجل فانه يسمى باسم الملك و يخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة تخاطب ايضا بذلك الخطاب وان جاءت الفولة فى نصيب امرأة فانها ايضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها وتطلق عليه اسم الملك فيكون سائر اكرام الليلة للملك والملكة برسوم خاصة وقوانين مألوفة وهذه الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة باريس حتى فى بيت ملك الفرنسيس ومن جملة بدع القسيسين انهم يصنعون فى عيد القربان موكبا

و يلبسون فيه حللا مطرزة و يدورون المدينة بشئ يسمونه البونديو وكلمة البونديو مركبة من كلمتين الاولى بون ومعناها طيب او عظيم والثانية ديو ومعناها الاله فكأنهم يقولون ان الاله حاضر فى الجفنة التى بين ايدى القسوس والمراد عندهم بالبونديو عيسى عليه السلام والفرنساوية يعرفون أن هذه الامور من باب الهوس الذى يدنس بلادهم و يزرى بعقول اهلها غاية الامر أن العائلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الامور فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحظ والتشنيع وللقسيسين بدع لاتحصى واهل باريس يعرفون بطلانها و يهزؤن بها ولهم اعياد اخر لايسعها هذا الكتاب ثم ان لكل انسان من الفرنساوية عيدا وهو يوم مولد القديس الموافق له فى اسمه فاذا كان انسان اسمه بولص مثلا فان عيده يكون عيد مارى بولص فترى كل انسان اسمه بولص يصنع وليمة و يشهر عيده وفى عيد الانسان يهادونه بانواع الازهار

الفصل الثالث عشر فى ذكر تقدم اهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع وذكر ترتيبهم وايضاح مايتعلق بذلك

الذى يظهر لمن تأمل فى احوال العلوم والفنون الادبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة باريس أن المعارف البشرية قد انتشرت و بلغت أوجها بهذه المدينة وانه لايوجد من حكماء الافرنج من يضاهى حكماء باريس بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر ايضا غير أن صاحب النقد السديد قد يقول ان سائر الفنون العلية التى يظهر اثرها بالتجارب معرفة هؤلاء الحكماء بها تامة واتقانها عندهم لانزاع فيه كما يشهد لذلك قول بعض اجلة الحكماء الامور بتمامها والاعمال بجزاتها والصنائع باستدامتها واما اغلب العلوم والفنون النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل بالنسبة لغيرهم من الامم غير أنهم يموهونها و يقوونها حتى يظهر للانسان صدقها وصحتها كما فى علم الهيئة مثلا فانهم محققون فيه وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم باسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان والمخترعة له ومن المعلوم أن المعرفة باسرار الآلات اقوى معين على الصناعات

غير أن لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ويقيمون على ذلك ادلة يعسر على الانسان ردها وسيأتى لنا كثير من بدعهم وننبه عليها في محالها ان شاء الله تعالى وانما نقول هنا ان كتب الفلسفة باسرها محشوة بكثير من هذه البدع فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث من الخلاف الذى ذكره صاحب متن السلم في الاشتغال بعلم المنطق فحينئذ يجب على من اراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شئ من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده والا ضاع يقينه وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها

اوجد مثل باريس ديار • شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح • اما هذا وحقكم عجيب

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها فاى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان حيث انه لا التباس فيها اصلا فهى غير متشابهة واذا اراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل الفاظه ابدا فان الالفاظ مبينة بنفسها وبالجملة فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق الفاظه على قواعد اخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ويدقق في الالفاظ ما امكن ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها واما كتب الفرنسيس فلا شئ من ذلك فيها فليس لكتبها شراح ولا حواشى الا نادرا وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه فالمتون وحدها من اول وهلة كافية في افهام مدلولها فاذا شرع الانسان في مطالعة كتاب في اى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير معاكسة الالفاظ فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن انتاجه منها واما غير ذلك فهو ضياع مثلا اذا اراد انسان أن يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الاعداد من غير أن

بنظر الى اعراب العبارات واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة للتجنيس وقد خلت عنه وان المصنف قدم كذا ولو اخره كان اولى وانه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس احسن ونحو ذلك ثم ان الفرنسيس يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف و يتشوقون الى معرفة سائر الاشياء فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة متنوعة اجمالا لسائر الاشياء فليس غريبا عنها حتى انك اذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ولو لم يكن منهم فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون و ينازعون فى بعض مسائل علمية عويصة وكذلك اطفالهم فانهم بارعون الغاية من صغرهم فالواحد منهم كما قال الشاعر

عشق المعالى الغر وهو مراهق * وافتض ابكار الفنون وليدا

فانك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا فيجيبك بدلا عن قوله لا اعرف اصل هذا الشئ بما معناه الحكم على الشئ فرع عن تصوره ونحو ذلك فاولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ولهم تربية عظامية وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق والعادة انهم يزوجون اولادهم قبل تمام تعلمهم وهذا يكون غالبا فى عشرين الى خمس وعشرين سنة فقل منهم من كان فى سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس او يتعلم صنعته التى يريد تعلمها غيرانه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن وهذا السن فى الغالب يظهر به براعة الانسان وحسن طالعته كما قال الشاعر

اذا ما اول انقطى الخطا * فمارجى لآخره انتصار

اذا جاز الفتى عشرين عاما * وما بلغ المراد فذاك عار

فكان هذا السن عند سائر الامم من انتهاء النجابة فانظر الى الاخضرى فانه فى سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها وكذلك العلامة الامير فانه فى دون العشرين بيسير صنف مجموعه فتورك على قول الاخضرى

ولبنى احدى وعشرين سنه * معذرة مقبولة مستحسنه

بانه وهو فى دون ذلك السن الفى فى اصعب من ذلك المقام وما قلناه بالنسبة
لارباب المعارف من الافرنج واما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما
عدة امور واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص وكشفهم كثيرا من الاشياء
وتجديدهم فوآئد غير مسبوقين بها فان هذه عندهم هى اوصاف العالم وليس
عندهم كل مدرس عالما ولا كل مؤلف علامة بل لا بد من كونه بتلك الاوصاف
ولا بد له من درجات معلومة فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقاء
ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس لان القسوس انما هم علماء فى الدين
فقط وقد يوجد من القسوس من هو عالم ايضا واما من يطلق عليه اسم العالم فهو
من له معرفة فى العلوم العقلية التى من جملتها علم الاحكام والسياسات ومعرفة
العلماء فى فروع الديانة النصرانية هينة جدا فاذا قيل فى فرانسا هذا الانسان عالم
لا يفهم منه انه عالم فى دينه بل انه يعرف علما من العلوم الاخر وسيظهر لك فضل
هؤلاء النصارى فى العلوم عن عداهم وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها
وان الجامع الازهر المعمور بمصر القاهرة وجامع بنى امية بالشام وجامع الزيتونة
بتونس وجامع القرويين بفاس ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة
بالعلوم النقلية وبعض العقلية كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم
الآلية والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم فهى دآئما فى الزيادة فانها
لا تمضى سنة الا ويكشفون شيأ جديدا فانهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون
جديدة او صناعات جديدة او وسايط او تكميلات وستعرف بعض هذا ان
شاء الله تعالى ومما يستغرب أن فى رجال العسكرية منهم من طباعه توافق
طباع العرب العرباء فى شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة وشدة العشق الدالة
ظاهرا على ضعف العقل ومزاجهم كالعرب فى الغزل بالاشعار الحربية فقد
رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعرآء العرب مخاطبا لمحبوبته بقوله

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى • والنقع ليل والاسنة انجم
فحسبته عرسا ونحن بروضه • وانا وانت بظله نتنعم

وقول الآخر

ولقد ذكرتك والرماح نواهل * مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها * برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم

لا اكره الطعنة النجلاء قد شفعت * برشقة من نبال الاعين النجل
ولا اهاب صفاح البيض تسعدني * باللمح من خلل الاستار في الكلل
ولا اخل بغزلان تغازلني * ولو دهتني اسود الغيل في الغيل

ولنذكر لك مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ونحو ذلك لتعرف به مزية الافرنج على غيرهم فمن خزائن الكتب الخزانة السلطانية وفيها سائر ما امكن الفرنساوية تحصيله من الكتب في اي علم كان باي لغة كانت مطبوعة او منسوخة وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة اربعمائة الف مجلد وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التي يندر وجودها بمصر او بغيرها وفيها عدة مصاحف لا نظير لها ابدا فان المصاحف التي عند الفرنساوية في خزائنهم غير مهانة بل هي مصونة غاية الصون وان كان عدم اهانتها حاصلا غير مقصود غير ان الضرر في كونهم يسلمونها لمن يريد ان يقرأ القرآن منهم او يترجمه او نحو ذلك وتوجد المصاحف للبيع في مدينة باريس وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التي اختارها للترجمة ثم ترجمها وضم اليها قواعد الاسلام وبعض شعبه وقال في كتابه انه يظهر له ان دين الاسلام هو اصح الاديان وانه مشتمل على ما لا يوجد في غيره من الاديان ومن خزائن الكتب الخزانة المسماة خزانة مسيو وتسمى خزانة الارسنال ومعنى ارسنال ترسانة وهي اعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية وبها نحو مائتي الف مجلد مطبوعة وعشرة آلاف منسوخة واغلب هذه الكتب كتب تاريخ واشعار خصوصا الاشعار الايطاليانية ومنها خزانة مزارينه وفيها خمسة وتسعون الف مجلد مطبوعة واربعة آلاف منسوخة ومنها خزانة الانسطيطوت اي دار العلوم وفيها خمسون الف مجلد ومنها خزانة المدينة وهي نحو ستة عشر الف مجلد وهي دائما في الزيادة وكتبها آداب ومنها خزانة بستان النباتات وفيها عشرة آلاف مجلد في العلوم

الطبيعيات وفيها خزانة الرصد السلطاني وفيها كتب علم الهيئة ومنها خزانة
مكتب الحكمة ومنها خزانة اكدمة الفرنسيس وهي خمسة وثلاثون الف مجلد
وكل هذه خزائن موقوفة وهنالك خزائن ملوكية وهي كثيرة جدا فمنها ما يشتمل
على خمسين الف مجلد ومنها الدولة نحو ار بعين خزانة فاقل ما يوجد في كل خزانة
منها ثلاثة آلاف مجلد واكثرها في الغالب خمسون الف مجلد وقد تنيف عن
ذلك ولا حاجة لتسميتها هنا ولكل انسان من العلماء والطلبة والاغنياء خزانة
كتب على قدر حاله ويندر وجود انسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه
شيء من الكتب لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة وسائر بيوت الاعيان
فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب وعلى آلات العلوم وادواتها وعلى التحف
الغريبة التي تتعلق بالفنون كالاحجار التي يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك ففي
باريس كثير من الخزائن التي يقال لها خزائن المستغربات فيوجد بها ما تتشوق
اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص في الطبيعيات كالمعادن والاحجار
والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة وسائر المواليد من الاحجار
والنباتات وسائر الاشياء التي فيها آثار القدماء وتعلق هذه الاشياء بالعلوم أن
الانسان يدرس ما يراه في الكتب ويقابله فان رأى في كتاب تعريف حجر كذا
وحيوان كذا وكان الحجر او الحيوان نصب عينه قابله مع الاوصاف المذكورة
في الكتب وانفع الاشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة باريس البستان السلطاني
المسمى ببستان النباتات وفيه سائر ما يعرفه البشر من الامور الخارجة من
الارض الغريبة ويزرع بارضه سائر النباتات الاهلية التي يعالجون تطبيعها
عندهم بقوة الصناعة والحكمة فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم
ويقابلون ما في الكتاب على ما يرونه ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش
يضعونه في نحو ورقة ويكتبون اسمه وخاصيته وفيه ايضا سائر مراتب
الحيوانات الحية غريبة او اهلية برية او وحشية فيوجد بها نحو الدب الابيض
والاسود والسبع والضبع والنمورة والسنانير الغريبة والايل والجواميس وغنم
بلاد التبت وزرافة سنار وفيلة الهند وغزلان البر والايل وبقر الوحش وانواع

القردة والثعالب وسائر انواع الطيور المعروفة لهم وسائر هذه الحيوانات التى
تراها حية بهذا البستان تراها ميتة ايضا محشوة بالتبن يراها الانسان على صورة
الحية كبقر البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادى مصر ويوجد فى هذا البستان
اروقة مملوءة بالمعادن النفيسة وسائر الاحجار سواء كانت غشية او طبيعية فترى
فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر اجناسها وانواعها واصنافها ففيها كثير
من الاشياء التى لا يمكن أن تجد لها اسماء عربية كحيوانات بلاد امريكة اونباتها
واحجارها وكل هذه الاشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة او الانموذج من كل
شئ ومكتوب على كل شئ اسمه باللغة الفرنساوية او اللاطينية مثلا فى القاعة
التى فيها سبع مكتوب عليها اسم السبع باللغة الفرنساوية وهو ليون وهكذا
ومما وقع فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد مرض فدخل حارسه
ومعه كلب فقرب الكلب من الاسد ولحس بجرحه فبرئ الجرح فحصلت الالفة
بين الاسد والكلب ودخلت محبة الكلب فى قلب الاسد فصار الكلب يتردد دائما
على الاسد ويتلق اليه ويراه كأنه من اصحابه فلما مات الكلب مرض الاسد
لفرقته فوضعوا معه كلبا آخر امتحانا لطبعه فتسلى به عن الميت ولا زال معه وفى
بستان النبات رواق يسمى رواق التشريح وفيه جميع الموامى اى الجثث المحنطة
المصرية ونحوها من الجثث ويوجد بهذا الرواق بعض شئ من جثة المرحوم
الشيخ سليمان الحلبى الذى استشهد بقتله للجنرال الفرنساوى كليبر وقتل
الفرنساوية له فى ايام تغلبهم على مصر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم
ومن محال العلوم الفلكية الرصد السلطانى بمدينة باريس وهو من اغرب
المراصد الموجودة على ظهر الدنيا وذلك انه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول
الحديد او الخشب فى مادته وهو على شكل مسدس الاسطحة المتوازية القائمة
الزوايا موجه الضلوع الاربعة الى الجهات الاربع الشرق والغرب والشمال
والجنوب وفى طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتى الزوايا وفى طرف الجهة
الشمالية صومعة ثالثة مربعة وهى باب الرصد وفيه رسم الفرنسيس فى رواق
فى الدور الاول خط نصف نهارهم فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين

فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول فينسبون اليه غيره من الاماكن المقارنة له فى السمت وقد اسلفنا ذلك موضحا فى الفصل الاول من المقالة الثانية وارتفاعه وسطحه ثلاثة وثمانون قدما فوق الارض وهو منقسم الى عدة اروقة مناسبة لحاجة اشغال الفلك فمن هذه الاروقة ستة لها مخارق مفتوحة قطر كل مخرق ثلاثة اقدام وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ويعين فيها على ما يحتاج الى رصده فترى منها النجوم وانت فى المخادع التى تحت الارض وفى هذه الاروقة امتحنوا ثقل الاجسام الطبيعية وميزان الهواء وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات وعلى قلته آلة تعديل الرياح المسماة الانيمومتر بها تقاس قوة الرياح وفيها طشت يسمى ودن العيار يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة ومخادع هذا الرصد هى داخلة فى الارض التى عمقها يساوى سمك حيطان الرصد والى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران والانعطاف كدرج المنارة وعدة درجها ثلثمائة وستون ووظيفة هذه المخادع انها قد تفيد الطبائعية والكيماوية أن يصنعوا بها تجاربهم بأن يجمدوا فيها المائعات ويبردوا بها الاجسام ليعرفوا امزاج الاهوية وفيها رواق يسمى رواق المناجاة اورواق الاسرار وذلك أن فيه امرا عجيبا من قرع الصوت للاذن اى وصوله بالهواء اليها وذلك أن بالرواق عودا يقابله عود آخر فاذا وضع الانسان فمه على العمود وأسر بكلام فانه يسمعه الانسان الذى بالعمود الآخر ولا يسمعه من يقرب منه وهذه الامور يفهمها من له المام بخاصية الصوت ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له الكنسرواتوار بضم الكاف وسكون النون وكسر السين وسكون الراء وفتح الواو وسكون التاء كلمة فرنساوية معناها المخزن او الحفظ او نحو ذلك وفى هذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها خصوصا الآلات الهندسية كآلات الحيل وتحريك الاثقال ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص رد عجيب ثم انه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة يعنى علم الطب ولهم فيها

مدارس كثيرة ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول ان العلماء فى مدينة
باريس لهم مجامع عظيمة تسمى باسماء مختلفة فمنها مايسمى اكدمة ومنها مايسمى
مجمعا او مجلسا والانسطيطوت عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع
الاكدمات اى المجالس الخمس وهى اكدمية اللغة الفرنساوية واكدمية
العلوم الادبية ومعرفة الاخبار والآثار واكدمية العلوم الطبيعية والهندسية
واكدمية الصنائع الظريفة واكدمية الفلسفة وقولنا اكدمية او اكدمة او
اقدمة هو لفظ مأخوذ من اسم مكان فى مدينة اثينا كان افلاطون الحكيم يعلم
فيه تلاميذه ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء الاكدميون وكان يقال
لهذا المكان اكدمية لان صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه اكدمس وقد جعل
هذا المكان وقفا لاهل مدينة اثينا وصيروه بستانا يتماشون فيه ويتفرجون
فكان يدرس فيه افلاطون ومنه قيل لجماعة افلاطون اكدميون ويقال
لهم افلاطونيون وهم مشهورون ايضا فى كتب العربية بالاشراقيين بالقاف
والفاء ويقال لهم ايضا الالهيون ويطلق اكدميون الآن عند الفرنساوية
فيفهم منه بمجرد اطلاقه اهل اكدمة الفرنسيس وهم كبار علماء الفرنساوية فاذا
قيد فالمعنى ظاهر كما اذا قيل اكدمة مصر فالمراد بها الجامع الازهر لان المراد به
ديوان اكابر علماء مصر فاول علماء باريس بل وعلماء فرانسا ديوان العلوم المسمى
اكدمة الفرنسيس واهلها اربعون عالما كل واحد من الاربعين يسمى عضوا
يعنى ان هذا الديوان بارباته كالبدن وكل واحد كالعضو منه وفى الغالب أن
ارباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية ووظيفتهم
تأليف القواميس الفرنساوية وانهم يمتحنون مؤلفات العلوم الادبية وكتب
التاريخ وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية فى العلوم وصلح
لان يكون من ارباب هذه الاكدمة بل واحد من ارباها مات وكان هذا
العالم كثير المجون فتوقفوا فى قبوله فى هذا الديوان فما كانت حيلته الا انه
كان دائما يعترض بهجو اهلها فن نوادره وقايعه انه مر ذات يوم ومعه بعض
اصحابه على هذه الاكدمة فتحدث مع اصحابه فتذاكروا فى فضل علماء اكدمة

فقال لاشك أن عقول ارباب هذا الديوان كعقل اربعة يشير بذلك الى بعض الامثلة الفرنساوية من قولهم فى مدح الانسان ان له عقلا كعقل اربعة ومشيرا الى ان عقل كل عشرة منهم كعقل واحد فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك ومن نوادره انه كتب قبل موته كعادة الفرنساوية على رخامة قبره المهيء له بيت شعر باللسان الفرنساوى يقول فيه ما معناه بالعربية

هاقبر من لم يك شيأ ابيه • كلا ولا من علما اكدمه

ومعناه هذا قبر من لم يصل الى درجة ابا ما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة فى الحقارة درجة هؤلاء العلماء وهنالك اكدمة تسمى اكدمة تقييد الفنون الادبية واهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا ووظيفتها الاشتغال بالالسن النافعة وبآثار القدماء خصوصا بالمبانى القريبة وبالعلوم الادبية وبعوايد الامم واخلاقها وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت عنه مما هو فى كتب علوم اللغات الغريبة كاللاطينية والعربية والفارسية والهندية والصينية واليونانية والعبرانية والقبطية وغيرها ومن الاكدمات الاكدمة المسماة اكدمة العلوم السلطانية واهلها منقسمون احد عشر قسما لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثنى عشر فرعا فاهل القسم الاول يشتغلون بالرياضيات كالهندسة والحساب واهل القسم الثانى بعلوم الحيل كعلم جر الاثقال ونحوه والثالث بالعلوم الفلكية والرابع بالعلوم الجغرافية والعلوم التجريبية والخامس بعلم الطبيعة العامة والسادس بالطبيعة والسابع بعلم المعادن والاحجار والثامن بعلم الحشائش والتاسع بتدبير مصاريف الارض والعاشر بتطبيب الدواب والحادى عشر بالتشريح والثانى عشر بفن الطب والجراحة ومنها الاكدمة السلطانية المسماة اكدمة مستظرفات الفنون وهى خمسة فروع الاول فن الرسم الثانى فن النقاشة الثالث فن العمارات الرابع فن النقاشة الخامس فن تركيب حروف الموسيقى ومنها مكتب الفنون الظريفة وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه وفيه يتعلم الرسم والنقاشة والعمارة ومن مجالس العلوم جمعية تسمى اثينة الفنون وهى تعين على تقدم الفنون والصنائع وهى

كالمكم الذى ينفذ الاشياء ويقضى فيها برأيه ومنها الابنة باريس السلطانية وهى
محل علوم وفنون ولا يكون فيها الانسان المتعلم الا اذا دفع شيأ يسيرا كل سنة
والمدرسون فيها ارباب فضل ومنها جمعية تسمى الجمعية الفيلوماتية ومعناه محبو
العلوم والغرض من هذه الجمعية الاعانة على التقدم فى علوم التولدات وهى
مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن ومنها جمعية تشتغل بعلوم الانشاء
والبلاغات والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الادبية وحفظ غريبها
حتى لا تفسد لغة الفرنسيس واذا اخترع الانسان معنى غريبا او اجاب عن
سؤال غريب او قال شعرا مقبولا فانهم يعطونه جائزة ذلك ومنها جمعية تسمى
حسن الدروس ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليقية والدين القاثوليقى ومنها
جمعية تسمى اكدمة ابا ابولون يعنى الادباء وهى مجلس ارباب الفنون الادبية
ومنها جمعية تسمى الجمعية الآسياتية يعنى فى لغات اهل آسيا واللغات المشرقية
ووظيفتها تحصيل كتبها الغريبة وترجمتها الى الفرنساوية او طبعها للتشهير ومنها
جمعية تسمى الجمعية الجغرافية وهى معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا فهى
تقوى الناس على السفر الى البلاد المجهولة الاحوال فاذا سافر فيها انسان ورجع
يطلبون منه سائر ما علقه عليها فتأخذ ما علقه وتقيده وتدخله فى كتب
الجغرافية ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ فى الكمال وبالجملة
فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا كطبع الخرطات ونحوها
ومنها الجمعية الغرماتيقية يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية فان علم النحو
يسمى فى اللسان الفرنساوى الاغرمير وباللاطينية والايطاليانية اغرماتيقا
ووظيفة هذه الجمعية الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات او ابقاء
الاصطلاحات القديمة لان اللسان الفرنساوى لسان غير فاز القواعد كتابة
وقراءة ومنها جمعية تسمى جمعية المولعين بالكتب الخزآنية ووظيفة اهل هذه
الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة ومنها جمعية الخطاطين واهلها
يشتغلون باجادة الخط ومنها جمعية تسمى جمعية المغناطيسية الحيوانية وهى
جماعة تقول بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان ومنها جمعية حفظة آثار

القدما

القدماء وهي جمعية معدة لحفظ ما ترما يوجد من الآثار الباهرة عند القدماء كبعض مبانيهم وموميائهم وملبسهم ونحو ذلك والبحث عن ذلك ليتوصل به الى دراية عوايدهم ففي ذلك يوجد كثير من الامور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من دندره فان الفرنساوية يتوصلون به الى معرفة الفلك على مذهب قدماء اهل مصر فان مثل ذلك يأخذونه بغير شيء الا انهم يعرفون مقامه فيحفظونه ويستخرجون منه نتائج شتى ومنافع علمية * ومنها مكتبة تسمى مكتبة الاطوال واهلها اثناعشر ثلاثة مهندسون واربعة فلكيون واربعة بحرية وواحد جغرافي فيشتغلون بعلم الهيئة وتأليف الزنامات السنوية وتحرير الزيجات وذكر اطوال البلاد ومنها الجمعية السلطانية في علوم الفلاحة وتحرير وتوفير المصاريف البرانية والجوانية واهل هذه علماء اعتنوا وهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيأ جديدا نافعا * ومنها جمعية لتحسين الاصواف ووظيفة اهلها مباشرة ما يتعلق بالغنم ومنها جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة في الفنون والصنائع وهي تعين الصنائع بسائر انواعها على التقدم فاذا اقترح انسان شيأ نافعا اخذ من اهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة * وفي باريس مدارس سلطانية تسمى الكوليج بضم الكاف وفتح اللام وسكون الياء وهي مدارس يتعلم فيها الانسان العلوم المهمة التي تكون وسائل في الامور المقصودة منها وهي خمسة كوليجات يدرس فيها صناعة الانشاء والتأليف والالسن القديمة الغريبة والعلوم الرياضيات وعلم التاريخ والجغرافيا والفلسفة واصول الطبيعيات يعني كتبها الصغيرة وعلم الرسم وعلم الخط وفيها مراتب للطلبة فان الانسان يسلك فيها في العادة مرتبة كل سنة ففي كل سنة من ست سنين يخرج الانسان من مرتبة الى اعلى فهي بالترقي لا بقوة الفهم ولا بغيره فلا يمكن للانسان أن يتعدى ابدا * وهنالك كوليجان آخران غير سلطانيين وفيهما يدرس ما يوجد في الكوليجات الخمسة السابقة وفيها كوليج آخر يسمى كوليج الفرنساوية السلطاني وهو اعظمها جميعا فيتعلم فيه الرياضيات والطبيعة المخلوطة بالحساب والطبيعة العملية والهيئة والطب

والتشريح العملي ان وفيه تعلم اللغات كالعربية والفارسية والتركية والعبرانية والسريانية والهندسة ولغة أهل الصين وعلومهم ولغة التتار والحكمة اليونانية التي هي فلسفة اليونان وعلم الفصاحة والبلاغة في اللسان اللاطيني وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية وهذا الكوليج يشتمل على أكابر المدرسين وفيه ستة آلاف طالب ومن أشهر المدارس مدرسة بوليتقنيقا بضم الباء وكسر اللام وسكون الياء والقاف وكسر التاء والنون وسكون الياء يعني مدرسة كليات العلوم وفيه يدرس الرياضيات والطبيعيات لتربية مهندسين في علم الجغرافيا وفي العسكرية فمهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والارصفة والطرق والجسور والخلجان وكل آلات الحيل ورفع الاثقال واما مهندسو العلوم العسكرية فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج والتوقي من ضرر الاعداء واتخاذ العراضي وهندسة تسييب البارود وأرباب هذه المدرسة محققون لهم باع في سائر العلوم ويكفي في فضل الانسان أن يكون من تلامذتها ومنها مكتب يسمى مكتب الفروع الفقهية فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها ٭ ومنها مكتب موقوف على تعليم علم الرسم فيدرس فيه الذكور والاناث علم التصوير ٭ ومنها مكتب الغناء السلطاني فيتعلم فيه ايضا الذكور والاناث علم الالحان الصوتية والغنا الكنائسي ٭ ومنها مكتب موقوف ايضا على الرسم والرياضيات لتكون وسائل للفنون فيتعلم فيه الحساب والهندسة والقياس ونحاتة الحجر والخشب وعلم المساحة وتصوير البهيمة والادمي والازهار وانواع الزينة ٭ ومنها مكتب القناطر والجسور وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والارصفة ٭ ومنها مكتب سلطاني لتعلم علم المعادن وفيه يتعلم وسايط كشف المعادن واستخراجها ٭ ومنها مدرسة الفنون والحرف يتعلم فيها علم الكيميا والهندسة الداخلان في الحرف والفنون وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة الى هذا العصر ٭ ومنها مكتب يسمى مكتب اللغات المشرقية المستعملة وفيه يتعلم الفارسي والملايري والعربية الاصلية والدارجة ولغة الترك والارمن والروم ومنها مكتب يسمى مكتب الارليغولوغي بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر

اللام وسكون الباء وضم الغين واللام وكسر الغين الاخيرة بمعنى تفسير الكلمات
المكتوبة من قديم الزمان فى اللغات القديمة فيفسرون فيه النقود والمعاملات
المكتوبة فى الازمنة السالفة والاحجار المنقوشة وترجمة الهيا كل القديمة
المكتوبة * ومنها مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ونحو ذلك *
ومنها مكتب سلطانى الموسيقى والانشاء والخطابة وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء
والا لاتية من الذكور والاناث وأهل التعازيه أربعمائة نفس * ومنها مدرسة
بستان السلطان التى هى بستان النباتات وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة
فروع كعلم الحشائش والطبيعيات والكيميا والمعادن والتشريح والمقابلة بين
اجزاء بدن الآدمى والبهيمة * وفيها مكتب يسمى مكتب البستنجية وفيه يتعلم علم
زراعة الشجر وحفظه من البرد وتطبيع النباتات الغريبة المنقولة على اقليم المحل
الذى نقلت اليه * ومنها مكتب تعليم الاشجار غير المثمرة لاخراج ثمرها * ومنها
مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر فى بلاد ليميز نباتها ومعدنها ومنها
مكتب يسمى طب البهائم وفيه يتعلم تطبيب البهائم وفيه مارستانات للحيوانات
المريضة وفيه مدرسة كيميا ومدرسة لعلم الطبيعة وفيه العقاقير وبستان
حشائش ومكتب للفلاحة العملية وجملة اجناس من البهائم معدة لتجربة
اختلاف اصناف البهائم واصولها فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف
آخر كحصان عربى على جحرة اندلسية ليتولد منهما صنف آخر * ومنها مكتب الصم
البكم وهو موقوف على مائة نفس ويدخلون فيه من احدى عشرة الى ستة عشر
فيتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب واللسان والتاريخ والجغرافيا وصنعة
من الصنائع وفى هذا المكتب ورشة يتعلم فيها علم الطباخة والنقاشة والنجارة
والخراطة والخياطة والصرماتية ونحوها * ومنها مكتب العميان السلطانى وهو
موقوف على جملة محصورة من العميان فيتعلمون القراءة على شئ مكتوب لهم
كتابة مخصوصة فيمسونها باليد ويتعلمون ايضا علم الجغرافيا على خرطات
مخصوصة ايضا ويتعلمون التاريخ واللغات والرياضيات والموسيقى بالصوت
وبالآلة وغير ذلك من الحرف كشغل الجرابات ونحوه * وغير ما ذكرنا يوجد ايضا

عند تمدارس * ويوجد في باريس ايضا مكاتب تسمى البنسيونات جمع بنسيون بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة التحتية وسكون الواو وهي مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة وغيرها كالتاريخ والجغرافيا وهي نحو مائة وخمسين بنسيونا وفيها اكل الانسان وشربه ونومه وغسل ثيابه ونحو ذلك فيدفع اهالي الاولاد قدرا معلوما في السنة * وغير البنسيونات المذكورة توجد بيوت يكون صاحبها عالما فيأخذ عنده عدة اولاد ليأكلوا معه ويشربوا معه ويعلمهم بنفسه او يحضر اليهم معلمين عنده * وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لاولاده المعلم في البيت كل يوم ليعلمهم عنده * ومن الاشياء التي يستفيد منها الانسان كثير الفوائد الشاردة التذاكر اليومية المسماة الجرنالات جمع جرنال وهو يجمع في اللغة الفرنساوية على جرنو وهي ورقات تطبع كل يوم وتذكر كل ما وصل اليهم علمه في ذلك اليوم وتنشر في المدينة وتباع لسائر الناس وسائر اكابر باريس يرتبونها كل يوم وكذلك سائر القهاوي وهذه الجرنالات مأذون فيها السائر أهل فرانسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا او قبيحا وأن تقول رأيها في تدبير الدولة فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك فانه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي * والجرنو عصب فكل جماعة لها في رأيها مذهب كل يوم تقويه وتحاميه وتؤيده ولا يوجد في الدنيا أكذب من الجرنالات ابدا خصوصا عند الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب الا من حيث كونه عيبا * وبالجملة فكتاب الجرنو أسوء حالا من الشعراء عند تحاملهم او محبتهم * والجرنالات مختلفة الانواع والاصناف فمنها ما هو معد لذكر اخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها * ومنها ما هو مخصوص بامور المملكة فقط وما هو للمعاملات وما هو للطب ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره * والجرنال الواحد تطبع منه غالبا المبيع خمسة وعشرون ألف نسخة وكل جرنال تكثر نسخه على حسب رغبة الناس وارباب الجرنو يعرفون الاخبار الغريبة قبل غيرهم لان لهم مراسلات مع سائر البلاد وهم في الواقع كخطباء الامة يتعرضون للمدح والذم

والاستحسان والاستقباح والتحسين والتقبيح والاغراء والتحذير الى غير ذلك وتبيلهم في ذلك المؤلفون وربما اتخذ المؤلفون خطابات ارباب الكازيطات مادة لهم واعلى درجة منهم ارباب الخطابات بالجمعيات العمومية الذينهم من اعضاء المجالس وهم اعلى طبقة في الاعتبار من الشعراء فاذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب في قديم الزمان فقد قال ابو عمرو بن العلا ما نصه كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذلك قال الاول الشعر أدنى مروءة السري واسرى مروءة الدني ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني ولو كان في الدهر الاول ما زاده الا رفعة * ومن جملة علوم باريس الدفاتر السنوية والتقويمات الجديدة والزيجات المصححة ونحو ذلك فكل سنة يظهر فيها كثير من الروزنامات المشتملة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون وعلى كثير من امور الدولة وعلى تسمية اكابر الدنيا وتسمية اعيان فرانسا وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم فاذا احتاج الانسان الى اسم واحد والى بيته راجع في ذلك الكتاب * وفي باريس اوض القراءة او خلوات القراءة فيذهب الانسان فيها ويدفع قدرا معلوما ويقرأ سائر الجرنالات وغيرها من الكتب ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب فانها من التجارات الرابحة مع كثرتها وكثرة المطابع وكثرة التآليف التي تطبع كل سنة فانها يعسر حصرها واغلبها المقصود منه الكسب لا النفع ولا تمر سنة بمدينة باريس الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير واعتناؤهم بالمعارف هو احسن ما ينبغي أن يمدحوا به قال الشاعر

اذا شئت ان تحظى من الكتب كلها * باطيب مروي واحسن مسموع

فطالع مجاميع الدفاتر انها ٭ تفرق عن هم الفتى كل مجموع

وقال آخر

اجعل جليسك دفترا فى نشره ٭ لتريك من حكم الزمان نشورا

ومفيد آداب ومؤنس وحشة ٭ واذا انفردت فصاحبا وسميرا

وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة باريس مع تفصيل علومها وفنونها الا انه يمكن التعبير عن ذلك اجمالا كما ذكرناه

المقالة الرابعة فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض ولى النعم وفى تدبير اشتغال الزمن فى القراءة والكتابة وغيرهما وفى المصاريف الواسعة الخارجة من طرف صاحب السعادة وفى عدة مراسلات بينى وبين بعض خواص الافرنج تتعلق بالتعلم وفى ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة باريس ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلا وانه لابد لطالب المعارف من اقتحام الاخطار لبلوغ الاوطار فى تلك الاقطار قال الشاعر

دعينى أنل مالا ينال من العلا ٭ فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين ادراك المعالى رخيصة ٭ ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وقال آخر وهو من الكلام الجامع

من كان يعلم أن الشهد راحته ٭ فلا يخاف للدغ النحل من ألم

وقال آخر ايضا

ان الفضائل بالاخطار مولعة ٭ فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا

وان أراك الهوى منه الهوان فقل ٭ حكم المنية فى حب الحبيب بنا

الفصل الاول فيما حصل لنا فى أول الامر من الترتيب فى القراءة والكتابة وغيرهما من عادة أهل باريس انهم فى التعلم يبتدئون بتعليم الانسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف لترسم صورها فى ذهنه وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الاسماء والافعال فبهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها

كما يقبلني سنتى به ح لغته من صغره صادقة الجودة ثم بعد ما تلقى فى هذه الكتب
عدة جمل سهلة النطق تناسب الصغار من هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى
قرأناه وهذه فرس لها أربع ارجل والطيور ليس لها الا رجلان لكن لها
أجنحة تطير بها واما السمك فانه يسبح فى الماء ونحو ذلك مما هو معلوم
للمخاطب فهو مثل قول النحاة السماء فوقنا والارض تحتنا الممثل به لما لم يفد
فائدة جديدة على اختلاف تفسير الوضع فى قولهم الكلام هو اللفظ المركب
المفيد بالوضع ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب اوصاف الحيوانات المعروفة
خصوصا التى تتعلق الصغار باللعب بها كالعصافير والطيور والسنانير ونحو
ذلك ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار وطاعتهم للوالدين
ونحو ذلك ثم نبذة فى علم الحساب فبعد فراغ هذا الكتاب يبدؤن فى قراءة كتاب
أهم منه وفى كتاب النحو الفرنساوى وغيره وتقسيم الزمن على دروس الانسان
فان الانسان يتعلم فى النهار عدة امور مختلفة فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ
ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ثم بعده درس النحو الفرنساوى ثم بعده
درس تقويم البلدان ودرس مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة الى اخره وقد
أسلفنا ذلك ولما كانت آمال ولى النعم متعلقة بتعلمنا عاجلا ورجوعنا
الى أوطاننا ابتدأنا فى مرسليا قبل وصولنا الى باريس وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما
التهجى ثم لما ذهبنا الى باريس مكثنا جميعا فى بيت واحد وابتدأنا فى القراءة
فكانت اشغالنا مرتبة على هذا الترتيب وهو انا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ
ساعتين ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية
ثم بعد الظهر درس رسم ثم درس نحو فرنساوى وفى كل جمعة ثلاثة دروس من
على الحساب والهندسة وفى مبدأ الامر كنا نأخذ فى الخط درسين يعنى فى معرفة
الكتابة الفرنساوية ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ثم انتهى الامر الى اننا تعلمنا
الخط فانقطع عنا معلم الخط واما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم
نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا الرجوع وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد
دون سنة نقرأ معانى اللغة الفرنساوية وفى هذه الفنون المتقدمة ولكن

لم يحصل لنا عظيم مزية الا بمجرد تعلم النحو الفرنساوى ثم بعد ذلك تفرقنا
فى مكاتب متعددة كل اثنين او ثلاثة او واحد منا فى مكتب مع اولاد الفرنساوية
او فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الاكل
والشرب والسكنى والتعليم وتعهد امورنا من غسل ونحوه فكان يأخذ
صاحب المكتب او البيت نحو عشرة اكياس كل سنة فى نظير ذلك ولا يلزمنا شئ
فى المأكل والمشرب * ولما كانت طباع هذه البلاد شديدة البرودة كان لكل
واحد منا فى كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها وغير هذه المصاريف
العظيمة كان يشترى لنا من طرف الميرى ايضا القمصان والسراويل والنعال
وسائر ما يلزم من الآلات والادوات مثل الكتب والورق والحبر وأقلام
التصوير وغيرها ومما ينبغى ذكره ايضا ما كان يعطى للحكماء والاجزاجية
فى مداواة من كان يمرض منا فان الحكماء بباريس مع كثرتهم غاية الكثرة
يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا لموقع على اختلاف مراتبهم
فى الشهرة وعدمها ويتعدد القدر بتعدد الزيادة وهذا ان لم يكن للحكيم سنوية
معلومة وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب وتعهدهم للصحة
فاقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاثة فرنكات
والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات والحكيم الجليل القدر
يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد
تعدد القدر واما بالنسبة للمعدم فقدلا يأخذون منه شيأ ونحن نعد هنالك
من الموسرين بل من الاغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ولنسبتنا
لولى النعم * ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر
التعليم او الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الاوقات لنجتهد وسترى بعض ذلك
فى مراسلات كتبها الى بعد الامتحان العام

(الفصل الثانى فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا الا يوم الاحد الذى
هو عيد الافرنج بورقة اذن للبواب من الضابط الذى نظره علينا ولى النعم ثم بعد

تفرّقنا فى المكاتب المسماة البنسيونات كما تخرج ايام البطالة وهى يوم الاحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس وايام اعياد الفرنساوية ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشا ان لم يكن له درس بعده ولنذكر لك هنا قانون نامة الذى صنعه الافندية بعد دخولنا فى البنسيونات وعبارته هذه صورة ترتيب الافندية فى البنسيونات * المادّة الاولى أن يوم الاحد المقرّر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة التاسعة ويأتوا الى البيت المركز من اوّل الامر ويقدّموا وقت الدخول ورقة معلّمهم الى الافندى النوبتجى فى هذا الشهر لاجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدّة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة اواربعة ثم يرجعون الى البنسيونات فى ايام الصيف فى الساعة التاسعة * وفى ايام الشتاء فى الثامنة وهذا الترتيب لازم ولابدّ فان رجع احد الى البنسيون قبل ذلك وتعشى هنالك فهو اولى واحسن ومن اللوازم أن لايدور واحد فى الازقة ليلا ومتى دخل فى البنسيونات يعطى الورقة المذكورة للمعلم * المادّة الثانية أن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضا جمعة اوجمعتين * المادّة الثالثة ان كل من له شكاية من معلمه لاتسمع ولاتقبل حتى يكتبها فى ورقة ولاتسمع الامن جهة التعليم اومن جهة اخرى يحصل له منها ضرر ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرّة ثم يكتبها للنوبتجى فى هذا الشهر * المادّة الرابعة أن جميع الافندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ماحصلوه من العلوم فى هذا الشهر ويسئلون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وافعالهم على الصحيح ولاجل هذا ينبغى التفكر فى هذا بالخصوص لاجل تحصيل غرض حضرة ولى النعم * المادّة الخامسة لو احتاجوا شيأ من الكتب والآلات فى اثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار فان رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى فان اشترى احد شيأ من غير اجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده * المادّة السادسة أنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادّة

الرابعة ان استحق احد من الافندية الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة * المادة السابعة فى محل التفرج او الطريق لا ينبغى لاحد منهم أن يرتكب مايخل بمروته وهذا الامر هو اهم الجميع وممنوع اشد المنع * المادة الثامنة أن كل الافندية الذين هم فى البنسيونات لا يدخلون فى البيت المركز الا كل خمسة عشر يوما مرة وهو يوم الاحد * المادة التاسعة أن يوم الاحد الذى لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع اولاد الفرنساوية او مع المعلمين الى مواضع التفرج او الرياضة او ما ينبغى رؤيته وكذلك يوم الخميس او يوم التعطيل ان لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة * المادة العاشرة يتبعون قوانين البنسيون كاولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الامور المتعلقة بالدين * المادة الحادية عشر اذا خالف احد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته واذا اظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة وان كان احد يتشبث بافعال غير لائقة واطواره غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه تخل ماذكر حضرة ولى النعم افندينا فى القوانين التى اعطاها النا نشأ ورمع الضبين لحضرة افندينا من اهالى هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة * المادة الثانية عشر ان جميع الافندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء وان كان فى البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والاخرى للتلامذة فأفندينا يأكلون مع معلميهم * المادة الثالثة عشر ان الافندية المذكورين يلزمهم جميع ماذكر من القوانين من غير امتياز وبسبب ذلك اعطينا كل واحد منهم صورة ذلك * المادة الرابعة عشر كل المواد السابقة هى خلاصة افكارنا ونتيجة اذهاننا واذهان الاعيان الذين وصاهم علينا حضرة افندينا وبناء على ذلك كل احد يلزمه أن يتبعه مع التنبه لاجل تحصيل رضاء حضرة افندينا ولى النعم فمن لم يمتثل او تعلل بشئ يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة افندينا ولى النعم حفظه الله

الفصل الثالث فى ترغيب ولى النعم لنا فى الشغل والاجتهاد * جرت عادته من مدة

خروجنا من مصر بأنه كان يتفضل علينا بعثه لنا فرمانا كل عدة اشهر يحثنا
فيه على تحصيل الفنون والصنائع فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى
عند العثمانية احياء القلوب مثل الفرمان الآتي ومنها ما كان من باب التوبيخ
على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا او غير ذلك كفرمان اخر
وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة ولنذكر لك هنا فرمانا من النوع الاول
الذي هو احياء القلوب وان كان فيه ايضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان حفظه الله
يحثنا على التعليم وهذه صورة ترجمته ه قدوة الاماثل الكرام الافندية المقيمين
في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ينهى اليكم أنه قد وصلنا اخباركم
الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة
على شغلكم ثلاثة اشهر مبهمة لم نفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة وما فهمنا منها
شيأ وانتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون فقياسا
على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم وهذا الامر غمنا غما
كثيرا فيا افندية ما هو مأمولنا منكم فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد
منكم يرسل لنا شيأ من اثمار شغله وآثار مهارته فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة
الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم الى مصر بعد قرآءة بعض كتب فظننتم أنكم
تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون
يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية
وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون فينبغي للانسان أن يتبصر في عاقبة امره
وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وان يجني ثمرة تعبه فبناء على ذلك انكم غفلتم
عن اغتنام هذه الفرصة وترككم انفسكم للسفاهة ولم تتفكروا في المشقة
والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا اليكم
لتتميزوا بين امثالكم فان اردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت
دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر
ابتداءه وانتهاءه كل شهر ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب
والرسم وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم ويكتب في كل شهر ما تعلمه

فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق وان قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وهو امامن عدم اعتنائكم اومن تشويشكم واى تشويش لكم هل هو طبيعى اوعارض وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كماهى عليه حتى نفهم ماعندكم وهذا مطلوبنامنكم فاقرؤا هذا الامر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الارادة * قدكتب هذا الامر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى اسكندرية بمنه تعالى فمتى وصلكم امرنا هذا فاعملوا بموجبه وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة فى ربيع الاول سنة ١٢٤٥ خمسة واربعين بعد الالف والمائتين من الهجرة) انتهت صورة المكتوب * ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ماقرأناه وماتعلمناه فى ذلك الشهر ويكتب تحته المعلمون اسماءهم ويبعثونه الى ولى النعم فلماتساهل بعض منافى ذلك كتب مسيو جومار الينا جميعا مكاتيب ليأمر من كان مواظبا على كتابة هذه الاوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته ويوبخ من تساهل وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى ارسله الى فى هذا المعنى ولنذكره كماهو باريس ١٥ فى شهر يونيه ٢٥ فى شهر محرم سنة ١٢٤٦ الى محبنا العزيز الشيخ رفاعة لايخفى عليكم الامر الوارد من ولى النعم المتعلق بالاوراق الشهرية المشتملة على الدروس التى قرأتموها فاقدم على ماانت عليه من المواظبة وابعث هذه الاوراق فى اليوم الثلاثين كل شهر لمسيو المهرداراافندى واطلب منه اوراقا غيرمكتوبة لتكتب ابعد ذلك ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لاتأخذ فى كتابتها الانصف ساعة لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ومعرفة نوعها وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت امضائك ولايخفى على اجتهادك ولااجهل قدرثمرة تحصيلك فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها واعلم وتيقن بمحبتى لك * جومار احد ارباب ديوان الانسطيطوت

الفصل الرابع فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو جومار

ثمن

فمن كاتبنى عدة مرات مسيو دساسى ولنذكر لك بعض مكاتيبه فمنها ما كتبه باللغة العربية ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية ٭ صورة مكتوب منه من الفقير الى رحمة ربه سبحانه وتعالى الى المحب العزيز المكرم والاخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر وجعله من ذوى العافية واصحاب السعادة والخير اما بعد فان القطعة التى اكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس وحوادث اقامتك فى باريس رددتها اليك على يد غلامك وصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب تصريف الفعل فى لغتنا الفرنساوية فاذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نسبته له من صيغة الفعل الماضى فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند امم اوربا كلها وفى ممالكها حتى يهتدى اهل مصر الى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها فانه يعود ذلك فى بلادك اعظم الفخر ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ودمت سالما ٭ كتبه المحب سلوستری دساسی انتهى

صورة مكتوب آخر الى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوى حفظه الله وابقاه اما بعد فانه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك وكل ما امعنت فيه النظر من اخلاق الفرنساوية وعوايدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ويعجب من وقف عليه ولا بأس أن تعرض خط يدنا على مسيو جومار وان شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا ونعم عليك بما انت اهله ودمت على احسن حال ٭ محبك الداعى سلوستری دساسی الباريزى وصحبة هذا المكتوب ارسل الى ورقة باللغة الفرنساوية لاطلع عليها مسيو جومار وهى بالتقريظ اشبه وصورة ترجمتها لما اراد مسيو رفاعة أن اطلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ الا اليسير منه فحق لى أن اقول انه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة وأن منه يفهم اخوانه من اهل بلاده فهما صحيحا عوايدنا وامورنا الدينية والسياسية والعلمية ولكنه يشتمل على بعض اوهام اسلامية ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم

ويه يستدل على أن المؤلف جيد النقد سليم الفهم غير أنه ربما حكم على سائر اهل فرانسا بما لا يحكم به الا على اهل باريس والمدن الكبيرة ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن وقد احرص فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة للتوصل الى المجهولات خصوصا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب وهيئة الدنيا وعبارة هذا الكتاب فى الغالب واضحة غير متكلف فيها التعمق كما يليق بمسائل هذا الكتاب وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسويده وانه سيصلحه عند تبييضه وفى التكلم على علم الشعر ذكر استطرادا بعض اشعار عربية اجنبية من موضوع هذا الكتاب على ما يظهر لى لكنه ربما اعجب ذلك اخوانه من اهل بلاده وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الاشكال ذكر بعض اشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها وما ذكرت هذه الاشياء وبينتها هذا التبيين الا للاعلام بأنى دققت النظر فى قراءتى هذا الكتاب وبالجملة فقد بان لى أن مسيو رفاعة احسن صرف زمنه مدة اقامته فى فرانسا وانه اكتسب فيها معارف عظيمة وتمكن منها كل التمكن حتى تأهل لأن يكون نافعا فى بلاده وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس وله عندى منزلة عظيمة ومحبة جسيمة ❊ البارون سلوستري دساسي باريس فى شهر فبريه سنة ١٨٣١ (١٩ فى شعبان سنة ١٢٤٦)

وصورة ترجمة مكتوب كتبه لى قبيل خروجى من مدينة باريس بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعة يحصل لى حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى والساعة فى ٣ ان امكنه أن يسرنى برؤيته له حيثيات لطيفة ويحصل لى ايضا غاية الانبساط اذا بعث لى اخباره بعد وصوله الى القاهرة فاذا لم يتيسر لى رؤيته فليتبعه طريق السلامة ولا ازال اتذكر دائما آثاره واستنشق اخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر ❊ البارون سلوستري دساسي

وصورة ما كتبه مسيو كوسين دى برسوال مدرس اللغة العربية المتداولة فى المحاورات المشهورة باسم الدارجة عند العامة بدار كتبخانة السلطانية

باريس وكنت كتبت له أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة فكتب هذا الجواب
وصورته حضرة المحب العزيز الاكرم الفصيح اللسان والقلم جناب الشيخ رفاعة
المحترم حفظه الله امين بعد اهداء آتكم جزيل السلام ومزيد التحية والاكرام
قد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة فبادرنا بقضاء حاجتكم فواصل لكم
طيه تحرير يحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى تفضلتم علينا
باطلاعنا عليه وبالحقيقة قلنا مثل ما هو اعتقادنا وشرحنا ما وجدنا فيه
من المحاسن ولما يخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيأ وحيث انكم عازمون
على السفر فى آخر هذا الشهر فالمأمول من حسن محبتكم انكم بعد وصولكم
بالسلامة الى بلادكم لا تخرجونا من خاطركم وتواصلونا بالاعلام بصحتكم
ونترجا كم ايضا انه اذا طبع كتابكم تبعثوا لنا منه نسخة وبذلك تصيرونا ممنونين
ولافضالكم شاكرين والله تعالى يحفظكم والسلام محبكم كوسين دى برسوال
٢٤ شباط سنة ١٨٣١
والمراد بطية التحرير ورقة شهادته بانه اطلع على هذا الكتاب وقال رأيه فيه
وصورة ترجمة هذه الطية التى كتبها المسيو جومار باللغة الفرنساوية بتعبيره
برأيه فى هذه الرحلة قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعة الملقب بتخليص الابريز
فى تلخيص باريز فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين الى
فرانسا من طرف وزير مصر الحاج محمد على باشا ونشتمل على تخطيط مدينة
باريز وعلى نبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء
التلامذة وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح وانه مصنوع
على وجه يكون به نفع عظيم لاهالى بلد المؤلف فانه اهدى لهم نبذات صحيحة
من فنون فرانسا وعوايدها واخلاق اهلها وسياسة دولتها ولما رآى أن
وطنه ادنى من بلاد اوروبا فى العلوم البشرية والفنون النافعة اظهر التأسف على
ذلك واراد أن يوقظ بكتابه اهل الاسلام ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف
المفيدة ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الافرنجى والترقى فى صنايع المعاش
وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها اراد أن يذكر به لاهالى
بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك وما افترضه فى بعض العبارات يدل فى الغالب

على سلامة عقله وخلوه من التعسف والتحامل وعبارة هذا الكتاب بسيطة
اى غير متكلف فيها التعميق ومع ذلك فهى لطيفة وحين كانت نسخة هذا الكتاب
بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام فما رأيت منه الا نبذة
فى الرياضيات وعلم هيئة الدنيا ومبادى اصول الهندسة والجغرافيا الطبيعية
فهذه النبذات وان كانت موجزة الا انها مشبعة فيترجى ان المؤلف يدوم على
تأليف النبذات الباقية بهذه المثابة واذا اجتمعت هذه النبذات فى هذا الكتاب
فانها تكون كتاب علوم مستقل مفتاحا لغيره من العلوم نافعا لاهل العربية
واذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فانه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه واتساع
دائرة معرفته * كوسيندى برسوال * فاذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم
رأيت ان مسيو دساسى ومسيو كوسين اتفقا على حسن هذا الكتاب وعلى
بساطة عبارته اى عدم التأنق فيها وعلى نفعه لاهل مصر وانما مسيو دساسى
عابه بثلاثة اشياء الاول اشتماله على بعض مسائل يعتقد انها من اوهام
الاسلام الثانى جعلنا مدينة بلدينة باريس وغيرها من المدن عاما لسائر بلاد
فرانسا الثالث ذكرنا بعض اشياء قليلة الجدوى عند تفصيل الشكل المذكور
على غيره من الاشكال واما مسيو كوسين فانه لم يتعرض لما جعله مسيو دساسى
من باب الاوهام ولما تحدثت معه فى شأن ذلك اجابنى بأنه لم ير ذلك مضرا
حيث انى كتبت على ما هو فى اعتقادى والا لو تتبعت ما قاله الافرنج ووافقت
آراءهم الحماء او غيره لكان ذلك محض موالسة واما قوله كمسيو دساسى
ان عبارة هذا الكتاب بسيطة فمعناه ان تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق
البلاغة يقال عند علماء الفرنساوية عبارة بسيطة فى مقابلة العبارة البليغة
ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبة اكيدة وصورة اجتماعى
بهذا الشخص انى دخلت كتبيه لقرآءة الكازيطات اى الوقايع اليومية
فتعرفت بهذا الشخص الذى هو محاسبى فى وزارة الخزينة المالية واخوه
مامور دبرطمانه يعنى اقليما من اقاليم الفرنساوية وهو من بيت عظيمة تسمى
السلادانية نسبة الى سلادان يعنى صلاح الدين يتوهمون انهم ينتسبون

الى

الى السلطان صلاح الدين الايوبى قائلين انه يحتمل أن يكون حين محاربته
مع الافرنج تسرى بفرنساوية فحملت منه ثم انطلقت الى بلادها فبقى الاسم
فى اولادها وذراريها الى الآن ثم انى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ولازلت
معهم على المحبة الاكيدة مدة اقامتى فى باريس فلما سافرت كان عند
اخيه المأمور فى اقليم الترك فى مدينة يقال لها اللى فارسل الى هذا المكتوب
وهذه صورة ترجمته مع بعض حذف جائزه (الى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة
قد سلمت اماتتك لابن شيخ المأمورية ليعطيها لك فانتظرها بعد وصول
هذا المكتوب بزمن يسير وقد وكلنى اخى بأن اخبرك بثنائه عليك على ماصنعته
معه من الجميل فى اعارتك له هذه الامانة وأن اهنيك على بلوغك المأمول هل
عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز فان شاء الله تجتمع بما تركته فيه
من الاقارب والاحباب وتجده بخير فقد بلغنى أن سفرك قد قرب جدا حتى انى
لا اظن أن اقابلك فى مدينة باريس ولكن لوسافرت قبل هذا الزمن بيسير
لاجتمعنا فى مرسيليا وودعتك فى آخر مدينة من مدن الفرنساوية تعرفها
فى سفرك ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لاقترنا فى مدينة باريس التى كان بها اول
اجتماعنا ولا ادرى ان كان التلاقى مقدرا ام لا ولكن تقلبات الدهر كثيرة
خصوصا للافرنج فلا يمكننى أن اجزم بعدم الاجتماع وبالجملة فلاشك أنك
تركت فى فرانسا صديقا يتذكرك ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضر ويسر
غاية المسرة اذا بلغه انك تحظى فى بلادك بثمرة فضلك واوصافك وليت شعرى
ترجع الى بلادك بأى اعتقاد فى طبيعة الفرنساوية فقد رأيت هذه الملة
فى وقت ينبغى أن يكون تاريخا من غرائب سيرها واظن أنك تسئل فى بلادك
مرارا عديدة عن هذه الفتنة العظيمة ونصرة الفرنساوية فى طلب الحرية فاذا
وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة ايام فأمولى أن اراك فى مدينة باريس
والافارجو منك أن لاتسافر حتى تودعنى بلسان القلم محبك لك غاية المحبة)
انتهت صورته * جول سلادان
وهذه صورة مكتوب تفهم منه ايضا رغبة الفرنساوية فى تحصيل الكتب

الغريبة وترغيبهم للمؤلفين والمترجمين في ترجمة الكتب وتأليفها وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب * (الى مسيو الشيخ رفاعة تفضلى مسيو دبنغ أن اسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على اخلاق الامم وعوايدهم وآدابهم لان مسيو دبنغ مؤلف هذا الكتاب فاذا كانت ترجمتك تنطبع في مصر هل يتيسر لمؤلف الاصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء ونعترفك أنك تخبرنا الى اى محل وصلت في الترجمة من المجلد الاول من جغرافيا ملطبرون فان هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخر مصححا مشتملا على زيادات لا توجد في الاول فلا بأس من أن نحيطك به علما فانه يكمل طبعه في اثناء هذا الشهر ومنى اليك مزيد التحية) * محبك الصادق رنو بخزانة الكتب السلطانية بباريز

الفصل الخامس في ذكر ماقرأته من الكتب في مدينة باريس وفي كيفية الامتحانات وفيما كتبه لى مسيو جومار وفيما كتب من خلاصة الامتحان الاخير في الوقائع العلمية وأذكر هنا ماقرأته مرتبا بهذا الترتيب وان تكرر مع ماسبق

تعليم اصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرتينة في السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١ وبعد ايام قليلة في مرسيليا ابتدأنا في التهجي والقراءة وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجي ووصلنا باريس في شهر محرم فرجعنا ثانيا للابتداء في اصول الهجاء واشتغلنا بذلك نحو شهر ثم ابتدأنا جميعا في قراءة اجرومية لومند في نحو اللغة الفرنساوية وكان المعلم يضيف اليها من اجرومية اخرى مايحتاج اليه الحال فلما خرجت من بيت الافندية قرأت مع مسيو شواليه اجرومية اخرى ومع معلم آخر يسمى لوزى اجروميتين وفي كل من البيتين يعنى بيت الافندية وبيت المعلم كنت اشتغل بالاعراب النحوى والاعراب المنطقى بمعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق وبالاملاء والانشاء والقراءة ولازلت على ذلك ثلاث سنوات

علم التاريخ

ابتدأنا في بيت الافندية حين كنا معا بكتاب سير فلاسفة اليونان قرأناه وتممناه ثم ابتدأنا بعده في كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين واهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود وفي آخره نبذة مختصرة في علم الميثولوجيا يعني علم جاهلية اليونان وخرافاتهم ثم قرأت عند مسيو شواليه كتابا يسمى لطائف التاريخ يتضمن قصصا وحكايات ونوادر ثم بعده قرأت كتابا يسمى سير اخلاق الامم وعوايدهم وآدابهم ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها ثم كتاب رحلة انخرسيس الاصغر الى بلاد اليونان ثم قرأت كتاب سيغور في التاريخ العام ثم سيرة نابليون ثم كتابا في علم التواريخ والانساب ثم كتابا يسمى بانوراما العالم يعني مرآة الدنيا ثم رحلة صنفها بعض المسافرين في بلاد الدولة العثمانية ثم رحلة في بلاد الجزائر

علم الحساب والهندسة

قرأت في الحساب كتاب بزوت وفي الهندسة المقالات الاربع الاول من كتاب لوجندره

علم الجغرافيا بانواعها

قرأت مع مسيو شواليه كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ثم قرأت رسالة اخرى في الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس في الجغرافية يعني معجم البلدان ثم قرأت الكتاب الاول بعينه مع معلم آخر غير مسيو شواليه وقرأت ايضا مع مسيو شواليه جملا عظيمة من جغرافية ملطبرون ورسالة الّفها التعليم بته في هيئة الدنيا وقرأت وحدي مؤلفات عديدة في هذا الفن

فن الترجمة

ترجمت مدة اقامتي في فرانسا اثني عشر كتابا وشذرة يأتي ذكرها في اخر هذا الكتاب يعني اثني عشر مترجما بعضها كتب كاملة وبعضها نبذات صغيرة الحجم

كتب فى فنون مختلفة

قرأت كتابا فى علم المنطق الفرنساوى مع مسيو شواليه ومسيو الموزى وعدة
مواضع مع كتاب ليبرتروايال من جملتها المقولات وكتابا آخر فى المنطق
يقال له كتاب قند لياق غير فيه منطق ارسطو وقرأت مع مسيو شواليه كتابا
صغيرا فى المعادن وترجمته وقرأت كثيرا من كتب الادب فمنها مجموع نويل ومنها
عدة مواضع من ديوان ولتير وديوان رسين وديوان رسو خصوصا مراسلاته
الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهى اشبه بميزان
بين الآداب المغربية والمشرقية وقرأت ايضا وحدى مراسلات انكليزية صنفها
القونة شسترفيلد لتربية ولده وتعليمه وكثيرا من المقامات الفرنساوية وبالجملة
فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة وقرأت
فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برلماكى وترجمته وفهمته فهما جيدا
وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الافرنج اساسا لاحكامهم
السياسية المسماة عندهم شرعية وقرأت ايضا مع مسيو شواليه جزءين من كتاب
يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو وهو أشبه
بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين
ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى كما أن ابن خلدون يقال له عندهم ايضا
منتسكيو الشرق اى منتسكيو الاسلام وقرأت ايضا فى هذا المعنى كتابا يسمى عقد
التأنس والاجتماع الانسانى مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم فى معناه وقرأت
فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم
ومواعظهم وقرأت عدة مقالات نفيسة فى معجم الفلسفة للخواجه ولتير وعدة
مقالات فى كتب فلسفة قندلياق وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو
شواليه من غير تعرض للعمليات وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى عمليات
ضابطان عظام مع مسيو شواليه مائة صحيفة وترجمتها وقرأت كثيرا فى كازيطات
العلوم اليومية والشهرية وفى كازيطات السياسات اليومية التى تذكر كل يوم
ما يصل خبره من الاخبار الداخلية والخارجية المسماة البوليتيقة وكنت متولعا

بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية وربما كنت اترجم
منها مسائل علمية وسياسية خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة
الموسقوبية ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوى متطوع بالخدمة
فى معسكر الموسقو حررها من مدينة شملا القريبة من جبل بلقان الى بعض
امراء الالوية بمدينة باريس تاريخها اثنان وعشرون من ولية الافرنجى سنة
١٨٢٨ من الميلاد اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف
الاسلامية من منذ وصولنا الى العساكر الموسقوبية ثم ان سائر ما رأيته
عجائب تذهل العقول وتحير الالباب تقصر عنه العبارة كيف وهو أمر غريب
بالنسبة الى مثلى فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المقترن على الحروب
سافرت فى غزوة مصر ورأيت واقعة ابى قير وحصار مدينة عكا لما كان لى حين
رأيت شيأ جديدا لم أكن عاينته قبل ذلك مما يكل عنه الوصف ولكن تأمل
يا أخى فى أمرى حيث انى قد كنت فى خفر ملكا وخرجت من مكتب منسير
ولم أحضر من الوقائع الا وقعة الاندلس ثم أشعر الا أن وجدت نفسى قدام
جبل بلقان بعد أن جبت البرارى والقفار وعاينت المشاق بتهديد اهلها لنا
وتخلصهم منا وادها شهم بجيوشنا وانظر فى استعجابى وذهابى صوابى حين
خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة الحروب الاسلامية بأعلى شملا
وقد وصل الى شريف علمكم من دفتر علم الموسقو تفصيل هذه الواقعة وشرح
احوال الجم الغفير من عساكرنا والخبر بأنها صارت ضائعة وقد شاهدت بعينى رأسى
سوء ميتة المير الاى باردى الموسقوبى بحالة رديئة حيث انقسم نصفين بضربة
مدفع تركية ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة وطول مدتها لا يعد
من الغرابة وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب فعساكر الاسلام
لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب وهذه المصادمة هى التى تستسهل الخطر
وتخترق المانع لبلوغ الوطر ينتج منها ثمرتان الاولى انها تلقى الحيرة فى عقول
الرجال والثانية ان عاقبتها دائما تفرغ الفزع فى قلوب الاعداء ولو كانوا
من الابطال ولو شاهدت عينك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع

الانسان بمجرد منظرها المرعب وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ومشيها على صوت الالحان الوحشية وصهيل الخيول الكردية ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية لحكمت مثلى بأن هذه المحاربة تطول وأن اضطرام نارها قل أن يزول أوليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب وهمة علية بنظام غريب اوهل شكر أحد أن رجالهم متعودون على ركوب الخيل وان خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى الاقدام والاحجام يبلغ عليها فى المحاربة المقصود والمرام فياويح العساكر التركية التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية دعامة غيرتهم الاسلامية والوطنية وهذه مزية لا توجد يقينا فى عساكر الموسقو ثم ازدحام الخلائق فى أوقات الحروب له تدبير صحيح ولكن فى هذه الواقعة لا يجهل انسان ولو كان من القزاق ان الفخر لعساكر الاسلام وهذا الخبر ربما ظهر لك انه عجيب من مثلى خصوصا وانا قد جئت متطوعا فى عسكر الموسقو لاشاركهم فى اقتحام الاخطار واقتسم معهم الفخار ولكن لما وصلت الى هنا ظهر لى أن الظن قد خاب وانى قد حدت عن الصواب ورأيت اعداءنا الذين كانتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم ليس لهم شئ من الدناءة بل هم اقرب الى قبول التأدب والظرافة من الافرنج * واعلم يا أخى أن غيرتى على خلاص الاروام من يد العثمانية لم تنقص شيأ ولكن أقول ليت شعرى هل تلزم الغارة على اسلامبول فى خلاصهم أوليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه فى اخذ مدينة ابرائل من العساكر كان يكفى وحده فى فك أسر الاروام وتحرير رقابهم وتقليل سفك دماء تابعى عساكر الاسلام وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية وكان شابا بديع الصورة كثير الجروح ضعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره ورقوا للاحته وجراحته فخاطبته باللغة الايطاليانية ففهم مقالى وأجاب سؤالى وأخبرنى بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة وله أخوان فى خدمة حسين باشا الايشك فى نصرة الدولة العثمانية بل يقول ان الترك يصلون الى موسقو واعلم يا أخى أن فى شملا نحو مائتى ألف محارب ويتجدد

علينا كل يوم وسلطانهم بطل عظيم عن يقين وها أنا الآن أطوى الكتاب لأضع
قدمى فى ركابى فالآن عساكر الاعداء تحارب فى طليعة جيشنا وأنا بين دوى
أبدان الترك وعجيج أصوات الروس غريق وهذه حكاية مهولة ان نظرت بعين
التحقيق

(الفصل السادس)

فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة باريس خصوصا فى الامتحان الاخير
الذى أعقبه رجوعى الى مصر اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم
بمجرد شهرة الانسان بالفهم او الاجتهاد او بمدح المعلم فى المتعلم بل لابد عندهم
من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين فى الامتحان قوة الانسان والفرق
بينه و بين أمثاله وهذا انما يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص
بدعوة مثل دعوة الولائم عادة وهناك امتحانات خاصة وهى أن يمتحن المعلم
تلامذته كل اسبوع او شهر ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الاسبوع او الشهر
وليكتب مفاد ذلك الى آبائهم فكانى البنسيونات بهذه المثابة وكل سنة يصنع
معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية فأول بحث صنع معنا كان
اغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية
امتحان البارعين فى الجواب المتميزين عن غيرهم ففى أول امتحان عام بعث لى
مسيو جومار كتابا يسمى رحلة انقرسيس فى بلاد اليونان سبعة مجلدات
جيدة التجليد مموهة بالذهب بصحبتها هذا المكتوب الذى صورته مترجما * أول
يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد قد صرت مستحقا الهدية اللغة
الفرنساوية بالتقدم الذى حصلته فيها وبالبرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير
ولقد حق لى أن اهنى نفسى بارسالى لك هذه الهدية من طرف الافندية النظار
دليلا على التفاؤل فى التعليم ولاشك أن ولى النعمة يسر متى اخبر أن اجتهادك
وغيرة تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفها عليك فى تربيتك وتعليمك
وعليك منى السلام مصحوبا بالمودة وقوله فى الامتحان الاخير المراد انه آخر
بالنسبة لما قبله من الامتحانات المخصوصة * وهدية الامتحان تشبه
أن تكون جائزة مثل جائزة الشعراء او هى كقصب السبق وفى الامتحان

العام الثانى بعث لى كتاب الانيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور تأليف مسيو دساسى وصحبته هذا المكتوب * وصورته مترجما باريس ١٥ شهر مارث سنة ١٨٢٨ من الميلاد قد صرت مستحقا الهدية النحو الفرنساوى بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الاخير ولقد سرنى انك صرت مستحقا أن أبعث لك علامة السرور منك نشو يقالك وها أنا باعث جدول امتحانك لولى النعم باجتهادك وفلاحك ولا شك انه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة وأنك أهل لعنايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك وعليك منى السلام وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان واما صورة الامتحان الاخير الذى به رجعت الى مصر أن مسيو جومار جمع مجلسا فيه عدة اناس مشاهير من جملتهم وزير التعليمات الموسقو بى رئيس الامتحان وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرانسا وصورة ما حصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية فى وقائع العلوم ما نصه وصورة التلميذ رفاعة انه قرئ فى المجلس دفتران الدفتر الاول يشتمل على تعديد اثنى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمها المذكور منذ سنة وهذه اجزاؤها * الاول نبذة فى تاريخ اسكندر الاكبر مأخوذة من تاريخ القدماء * الثانى كتاب اصول المعادن * الثالث رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية * الرابع كتاب دائرة العلوم فى اخلاق الامم وعوايدهم * الخامس مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على مسيو دهنبلفر * السادس قطعة من كتاب ملطبرون فى الجغرافية * السابع ثلاث مقالات من كتاب لجندر فى علم الهندسة * الثامن نبذة فى علم هيئة الدنيا * التاسع قطعة من عمليات ضابطان عظام * العاشر اصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الافرنج اصلا لاحكامهم * الحادى عشر نبذة فى الميثولوجيا يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم * الثانى عشر نبذة فى علم سياسات الصحة * الدفتر الثانى يشتمل على رحلته وذكر سفره ثم أحضر له عدة كتب مطبوعة فى بولاق فترجم منها مواضع بسرعة الى اللغة الفرنساوية

ثم

ثم قرأ بالفرنساوى مواضع منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير فى كازيطة مصر المطبوعة فى بولاق ثم بحث معه فى ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له فكان بعض الحاضرين بيده الاصل الفرنساوى والشيخ بيده الترجمة ثم انه يترجم العربية بالسرعة الى الفرنساوية قراءة لا كتابة ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الاصل وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الاصل المترجم ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازا بدل مجاز آخر من غير خلل فى المعنى المراد مثلا فى تشبيه اصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الاحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه وانه ربما كرر وربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة ولكن من غير أن يقع فى الخلل بل هو دائما محافظ على روح المعنى الاصلى وقد عرف الشيخ الآن انه اذا اراد أن يترجم كتب علوم فلا بد له أن يترك التقطيع وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييرا مناسبا للمقصود وقد امتحن فى كتاب آخر وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافية الطبيعية وهذا الكتاب ترجمه هو الى العربية ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل الى درجته الآن فى اللغة الفرنساوية كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الاصل بجميع التزاماتها وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيأ بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة فتفرق اهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ومجمعين على انه يمكنه أن ينفع فى دولته بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج اليها فى نشر العلوم والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى على اشكال وأحد افندى العطار من اهل بلاده يشتغل بالطباعة على الاحجار لاجل ذلك وقد كان حاضرا فى المجلس فقدم لاهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية وقد ابتدأ فى معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة وقلم الشعر لكتابة التصوير وفى تصوير آلة توجد حيوانات

وامور عمارات وغير ذلك من الامور المصنوعة بالخطوط من غير خلل ولكنه جاء فى فرانسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليا عن جميع العيوب ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر علما وعملا و ينسخ عينات التصوير التى تعطى له و يطبعها بنفسه عند الحاجة ويمكنه أن يتأهل لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها وقد ترجم مختصرا فى صناعة الطباعة بالحجر وكتبها على الحجر وطبعها بيده وكانت نسخة منها موضوعة على باش تختة مسيو جومار انتهى كلام كاز يطة دائرة العلوم وكتب لى مكتوب تهنئة برجوعى الى مصر بعد تحصيل المرام غير أن هذا المكتوب قد ضاع منى وكان لا بأس بذكره هنا وصورة ترجمة ما كتبه لى مسيو شواليه وهو أشبه باجازة وشهادة لى ٭ وزارة الحرب يقول الواضع اسمه فيه شواليه تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة بلوتكنيقا الضابط المهندس المكتوب فى وزارة الحرب الوكيل من طرف مسيو جومار والافندية النظار بالارشاد الى تعليم مسيو الشيخ رفاعة اشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ المذكور عندى لم أر منه الا اسباب الرضى سواء فى تعليمه او فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس وحسن خلقه ولين عريكته وقد قرأ معى فى السنة الاولى اللغة الفرنساوية والجغرافيا انتهى وفيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرسم مع ثمرة لم يشتغل به الامرة فى كل اسبوع لمجرد امتثال اوامر ولى النعم ولكن صرف جهده مع غاية الغيرة فى الترجمة التى هى صنعته المختارة له واشغاله فيها مبينة فى اعلاماتى الشهرية خصوصا فى الجرنالات الاولى التى اعطيتها لمسيو جومار وحسب هذا التلميذ ما فى هذه الاعلامات والجرنالات ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن اداته الى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار حتى احتاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه ولما رأى أن الاحسن فى اسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له غير ما سمح به الميرى وأن يأخذ معلما

آخر غير معلم المبرى أنفق جزأ عظيمـا من ماهيته المعدة له فى شراء كتب وفى معلم مكث معـه اكثر من سـنة وكان يعطيه الدرس فى الحصة التى لا يقرأ معى فيهـا وقد ظننت انه يجب على وقت سفره أن اعطيه هذا الاعلام الموافق لما فى الواقع ونفس الامر وأن اضيف الى ذلك الافصاح عمـا فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته * مسـيو شوالية ٢٨ فى شهر فبريه سـنة ١٨٣١

المقـالة الخامسة فى ذكر ماوقع من الفتنة فى فرانسـا وعزل الملك قبل رجوعنـا الى مصر وانمـا ذكرنا هذه المقـالة لانها تعد عند الفرنسـاوية من أطيب ازمانهم واشهرها بل ربمـا كانت عندهم تاريخـا يؤرخ منه

الفصـل الاول

فى ذكر مقدمة يتوقف عليهـا ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم .

اعلم أن هذه الطائفـة متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين وهمـا الملكية والحرية والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الامر لولى الامر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشئ والاخرى تميـل الى الحرية بحيث انهم يقولون لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين فكانه عبارة عن آلة ولا شـك أن الرأيين متباينان فلذلك كان لا اتحاد بين اهل فرانسـا لفقد الاتفاق فى الرأى والملكية اكثرهم من القسوس واتباعهم واكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية فالفرقة الاولى تحـاول اعانة الملك والاخرى ضعـفه واعانة الرعية ومن الفرقة الثـانية طائفة عظيمـة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعيـة ولا حاجة الى ملك أصـلا ولكن لمـا كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكـل عنها من تختاره منها للحكم وهذا هو حكم الجمهورية ويقال للكبار مشايخ وجمهور * وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردهـا فعـلم من هـذا أن بعض الفرنسـاوية تريد المملكة المطلقة وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمل بما فى القوانين وبعضهم يريد الجمهورية وقد سبق للفرنسـاوية انهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد

وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ثم صنعوا جمهورية واخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من مدينة باريس وأشهروهم مثل الاعداء ولازالت الفتنة باقية الآثار الى سنة ١٨١٠ ميلادية ثم تسلطن بونابارته المسمى نابليون وتلقب بسلطان سلاطين ثم لما كثرت محارباته وكثر أخذه الممالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الافرنج ليخرجوه من المملكة فأخرجوه منها مع محبة الفرنساوية له وأعادوا البربون الى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية فكان اول من تسلطن منهم لويز الثامن عشر ولاجل ترغيب الناس فى حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية بشورتهم ورضائهم وألزم نفسه أن يتبعه ولايخرج عنه وهو الشرطة وقد ذكرناها مترجمة فى باب سياسة الفرنساوية ولاشك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية وانه لايزاد فيه ولاينقص الا اذا اتفق عليه الملك وديوان البير وديوان وكلاء الرعية فلاينقص من الدواوين والملك ويقال انه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه وهم يحبون التصرف المطلق فى الرعية ويقال انهم تعصبوا عليه وكان رئيس العصبة اخاه كرلوس العاشر حتى انه اطلع على ما اخفاه له فابطله ويقال ان كرلوس العاشر اراد فى حكم لويز الثامن عشر أن ينقض ذلك القانون ويرجع الى طريق اطلاق التصرف فلم يمكنه ذلك ثم بعد موت اخيه اظهر كرلوس الحيلة وابطل ما كان نواه واظهر انه لايريد شيأ من ذلك وجوز لكل انسان أن يبدى فى الكازيطات رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه واظهاره فصدق الناس كلامه واعتقدوا انه لايخلف وعده بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ثم انه انتهى امره الى أن هتك القوانين التى هى شرائع الفرنساوية وخالفها وقبل هتكه للشريعة بانت منه امارات ذلك بمجرد تقليده الوزارة للوزير پولنياق وهو معلوم المذهب والتدبير يعنى انه يميل الى كون الامر لايكون الا للملك ويقال ان هذا الوزير هو ابن زنا زنت امه بهذا الملك فولدته منه فهو فى الحقيقة ابوه وشهير بالظلم والجور ومن الحكم التى فى غاية الشيوع ان ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع وفى الحديث

من

من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الهم وقال الشاعر

من انصف الناس ولم ينتصف بغضه منهم فذاك الامير
ومن يرد انصافه مثل ما انصف اضحى ماله من نظير
ومن يرد انصافه وهو لا ينصفهم فهو الدنيء الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا ايلجيا ببلاد الانكليز من طرف الفرنساوية يعني رسولا للمصالح بين الدولتين كانت الفرنساوية تنسب اليه كل ما خالف مذهب الحرية وكلما شاع عنه أنه راجع الى فرانسا يظن جميع الناس أنه لا يأتي الا ليتقلد منصب الوزارة ويغير القوانين فلذلك كان يبغضه سائر أرباب الحرية واغلب الرعية وقد عرف الفرنساوية من قبل أن اختياره للوزارة كان مقصودا لهم وقد حصل بعد توليته بخصوصه وقد قلنا فيما سبق أن ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء الستة فلم يصغ لكلامهم اصلا وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الاشياء بمقالة اكثر أربابه وكان المجتمع في هذا الديوان للمشورة في قضية الوزراء اربعمائة وثلاثون تضامنها ثلثمائة لا يرضون بابقاء الوزراء ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم فكان العدد الاكثر عليهم والعدد الاقل لهم فتيقنوا عزلهم وكان الملك يحب ابقاءهم لاستعانته بهم على تنفيذ ما اضمره في نفسه فابقاهم ثم خرم القانون بعدة اوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم واخراجهم له من بلادهم معزولا فهو كما قال الشاعر

لم يدر ما يجني عليه القول ولا لما ذا امره يؤول
يلقي الكلام كيف ما ألقاه لم يحسن الفكرة في عقباه
وهكذا التهور في المقال وصحبة الاشرار والجهال
يفضك الجاهل أني رفعك يرديك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثاني

في ذكر التغيرات التي حصلت وما ترتب عليها من الفتنة وقد سبق لنا

من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة أنه لا يمنع انسان فى فرانسا من ان يظهر رأيه ويكتبه ويطبعه بشرط أن لا يضر ما فى القوانين فان اضر به ازيل فلما كانت سنة ١٨٣٠ واذا بالملك قد اظهر عدة اوامر منها النهى عن ان يظهر الانسان رأيه وأن يكتبه اويطبعه بشروط معينة خصوصا الكازيطات اليومية فانه لابد فى طبعها من أن يطلع عليها احد من طرف الدولة فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره مع أن ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله الا بقانون والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة رأى الملك ورأى اهل ديوانى المشورة يعنى ديوان البير وديوان رسل العمالات فصنع وحده ما لا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره وغير أيضا فى هذه الاوامر شيأ فى جمع اختيار رسل العمالات يعنى فى الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى باريس وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع مع أنه كان حقه أن لا يختصه الا بعد اجتماعهم كما فعل فى المرة السابقة وهذا كله على خلاف القوانين ثم ان الملك لما اظهر هذه الاوامر كأنه احس فى نفسه بحصول مخالفة فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم اعداء الحرية التى هى مقصد رعية الفرنساوية وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها وبمجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات انه يحصل فى المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب كما قال الشاعر

اري بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعيدان تذكو وان الحرب اولها الكلام

ففى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الاوامر فى الكازيطات اخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى بالروايال يعنى السراية السلطانية التى سكنها عائلة اقارب الملك المسماة عائلة اورليان التى منها الملك الآن وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس وكان هذا يوم السادس والعشرين فى شهر يوليه وفى يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب الكازيطات الحرية لعدم رضائها بالشروط فلذلك

بلغت الاوامر جميع الناس وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات
التي من عادتها أنها لا تفتر عن الظهور الا لمهم عظيم فاغلقت الورشات والمعامل
والفبريقات والمدارس فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك
والخروج عن طاعته ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل وبهذه
الديار بل وفي غيرها قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام خصوصا مادة
الخطابات فانها قوية وخصوصا بلاغة الانشاء فلها مدخلية عظيمة كما قيل
ان نزل الوحي على قوم بعد الانبياء نزل على بلغاء الكتاب خصوصا اذا كان
مايذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ومقصودا عند الخاصة فان هذا
هو عين البلاغة العجيبة اذ هي مافهمته العامة ورضيت به الخاصة فلما سمع
بذلك ولاة الحسبة حضروا في المحال العامة ومنعوا الناس من قرآءة
هذه الكازيطات وحاصروا مطابعها وهموا بكسر آلات الطباعة وكسروا
بعضها وحبسوا من اتهموه من الطباعين وبهدلوا كثيرا ممن أظهر شيأ
مخالفا الترتيب الملك من الرعية وهذا ايضا مما قوى غضب الفرنساوية فكتب
ارباب هذه الكازيطات يعني رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم
ورقة انكار واشهروها وعددوا نسخها ولصقوها بجدران المدينة وامروا
فيها الرعية بالحرب وعينوا محله وكان الميعاد في درب سراية البرواياله
فازدحم فيه كثير من الامم وفيما حوله من الحارات فكانت العساكر السلطانية
تحاول تفريق هذا الازدحام فعظم دوي الرعية وكثرت اصواتهم وظهر
غضبهم في سائر الدروب والحارات فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال
بين الفريقين فكانت الرعية تقاتل اولا بالاحجار والعساكر بالسيوف
وآلات الحرب فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين ثم بحث الرعية عن
آلات الحرب وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس فكأنما لسان
حال الفرنساوية الذي هو اصدق من لسان مقالهم جعل يقول ان بني عمك
فيهم رماح ٭ فعظم القتال وكان اكثر المقتول والمجروح من الرعية كما قال الشاعر

فالحرب تضحك والنفوس مهورها ٭ مابين ابكار تزف وعون

وترى الدماء على الجراح طوافيا ٭ وكأنها رمد بجفل عيون

فاشتد غضبهم وعرضوا القتلى فى المحال العامة لتحريض الناس على القتال واظهار عيوب العساكر وقامت انفس الناس على ملكهم لاعتقادهم أنه امر بالقتال فامرت بهذا الوقت بحارة الاوسعت فيها السلاح السلاح ادام الله الشرطة وقطع دابر الملك فى هذا الوقت كثر سفك الدماء واخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشراء اوغصب واغلب العملة والصنائعية خصوصا الطباعين هجموا على القرقولات وخانات العساكر واخذوا منها السلاح والبارود وقتلوا من فيها من العساكر وخلع الناس شعار الملك من الحوانيت والمحال العامة وشعار ملك الفرنسيس هى صورة زهر الزنبق كما أن شعار ملك الاسلام صورة هلال وملك الموسقو بية صورة عقاب وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه فى السكك المطروقة حتى يتعذر مشى الفرسان عليه ونهبوا جبخانات البارود السلطانية فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك وهو خارج امر بجعل المدينة محاصرة حكما وجعل قائد العسكر أميرا من اعداء الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى فانه لو كان كذلك لاظهر امارات العفو والسماح فان عفو الملك أبقى للملك ولماولى على عساكره الاجماعة عقلاء احبابا له وللرعية غير مبغوضين ولا اعداء ولكن اراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة اعدائه مع أن استصلاح العدو احزم من استهلاكه ويحسن قول بعضهم

عليك بالحلم وبالحياء ٭ والرفق بالمذنب والاغضاء

ان لم تقل عثرة من يقال ٭ يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ٭ وبنظير ما نواه لاضداده ٭ فلو انهم فى اعطاء الحرية ٭ لامة بهذه الصفة حرية ٭ لما وقع فى مثل هذه الحيرة ٭ ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الاخيرة ٭ لاسيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفسية وما احسن

قول الشاعر

والناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفى اليوم الثامن والعشرين اخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة الذى هو محل شيخ مدينة باريس فعند ذلك ظهر الخفر الاهلى يعنى الرديف وهم عساكر كانت سابقا تخفر الاهالى كالآن لمملك عساكر وورديان تخفره وقد كان ابطلهم الملك شرل اوكرلوس العاشر فلما وقعت الفتنة ظهروا لما انهوا عن الرعية فشهروا اسلحتهم للقتال وطردوا سائر العساكر من محلهم واحرقوا كثيرا منها وفى هذه الاوقات ارتفعت المحاكم وصار الحاكم هو الرعية ولم يمكن للدولة عمل شئ فقد بذلت ما عندها من القوة لاخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه فكانت جميع المحافظين متحركين والطبجية معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطانى وستة آلاف من عساكر الصف فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والمحافظين وكان من يحمل السلاح من الرعية اقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالاحجار ونحوها من المسلح وبعد اخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ثم ذهبوا الى الديوان المسمى لوور والى قصر طويلريا وهو سراية الملك ووقع الحرب فيهما بين العساكر واهل البلد وبينما هم فى الحرب بهذا المحل اذ انتشر البيرق المثلث الالوان الذى هو علامة الحرية على الكنائس والهيا كل العامة ودقت نواقيس الخطر لاعلام سائر الناس داخل وخارج باريس من اهل المدينة او غيرها بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر فلما رأت العساكر أن النصرة للرعية وأن ضرب السلاح على اهل بلادهم واقاربهم عار عليهم امتنع اغلبهم وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ملك اهل البلد ثلاثة ارباع المدينة ووقع ايضا فى ايديهم قصر طويلريا ولوور فملكوهما ونشروا عليهما بيرق الحرية فلما سمع بذلك سرعسكر المأمور

بادخال اهل باريس فى طاعة السلطان رجع فكان هـذا تمام نصرة اهل البلد
حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى
وديوان موقت لنظم البلاد حتى ينضبط الرأى على تولية حاكم دائم وكان رئيس
هذا الحكم الموقت سرعسكر المسمى لافيته وهو الذى قاتل فى الفتنة
الاولى للحرية ايضا وهذا الرجل شهير بانه يحب الحرية ويحامى عنها ويعظم
مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب
واحد فى البوليتيقة وليس صاحب قريحة مستخرجا للعلوم من حيز العدم
كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم خصوصا فى العلوم العسكرية ولكن
اعظم الناس مقاما لاقريحة وفهما وليس المراد القدح فى معرفته بل فى انتهاء
الرياسة اليه ومما يشاهد فى سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائما على قدر
المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ومن الغريب أن مثل
هـذا الامر يقع ايضا فى البلاد الحسنة التمدن وأظن أن هذا كله مصداق
الحديث الشريف الذى هو ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه وكما
قال الشاعر

اذا ابصرت ذا فضل فقيرا　فلا تعجب لفقر فى يديه
فقد قال النبى مقال صدق　ذكاء المرء محسوب عليه

وما احسن قول الشاعر

ولو أن السحاب همى بعقل　لما اروى مع البخل القتادا
ولو اعطى على قدر المعالى　سقى الهضبات واجتنب الوهادا

الفصل الثالث

كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح
بعد فوات اوانه وفى خلعه المملكة على ابنه ✽ اعلم أن اوامر الملك برزت منه وهو
فى بلدة سنكلو على القرب من باريس فالفتنة حصلت فى باريس والملك لم يكن
بها ثم ان اهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه وأن يسترد اوامره ويسترجعها
يعنى أن يكتب امرا ثانيا اعاد اليه ما كان امر به فلم يرض بذلك وارسلوا اليه

فى ذلك عدة وكلاء ليستعطفوه ويترجوه فى هذا المعنى فلم يفد كلامهم بل كان اضيع من دمع على طلل واخبروه أن الرعية لا تريد ذلك ابدا وأنه ربما ترتب عليه فساد اعظم من ذلك فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل فلما تحقق عنده أن دولته قد اشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة ارسل يطلب منهم ذلك بنفسه فأجابوه بأنه لم يبق محلا للصلح وان اوان الصلح قد فات وانه لم يتبصر فى العواقب ومن لم يتبصر فى العواقب لقى النوائب وانه لم يدقق النظر والالما حصل له ذلك وفى اليوم الثلاثين من شهر يوليه اتفق رأى اهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليترجوا الدوق درليان قريب السلطان من بيته ثانية بأن يكون قائم مقام المملكة حتى تقع مشورة اخرى على من يتولى مملكتهم وكان خارج باريس فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل الى باريس فى الحادى والثلاثين ونزل فى دار المدينة واجاب برضائه بما صنعه اهل هذا الديوان وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك وملخصها أنه قد حصل لى غاية التحسر على الامر الذى جعل باريس فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين او تغييرها بمعنى يشبع تحتمله عبارتها ولقد امتلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ولابد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمرى ثم ختم عبارته بقوله والشرطة تصير من هذا الوقت حقا يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة وتصير متبعة لا يعاد عنها لكونها حقا ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الامثال وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الجلاسة ثم ان شرل العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها له

شعر

ود لو أن ايام الحمى رجعت * وقل أن يرد شئ بعد ما ذهبا

فما كان ذات يوم فى سنكلو الا وخرج ابنه الدوفين فى ساحة وجمع فيها العساكر واعلمهم بأن اباه ولاه ملكا فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء ثم ان الملك المولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين

من شهر يوليه وبقى الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته فاحضر جميع من معه من العساكر وسيرها قدامه ليرى كيفيتها فلما علم أنها لا ترضى بالمحاربة معه نوى السفر وخرج من سنكلو فبعد عدة ساعات من خروجه انتشر على قصر سنكلو البيرق المثلث وهذا القصر هو سراية السلطان فى هذه البلدة فوصل السلطان واتباعه فى رنبوليا فى غرة شهر اغسطوس وفى اليوم الثانى من هذا الشهر بعث شرل العاشر وابنه الدوفين ورقة للدوق درليان قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق دبردو حفيد الملك وابن اخى الدوفين وانهما جعلا الدوق درليان وكيله ووليه حتى يبلغ رشده وطلبا منه فى هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ليؤمنوهما فى خروجهما من فرانسا فعرض الدوق درليان ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ليؤمنوه فى خروجه من فرانسا ثم انه جاء الخبر فى باريس أن الملك لم يرض الخروج حالا فوجهوا اليه جملة من العساكر ليكرهوه حالا على الخروج فبمجرد سماعه بذلك اجاب بالخروج متوجها الى بلاد الانكليز

شعر

والدهر طورا بعز * يقضى وطورا بهون

وهكذا حال الدنيا واحسن ما قيل فى التسلية والصبر على مكارهها

قول بعضهم

سلا بنفسى عن الدنيا وبهجتها انى ارى فانيا منها تلافانى

والصبر احمد ما اوليت من قلق ما كنت فى شدة الا تلافانى

وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة بباريس فكان الامر والنهى له ولدواوين المشورة فأول ما صنعه تقرير بنديرة الثلاثة الوان التى هى علامة على حرية الملة الفرنساوية ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك ويخطب على منبر بكلام فصيح يذكر فيه ما صنعه من التحسين فى بلاده وما هو عازم على فعله فى سنته ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر

يقول كلاما وجيزا مضمونه انه يقصر على الخطر الذى حصل لمدينة باريس عقب هتك قوانين المملكة ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى بعثها كرلوس العاشر وابنه الدوفين المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق دبردو وانهما يسميانه هنرى الخامس لانه تقدم فى فرانسا أربعة ملوك كل منهم يسمى هنرى ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة وصار ديوان المشورة يفتح كل يوم للتدبير

الفصل الرابع فيما انحط عليه رأى اهل المشورة وفيما ترتب على هذه الفتنة من تولية الدوق درليان ملك الفرنساوية

اعلم ان المشورة كانت تدبر حالة فرانسا المستقبلة وقد اسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة حتى انهم فى المشورة مختلفون فى الموضع فهم الملكية يجلسون فى الجهة اليمنى والحزبون فى الجهة اليسرى والتابعون لآراء الوزراء فى الجهة الوسطى وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له لان العبرة بكثرة الاصوات ولازال هذا الامر معمولا به الى الآن ولم تغير الفتنة شيأ من ذلك فكان اصحاب الآراء فرقتين فرقة تريد المملكة وفرقة تريد الجمهورية والفرقة الاولى منها من كان يريد تمليك الدوق دبردو حفيد الملك القديم ومنهم من كان يريد تولية ابن نابليون الذى هو بونابارته ومنهم من كان يريد تمليك الدوق درليان قائم مقام المملكة وعائلة درليان هى العائلة الثانية الوارثة للمملكة بعد انقراض العائلة الاولى البكرية وهى عائلة البربون ثم انه ظهرت ورقة مطبوعة وألصقت فى الحارات والشوارع العامة مضمونها قد صح بالتجربة أن الجمهورية لاتناسب بلاد الفرنساوية وواما الدوق دبرد وتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم البربون فتقع الفرنساوية فيما فرت منه واما ابن نابليون فهو تربية قيسيين وهم اعداء الحرية فتعين الدوق درليان انتهت وقدبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأى

المادة الاولى ان الكرسى فارغ حساومعنى ولاحق لاحد فيه فلا بد من شغله بأحد الثانية من اغراض الفرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات

الدالة على الاستعلاء من الشرطة التي هي كتاب قوانين المملكة لان بقاءها
بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنساوية ولابد أن يحذف من الشرطة بعض
المواد الغير اللائقة وتبدل بغيرها حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة
ثم بعد تمام ذلك يطلب ديوان مشورة وكلاء الرعية ان المصلحة العامة اللازمة
حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سعادة الدوق درليان لويز فليب
قائم مقام المملكة لان يكون ملكا وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور
ثم بعده لاكبر أولاده وهكذا يعني أن الملك اذا مات انتقلت المملكة لاكبر
اولاده فاذا مات اوحصل له عذر كانت لابنه الاكبر وهكذا وان يقبل المملكة
ويرضى بالشروط وبصيغة المبايعة التي يعينها له اهل المشورة وأن يلقب بملك
الفرنساوية لا بملك فرانسا والفرق بينهما ان ملك الفرنساوية معناه كبير على
نفس الاشخاص يجعلهم له ملكا بخلاف ملك فرانسا فان معناه أن أرض
فرانسا ما دامت باقية فهو سيدها ومليكها ولا منازع له من أهل بلاده فيها
وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرانسا وكان اذا كتب الواحد
منهم يقول ما صورته انا فلان بفضل الله تعالى ملك فرانسا ونوار على كل من يرى
هذه الاوامر الحاضرة سلام قد أمرنا ونأمر بما سيأتي لنا وقوله ملك فرانسا ظاهر
واما قوله ملك نوار فان هذا لقب اصطلاحي له لمجرد الشرف وسبب ذلك
أن اسلاف ملك فرانسا كانوا يحكمون على مملكة نوار ثم انتقلت منهم الى ملوك
اسبانيا فصارت حصة منها وبقي اللقب لملك فرانسا واما ملك الفرنساوية فانه
يقول في كتابته انا فلان ملك الفرنساوية ممني السلام على من حضر في الحال
والاستقبال قد أمرنا ونأمر ففرق بين عبارة الاول والثاني فان الاول جعل
نفسه ملك مجموع فرانسا ونوار بانعام الله سبحانه وتعالى عليه والثاني جعل
نفسه ملك الفرنسيس ولم يقل بفضل الله ولقد تحاشى عن ان يقول ذلك لارضاء
الفرنساوية فانهم يقولون انه ملك الفرنسيس بارادة ملته وبتمليكهم له لا أن هذه
خصوصية خصه الله سبحانه وتعالى بها عاتلته من غير أن يكون لرعيته
مدخلية فظاهر من هذا أن قوله بفضل الله معناه عندهم باستحقاقه لذلك

بولادته ونسبه كما أن قوله ملك فرانسا معناه صاحب الارض والسلطنة عليها
والا فلو كان عندنا لاستوت العبارتان فان كون الملك ملكا باختيار رعيته له
لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والاحسان ولا فرق
عندنا مثلا بين ملك العجم وملك ارض العجم ثم بعد تمام المشورة بعث اليه اهلها
عدة رسل فقرأ عليه رئيس الرسل ما اتفق عليه اهل ديوان المشورة فأجاب حالا
بقوله قد سمعت والقلب فى اضطراب ما عرضتموه على من خلاصة مجلس
المشورة من انتخابى للمملكة ولقد صح عندى أن عبارتكم الصادرة عنكم
فى ايضاع عبارة لسان حال الرعية بتمامها وظهر لى أن ما صنعتموه فى القوانين
يناسب ما ذهبت اليه فى السياسات التى مارستها مدة حياتى ولكن حصل لى
من ذلك انفعال عظيم لانى لست أنسى مدة حياتى ما قاسيته سابقا
من الاهوال حتى انى كنت عزمت على أن لا اطمع ابدا فى قضية
السلطنة ونويت على أن اعيش خاملا مرتاحا بين عيالى ولكن حبى لعمار
بلادى غلب ذلك فهو جدير بأن اوثره عليه حيث قد أيقنت أن الضرورة
دعت اليه ثم انه عين اليوم الذى يتوج فيه فى ديوان رسل العمالات فلما جاء
اليوم الموعود جاء فى الساعة المتفق عليها بموكب عظيم من غير خفر سلطانى
ومن غير جلساء وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب تماهى بذلك وكل
ما مشى خطوة حياه جميع الناس من الجوانب بقولهم حفظ الله الدوق درليان
حفظ الله الملك فلما دخل الديوان ركب مصطبة بقرب الكرسى وسلم على أهل
المجلس ثلاث مرات ثم جلس على دكة امام الكرسى وابنه الاكبر عن يمينه والثانى
عن يساره وخلفه اربعة وزراء فى العسكرية يلقبون بالمارشالات جمع مارشال
وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنساوية وهو دائما مضاف الى
فرانسا فيقال مارشال فرانسا وبالفرنساوية مارشال دفرانسا والدال علامة
على الاضافة بين المضاف والمضاف اليه مثل اللام المقدرة فى الاضافة عندنا
فعلامة الاضافة ظاهرة عند الفرنسيس ثم بعد جلوسه عزم على اهل ديوان
البير وديوان رسل العمالات بالجلوس ثم طلب من رئيس الديوان أن

يقرأ عليه الخلاصة التي عزم عليه اهل الدواوين فيها بالمملكة فلما فرغ الرئيس
من قراءتها أجاب الدوق المذكور بقوله ياسادات لقد سمعت مع التأمل خلاصة
الدواوين وقد وزنت عباراتها وأمعنت فيها النظر وأقول رضيت من غير شرط
ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة في الخلاصة وبتلقيبي ملك الفرنسيس
الذي أعطيتموه لي وها انا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على أني احفظ ذلك
ثم قام الملك مكشوف الرأس ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة
الآتية بترتيب وترتيل وبصوت ثابت من غير لجلجة وهذه الصيغة مترجمة
اشهد الله سبحانه وتعالى على اني احفظ مع الامانة الشرطة المتضمنة لقوانين
المملكة مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور في الخلاصة وعلى اني
لا احكم الا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها وأن اعطي كل ذي حق حقه بما
هو ثابت في القوانين وأن اعمل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية
الفرنساوية وسعادتها ونفرها ثم صعد على كرسي المملكة وشرع يقول ياسادات انا
قد حلفت في هذا الوقت يمينا عظيما وما جهلت بالواجبات المرتبة به علي مع
عظمها واتساعها الآن نفسي تحققت اني اوفي بها وما قبلت المبايعة الا عن رضى
وقد كنت عزمت على أن لا أركب ابدا الكرسي الذي اعطته لي الملة الفرنساوية
ولكن لما رايت أن فرانسا قد جرحت حريتها وتكدرت الراحة العامة باوضها
وبهتك قوانين المملكة قد اشرفت على الفساد وجب نصب القوانين وكان ذلك
من وظيفة ديوان البير وديوان رسل العمالات وقد وفيتم بذلك فما صنعناه من
اصلاح الشرطة يستلزم الامن في المستقبل فأملي أن فرانسا تصير مرتاحة
في داخلها ومحترمة في سائر جهاتها والصلح في بلاد اوروبا يزيد ثباتا فلما فرغ من كلامه
صاحت الاصوات حفظ الله الملك لويز فليب الاول ثم سلم الملك على المجلس وخرج
مصاحبا من رآه من اهل المجلس وغيرهم وركب حصانه ومشى وصار يصافح
الناس عن يمينه وعن يساره وربما عانق كثيرا من الناس وكان موكبه مؤلفا من
أهل البلد ومن خفر الملة المسمى الخفر الاهلي يعني الرديف ولما دخل الليل نورت
باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه في السابع من شهر اغسطوس سنة ١٨٣٠

من البلاد

من الميلاد .

الفصل الخامس فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط ايديهم على الاوامر السلطانية التى كانت السبب فى زوال مملكة الملك الاول الذى فعل فعلته وفى العواقب لم ينظر وطمع بما لم يظفر كما قال الشاعر

ان النفوس على اختلاف طباعها   طمعت من الدنيا بما لم تظفر

اعلم أن الفرنساوية بعد هذه الفتنة اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب فى ذلك وايضا فانه بمقتضى القوانين ان الوزراء يضمنون ما يقع فى المملكة من الخلل فهم المحاسبون دون الملك وليس على الملك شئ اصلا لحملهم ثقيل ووظيفتهم شاقة الفصل فعليهم الوزر فى كل ما يحدث قال الشاعر

يتداول الناس الرياسة بينهم   واريد حظهمو فلا استطيع
واكاف العبأ الثقيل وانما   تبلى به الاتباع لا المتبوع
فعليهم الاثقال يرمى حملها   وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الاوامر فى جميع طرق البلاد أن يوقفوهم اذا مرّوا عليهم وقد قلنا ان رئيس الوزراء كان بولنياق فمسك من الوزراء اربعة منهم هذا الامير المذكور وصورة القبض عليه انهم وجدوه شاردا من بلاد فرانسا فى صورة خادم لامرأة عظيمة فعرفوه واوقفوه وخفره الخفر الموجود فى الطريق خوفا من الرعية ثم اعلموا بذلك الديوان فى باريس فكتب هو مكتوبا الى ديوان مشورة البير وقد كان من رجال المشورة يقول فيه انه لا معنى للقبض عليه حيث انه من اهل هذا الديوان واحتج بالمادة الرابعة والثلاثين من الشرطة لا يمكن ان يحبس احد من اهل ديوان البير الا بامر اهل ذلك الديوان ولا يمكن ان يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات فما كان جوابهم الا أنهم اجتمعوا وقرأوا مكتوبه ثم تشاوروا فكانت خلاصة المشورة الاذن بالقبض عليه وحبسه حتى يحكموا عليه فجئ به الى بلدة ونسينه بقرب باريس وحبس فى قلعتها ثم قبض على الثلاثة الاخر وحبسوا معا من غير أن يحصل لاحد منهم شئ من التذليل ابدا مدة حبسه ثم انه مدة حبسهم بنوا لهم محلا عظيما فى ديوان مشورة البير لتسمع دعواهم فيه

وجعلوه بناء متينا وثيقا على صورة عظيمة حتى لا يمكن للرعية الهجوم عليهم
لاذيتهم ولا لاحبابهم ان يخلصوهم من الحبس وكانوا اذ ذاك امر الالهاء وقع عظيم
ثم جاؤا بهم الى هذا المكان وحبسوهم في محل منه وصاروا يأتون بهم كل يوم
وكانت دعوتهم من اعظم ما يتعلق غرض الانسان بسماعه ومن اجل ما يدل
دلالة قطعية على تمدن الفرنساوية وعدل دولتها ولنذكر لك بعض شئ منها
فنقول اعلم أن ملك الفرنسيس الجديد لما تولى تعلقت ارادته بعزل سبعين
رجلا من اهل مشورة البير الذين كان ولاهم شرل العاشر الملك السابق ثم سمى
منهم تسمية جديدة من كان على غرضه فلو كان هؤلاء السبعون فضلوا من اهل
الديوان لكانوا يحامون عن الوزراء فكان غالب اهل ديوان مشورة البير اعداء
لهم الا أن التمسك بالقوانين وطيب نفوسهم في الجملة وعدم ميلهم بالطبيعة الى
الظلم كان سببا في نجاة الوزراء المذكورين ومما يتعجب منه أن الوزير بولنياق
حين القبض عليه اراد أن يختار واحدا يحامى عنه من العارفين بالاحكام
فلم يختر الا مرتنياق احد الوزراء المعزولين قبله لانه ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة
واعجب من ذلك أن الآخر الذى هو مرتنياق وفى بذلك مع غاية الامانة التامة
وبذل ما عنده من المعارف لدفع الارادات عن موكله وكذلك كل واحد من
الوزراء المقبوض عليهم وكل محاميه ثم لما افتتحوا الدعوى ارسلوا لكل واحد
من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه مع غاية الرفق واللين وكيفية اول
ما يسأل به ما اسمك ما وصفك ما منصبك ما رتبتك فيجيب باجوبة هذه
الاسئلة ولو كانوا يعرفون ما ذكر ثم قالوا لكل واحد منهم اتقر بأنك وضعت
خط يدك تحت اوامر الملك قال نعم ولاى شئ فعلت ذلك فيجيب بأن الملك
اراده ولاى شئ اراد الملك فعل ذلك وهل عزم عليه من قديم الزمان او الآن
فقط وقد كان كل منهم يجيب في مثل هذه الاسئلة بقوله لا افشى سر ديوان
حضرة الملك اصلا مع غاية التعظيم في المجلس للحكم المعزول ولم يتفوه احد منهم
بشئ من اسرار الديوان ابدا ولم يكرههم احد على ذلك ثم بعد سؤالهم واتهامه
وكتب خلاصته جاء المحامون عنهم وتكلموا ايضا عدة ايام ليظاهروا أن الوزراء

بريؤن من الذنوب وان مقصدهم كان حسنا وهكذا فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى ثم قضت بما هذه صورته من حيث ان الوزراء وضعوا خط ايديهم تحت الاوامر المخالفة لقوانين المملكة ومن حيث انهم هتكوا حرمة القوانين وخالفتها حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم وتجريدهم من اوصاف الشرف وألقابه وحكمت على بولنياق زيادة على ذلك بالموت الحكمى وهو تقريبا نظير مسئلة من انقطع خبره وحكم بموته القاضى باجتهاده بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا والموت الحكمى عند الفرنساوية ويقال له الموت المدنى هو أن يكون حكم الحى عندهم كحكم الميت فى كثير من الاحوال وهو ان المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته مثل ما اذا مات حقيقة ولا يصح ان يرث غيره بعد ذلك ولا ان يورث هو غيره الاموال التى ملكها بعد ذلك ولا يمكنه أن يتصرف فى امواله جميعها او بعضها بهبة او وصية ولا يجوز اهداؤه ولا الوصية له الا بالقوت ولا يجوز أن يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية ولا تقبل دعواه ولا ينعقد نكاحه بل ينفسخ نكاحه الاول بالنظر للاحكام المترتبة عليه ولزوجته واولاده أن يصنعوا فى امواله او فى انفسهم كما لو مات هو حقيقة وبالجملة فهو حى ملحق بالموتى ولكن لما كان هذا الوزير وامثاله ممن يحكم عليهم بذلك من اعيان الناس وكانت ذريته حسنة التربية كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم لكون عائلته تعتقد أن هذا من باب التعدى المحض وانه ناجح بينه وبين مولاه ولا تفارقه زوجته اصلا لاعتقادها أنها فى عصمته باطنا ولو ولدت منه بعد ذلك ولدا ورثه الاخوة معهم وان كان هذا خلاف الاحكام المترتبة على الموت الحكمى ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لا بد من الحكم عليهم بالموت الحقيقى فاخبرهم اهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والانصاف وان كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء اذا حصلت منهم خيانة وانما حكمت المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لامثالهم وصدق فى حقهم قول الشاعر

فهم من المجد فى حضيض * وهم من الجد فى الروابى

وهم اذا فتشوا وعدوا * اعز من عودة الشباب

ثم لما ان حكم عليهم بذلك قبل ان يطلعوهم على خلاصة المشورة اخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بى لاجلهم وخفروهم الى قلعة ونسينة فحبسوهم بها ومنها نقلوهم الى قلعة اخرى وهم محبوسون بها الى الآن والحكم عليهم بهذه الكيفية مما يدل على حسن اخلاق الدولة الفرنساوية

الفصل السادس فيما كان بعد الفتنة فى محاربة الفرنساوية على شرل العاشر وفى عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك

اعلم أنه جاء الى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر فى ايديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة وان اظهروا الفرح والسرور به فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء بولنياق امر بتسييب مدافع الفرح والسرور ولقد صدق من قال

وكم سرور طيه احزان * لاجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه حيث ان مراده نفذ وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر فما كانت ايام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة اعظم من تلك حتى أن مادة الجزائر نسيت بالكلية وصار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الاخيرة على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط واخذ منها ما يملكه وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه وللزمان صروف تدول * واحوال تجول * وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر باسباب واهية لا تقتضى ذلك بل بمجرد ارضاء هوى النفس واذا انتصر الهوى بطل الرأى ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع باخذ الجزائر ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة فمن جملة كلامه ما معناه أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ولا زالت كذلك انتهى مع أن الحرب بين الفرنساوية واهالى الجزائر انما هو بمجرد امور سياسية ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات

وعجادلات

ومجادلات منشاءها التكبر والتعاظم ❊ ومن الامثال الحكمية لو كانت المشاجرة شجرا لم تثمر الا ضجرا فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه وخربوه وافسدوا جميع مافيه حتى أنه اختفى ولم يعلم له اثر ثم ظهر واختفى ثانيا وهجم على بيته ثانيا ولازال مذموما مخذولا

قال الشاعر

لا تعجبن رويدا انها دول ❊ دنيا تنقل من قوم الى قوم

ثم ان الفرنساوية لما رأوا ان شرل العاشر اخرج باشا الجزائر من مملكته ايضا صاروا يهزؤن بشرل العاشر ويصورونه هو وباشا الجزائر فى الطرق ويكتبون فى وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة فمن جملة ذلك انهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر وانت ايضا بادت نوبتك كان الباشا يقول للملك استعفها مايهزؤا به وانت ايضا عزلت كما عزلتني

شعر

قل للشامتين بنا رويدا ❊ اما مكم المصائب والخطوب

وقال آخر

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ❊ ممن تطيشه المناصب والرتب

كم نعمة زالت بادنى زلة ❊ ولكل شئ فى تقلبه سبب

وكتبوا ايضا فى وقائع النوادر مانصه ان الباشا المذكور يقول لشرل العاشر قم بنا نلعب لعب كذا على قدر معلوم وان لم يكن معك شئ جعنا لك شيأ على سبيل الصدقة فمن الناس يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا وشرل العاشر خرج من بلاده فقيرا وصوروا ايضا الملك المذكور فى صورة اعمى يتكفف الناس ويقول فى سؤاله اعطوا بعض شئ للفقير الاعمى يشيرون الى أنه لم يتبصر فى عواقب الامور وصوروه ايضا هو ووزيره بولنياق خارجين من كنيسة اشارة الى انهما لا يعلمان الا فى هذه العبادة الباطلة وانهما قسوس لا امراء وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس فى بعض الاحيان لبس القسيسين ويقدس بالناس كالقسيس فى كنيسته التى فى سرايته وكانوا يصبون

فى البلد بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة فيها عشق هذا الملك وفساده فى صغر سنه وفسق المطران الكبير وهكذا وبان ابن ابنه ليس هو ابنا حقيقيا وانما هو ابن مزور والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الاوراق ليبيعوها فى ساحة بيت الملك الجديد الذى هو من اقارب الملك واعجب من ذلك أنهم يكتبون فى هذه الورقة ان الملك الجديد هو الذى كتب ذلك سابقا فى جرنالات الانكليز بعد ولادة حفيد الملك القديم ويصيحون بذلك ولا احد ينكر عليهم لما أن حرية الرأى قولا وكتابة تقضى بذلك وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه ازيد من ذلك ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم وتولية حفيد الملك السابق ولازالت هذه الفتنة باقية الآثار الى الآن وربما تعدت آثارها الى غيرها من البلاد فمن ذلك الفتنة التى ترتب عليها انعزال اقليم البلجيك من مملكة الفلنك وقد كان جزأ منها ومن آثارها ايضا طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم الموسقوبية ومنها الفتن التى وقعت فى بلاد ايطاليا

الفصل السابع فيما كان من دول الافرنج بعد سماعهم بانعزال الملك الاول وتقليد المملكة للملك الثانى وفى رضائهم بذلك

لايخفى أن العائلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدول الافرنجية على السلطان نابليون واخراجه ونفيه الى جزيرة سنت هلينة وترجيع هذه العائلة الى البلاد بعد أن كانت فى البلاد الغريبة فملك هذه العائلة انما هو بمعاهدة ملوك الدول الافرنجية فهى فى الحقيقة مملكة على فرانسا رغما عن انف غالب الفرنساوية فلما وقعت الفتنة خشى الفرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش الى بلادهم وينصبون كرسى هذه العائلة فخلصوا من ذلك بتملك العائلة الاخرى التى هى عائلة اورليان ولكنهم لم يعلموا هل ترضى الملوك بذلك اولا وعزموا على انهم اذا لم يرضوا بذلك وجاؤا لمحاربتهم حاربوهم ولو حصل ما حصل وجهزوا مايدل على ذلك ولنذكر لك هنا نسبة ملوك الافرنج بالنظر لهذه المادة فنقول اعلم أن ملك اسبانيا يوافق بسياسته

وملوكه سياسة ملك فرانسا القديم وهو أيضا من اقاربه لأن العائلة التى تحكم
بلاد اسبانيا من العائلة التى تحكم بلاد فرانسا فهى تميل اليها ظاهرا وباطنا
ومثلها فى ذلك الميل بلاد البرتغال فهاتان المملكتان لا يحصل منهما شئ يخاف
به على العائلة القديمة واما بلاد ايطاليا فان دولة نابلى ودولة رومة ودولة
سردينيا توافق ايضا فى سياستها سياسة البربون يعنى العائلة القديمة فحينئذ
ملوك هذه الدول تأثرت باطنا بما وقع فى بلاد الفرنساوية واما دولة المسقو ودولة
النمسا ودولة البروسه والانكليز فانها متعاهدة على تولية عائلة البربون القديمة
المملكة فهى ايضا تأثرت بذلك نوع تأثر وخصوصا الدولة المسقوبية واما
الدول الصغيرة ببلاد الافرنج فانها تابعة للدول الكبيرة فلم يبق مع دولة
الفرنساوية الجديدة الا بعض اقاليم صغيرة تريد الحرية غير أن اهل دولة الانكليز
اظهرت الرضى بما وقع فلذلك ملكهم كان اول من اعترف بالمملكة لملك
الفرنساوية الجديد وقد جرت العادة أن الملك اذا تولى لا بد من أن يعترف له
الملوك بالتملك ويقروه على ذلك وهو من الرسوم غالبا يقال ان حضرة مولانا
السلطان الاعظم لما سمع بذلك واخبره الايلجى اجاب بانه لا يصنع شيأ حتى يرى
ما تصنعه ملوك الافرنج فان اقروه على ذلك اقره ايضا ومدخلية الدولة العلية
فى ميدان دوائر الدول الافرنجية قليل ومن توقف فى الاقرار مدة طويلة
ملك الموسقو ثم بعد ذلك اقره بشرط أن لا يتغير شئ فى ميزان بلاد الافرنج يعنى
ان بلاد الافرنج تبقى على ما هى عليه من غير أن يحصل بها راجحية او مرجوحية
فى السياسة بمعنى أن مملكة فرانسا مثلا لا تزيد عما كانت عليه قبل الفتنة
والظاهر أن اكثر الملوك التى اقرت ملك الفرنساوية الجديد انما اقرته على ذلك
ورضيت بما وقع رضاء وقتيا حتى أن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به كأنها
لا تثق بذلك الصلح الذى تراه كأنه هدنة وتعليق ولما خرجت من فرانسا كان
جميع الناس يتوقع فيها اشتهار الحرب وظهوره بين النمساوية والفرنساوية
او الموسقوبية او الاسبانيول او البروسه والله سبحانه وتعالى اعلم بما كان وبما
يكون والفرنساوية الآن التئام مع الانكليز لم يسبق مثله ابدا واما الكلام على

الرجوع فراجعه في خاتمة الرحلة

المقالة السادسة في ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرودة في الباب الثاني من المقدمة وهي تشتمل على عدة كتب

الفصل الاول في تقسيم العلوم والفنون من حيث هي وفي ذكر الفنون والعلوم العامة لجميع التلامذة

(الفصل الاول في تقسيم العلوم والفنون على طريق الافرنج)

اعلم أن الافرنج قسموا المعارف البشرية الى قسمين علوم وفنون فالعلم هو الادراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين واما الفن فهو معرفة صناعة الشئ على حسب قواعد مخصوصة ثم ان العلوم تنقسم الى رياضية وغيرها وغير الرياضية تنقسم الى طبيعيات والهيات والعلوم الرياضية هي الحساب والهندسة والجبر والمقابلة والعلوم الطبيعية هي تاريخ الطبيعيات وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشايش والاعشاب وعلم المعادن والاحجار وعلم الحيوانات وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات مرتبة النباتات ومرتبة المعادن ومرتبة الحيوانات واما الالهيات فتسمى ايضا علم ماوراء الطبيعيات اوما فوق الطبيعيات واما الفنون فانها تنقسم الى فنون عقلية والى فنون عملية فالفنون العقلية مايكثر قربها من العلوم مثل علم الفصاحة والبلاغة وعلم النحو والمنطق والشعر والرسم والنقاشة والموسيقى فان هذه فنون عقلية لانها تحتاج الى قواعد علمية واما الفنون العملية فهي الحرف هذا هو تقسيم حكماء الافرنج والا فعندنا أن العلوم والفنون في الغالب شئ واحد وانما يفرق بين كون الفن علما مستقلا بنفسه وآلة لغيره ثم ان العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هي الحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والرسم ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنساوية ومايتعلق بها فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها

الفصل الثاني في تقسيم اللغات من حيث هي وفي ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية

اعلم أن اللغة لما كانت ضرورية في افهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه

وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم وفى المخاطبات والمحاورات وجب عند جميع
الامم على المتعلم أن يبتدئ بها ويجعلها وسيلة لما عداها واللغة من حيث هى
الالفاظ المخصوصة الدالة على المعانى المخصوصة وطريقها الكلام والكتابة
المختلفة باختلاف الامم وهى قسمان لغات مستعملة ولغات مهجورة فالاول
ما يتكلم بها الآن كلغة العرب والفرس والترك والهند والفرنسيس والطليانية
والانكليز والاسبانيول والنمسا والموسقو والثانى ما انقرض اهله واندرست اربابه
ولم يبق الا فى الكتب مثل اللغة القبطية واللاطينية واليونانية القديمة المسماة
بالاغريقية ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى المخاطبات نافعة لمن اراد
الاطلاع على كتب المتقدمين فى بلاد الافرنج توجد مدارس مخصوصة معدة
لتعلم هذه الألسن لما يعلمون من نفعها وكل لغة من اللغات لا بد لها من قواعد
لتضبطها كتابة وقراءة وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية اغرمتيقا وباللغة
الفرنساوية اغرمير ومعناها تركيب الكلام يعنى علم ضبط اللغة بنحوها فلا مانع
من ان يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى وهو مرادنا هنا فهو علم به يعرف
تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال والكلام
ما قصد به افادة السامع معنى يحسن عليه السكوت وهو يتركب من الكلمة
واقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة الاسم والفعل والحرف والاسم اما ظاهر
نحو زيد أو مضمر نحو هو أو مبهم نحو هذا والفعل اما ماض كضرب او مضارع
كيضرب او أمر كاضرب والحرف اما مختص بواحد من قسميه كلن وقد
او مشترك بينهما كهل وبل وانما قسمنا هذا التقسيم هنا لانه سيأتى لنا
أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الاشارة قسمان للاسم ولا يعدان منه بوجه
من الوجوه فانهم جعلوا اجزاء الكلمة عشرة كل واحد منها قسم مستقل له
علامة وهى الاسم والضمير وحرف التعريف والنعت والمشترك وهو اسم
المفعول والفاعل والفعل والظرف ويسمى عندهم مكيف الفعل وحروف الجر
وحروف الربط وحروف النداء والتعجب ونحوه فيقولون فى تعريف الاسم هو كلمة
تدل على شخص او شئ اى على العاقل وغير العاقل مثل زيد وفرس وحروف تعريف

الضمير هو ما يقوم مقام الاسم وحرف التعريف هو ايضا عندهم لام التعريف كما عندنا الا انه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه فانه للمذكر ل بالضم وفى المؤنث ل بالفتح وبجمعهما لس ولكن السين لا ينطق بها ويقولون فى تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الاوصاف كحسن وجميل فهو نظير الصفة المشبهة واما اسم الفاعل واسم المفعول فانهما نحو ضارب ومضروب والظرف عندهم مثله فى لغة العرب وحروف الجر مثل الظروف وحروف الجر فى اللغة العربية فاذا قال الانسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده فان قبل وبعد من حروف الجر عندهم واذا قال جاء زيد اولا اوقبل اونحو ذلك فانه ظرف واما الحروف الروابط فانهم يعرّفونها بانها ما تتوسط بين كلمتين او جملتين نحو واو العطف فى قولك جاء زيد وعمرو ونحو أن فى قولك اؤمل أن اعيش زمنا طويلا ومن هذا القسم اذن وحينئذ من نحو قولك أنت عاقل فاذن أنت قابل للتعلم او أنت سفيه فحينئذ قابل وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم ويظهر أن قول بعضهم اقسام الكلمة او الكلام ثلاثة فى سائر اللغات وان الحصر عقلى لعله استقلالها بالمفهومية وعدمه ودلالة ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شىء ورأيت فى كتب الفرنساوية من قسمها اولا الى هذه الاقسام الثلاثة ثم قسمها تقسيما ثانويا فالحصر حينئذ عقلى على حاله ثم ان كل انسان يعبر عن مقصوده اما بالكلام او بالكتابة فكلامه يسمى عبارة ومنطقا وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى نصا او مسطرة وقلما فقد يكون قلم الانسان افصح من عبارته فانه قد يكون الانسان ألكن ويكون قلمه فصيحا ثم انه اذا افصح وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية وان كانت عبارته مؤدية للمقصود من غير ركاكة فهى مناسبة وان كان بها بعض شىء يمجه السماع فهى ركيكة اورديئة وعلى كل فالعبارة اما بها اطناب او اختصار او على الاصل ثم ان الكاتب اما ان يفصح عن مراده بنظم او نثر وعلى كل فاما ان يكون كلامه او تأليفه باللغة المستعملة فى المحاورات المسماة الدارجة او باللغة المواقفة لقواعد النثر هو الاصل

فى الكلام والتأليف ولا يحتاج الى وزن وتقفية الا فى السجع وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك ولا اتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما واما اللغة الفرنسيس فلا ينظم فيها كتب العلوم أصلا والنظم هو أن يفصح الانسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى وهو يحتاج زيادة عن الوزن الى رقة العبارات وقوة الاسباب الداعية لنظمه ويعجبنى قول بعضهم موريا

صوغ القريض على اختلاف رجاله * ما بين حصبا لاتعد وجوهر
واذا أردت بأن تفوز بدره * فطالما خذه من صحاح الجوهرى

ولبعضهم

يامن يقول الشعر غير مهذب * ويسومنى التكليف فى تهذيبه
لوكان كل الخلق فيك مساعدى * لعجبت من تهذيب ماتهزو به

وقال بعضهم فى فقد الاسباب *

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة * باب الدواعى والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى * منه النوال ولا مليح يعشق

وقال اخر

الشعر لا يخفى عليكم حاله * فدبار وأسفاه بعد نفاق
وارحمتا لبنى القريض فانهم * ماتوا وهم احيا من الاملاق

ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب فان كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها نعم فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها فى لغة العرب وحصره فى البحور الستة عشر المستعملة هو مخصوص اللغة العربية وليس فى اللغة الفرنساوية تقفية النثر ومعرفة فن النظم لاتكفى فى نظم الشعر بل لابد أن يكون الشاعر به حيية النظم سليقة وطبيعة والا كان نظمه باردا وشعره غير مقبول

الى العربى مل فى نظم شعر * فذا اللسان أرباب الكمال
فشعر الفرس اسكرنا بجام * وشعر الترك طرز بالخيال

ولنذكر هنا خلاصة صغيرة من الاشعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات فنقول قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب في الغزل قول جرير

ان العيون التي في طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله انسانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة وهي أنه دخل اعرابي على ثعلب فقال له تزعم انك اعلم الناس بالأدب فقال كذا يزعمون فقال انشدني ارق بيت قالته العرب وأسلسه فقال قول جرير ان العيون الى آخره فقال هذا الشعر غث رث قد لاكه السفلة بألسنتها هات غيره فقال ثعلب افدنا من عندك يا اعرابي فقال قول مسلم بن الوليد صريع الغواني

نبارز أبطال الوغى فنبيدهم * ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب

وليست سهام الحرب تفني نفوسنا * ولكن سهام فوقت في الحواجب

فقال ثعلب لاصحابه اكتبوها على الحناجر ولو بالخناجر فشعر مسلم ابن الوليد أقوى حماسا من قول جرير وأقول ان نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

وقول ابن سهل الاسرائيلي

ان له عن دمي المسفوك معتذر * أقول حملته في سفكه تعبا

ومما يمكن نظمه في سلك قول مسلم ابن الوليد قول بعضهم

نعد العذارى من دواهي زماننا * واقتلها احداقها والمحاجر

ونشكوا اليها دائرات صروفه * واعظمها اطواقها والاساور

و يعجبني قول امين افندي الزلي في همزيته

واقرن صبوحك بالغبوق ولا تدع * فرص السرور بغدوة ومساء

واعقد بنت الحان واجعل مهرها * عقلي وأشهد سائر الندماء

واستجلها بكرا تقلد جيدها * بعقود در بل نجوم سماء

الى ان قال

واعدل عن العيدان وارشفها على * رقص الغصون وقهقهة الورقاء

الى ان قال

من كف ساق فى لماه ولفظه * وحديثه نوع من الصهباء

ويخده ورد حماه بأسهم * عن قطفه باللحظ والايماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازى

لا وغصن راق للطرف ورق * وعليه حلل الظرف ورق

وشموس لم تغب عن ناظرى * والشعور الليل والخد الشفق

وعيون حرمت نومى وما * حللت لى غير دمعى والارق

ما احمرار الراح الا خجل * من رضاب سكرت منه الحدق

والذى قد حسبوه حببا * فوق خد الكاس قطرات العرق

و يجتنى قول بعضهم

لولا شفاعة شعرها فى صبها * ما واصلت وازالت الاسقاما

لكن تنازل فى الشفاعة عندها * وغدا على اقدامها يترامى

و ينتظم فى سلكه قول بعضهم

سل سيفا من لحظه ثم ارخى * وفرة وفرت عليه الجميله

ان شكا الخصر طولها غير بدع * لنحيل يشكو الليالى الطويله

ومما يفوق قول الواوا الدمشقى او يساويه

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها * اما غدا زعموا اولا فبعد غد

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم

بنفسى بيضاء العوارض أقبلت * بوجه كأن الشرق من حسنه غرب

وبين الازار الملتوى حقف رملة * وبين الوشاح الملتوى غصن رطب

وتحت لثام الخز أنفاسها لنا * وفوق الرداء السكب ادمعها سكب

تبدت مع الاتراب تدعو على النوى * وان لم يكن فى الغانيات لها ترب

تسيل على الخد الاسيل دموعها * وصب دموع العين يروى به الصب

وقد وكانت احدى يديها بقلبها * مخافة ان يرفض من صدرها القلب
فلما اجزن الجسر قمن وراءه * كسرب من الغزلان ليس له سرب
وعضت بدر الثغر فضة معصم * يكاد يثنيه من الذهب القلب
وكادت تحط الرحل لولا عزيمتي * تسي جفون العين اسهمها الهدب

ومما يعد من الاشعار الرقيقة قول الشاعر

يصفر وجهي اذا تأمله * طرفي فيحمر خده خجلا
حتى كان الذي بوجنته * من دم جسمي اليه قد نقلا

ومما نسب للخليفة هارون الرشيد

واذا نظرت الى محاسنها * فلكل موضع نظرة نبل
وتنال منك بحد مقلتها * مالا ينال بحده النصل
شغلتك وهي لكل ذي بصر * لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها * عن ذي الهوى ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر * ولعينها من عينها كحل

ومن ارق ماقيل ايضا قول الشاعر

لاموا على صب الدموع كانهم * لا يعرفون صبابتي وولوعي
فأجبتهم وعد الخيال بزورة * أفلا أرش طريقه بدموعي

ومما يعجب في الرثا قول ابي الطيب في ابي شجاع فاتك

يامن يبدل كل يوم حلة * أنى رضيت بحلة لاتنزع
مازلت تخلعها على من شاءها * حتى لبست اليوم مالا يخلع
مازلت تدفع كل امر فادح * حتى أتى الامر الذي لايدفع
فظللت تنظر لارماحك شرع * بين الانام ولا سيوفك قطع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر * يبكي ومن شر السلاح الادمع
واذا حصلت من السلاح على البكا * فحشاك رعت به وخدك تقرع

الى ان قال

من للمحافل والجحافل والسرى * فقدت بفقدك نيرا لايطلع

ومن اتخذت على الضيوف خليفة * ضاعوا ومثلك لايكاد يضيع

وقوله ايضا فى خاتك المذكور

لاخاتك آخر فى مصر تقصده * ولا له خلف فى الناس كلهم

من لاتشابهه الاحياء فى شيم * اضحى تشابهه الاموات فى الرمم

عدمته وكأنى سرت أطلبه * فما تزيدنى الدنيا على العدم

الى ان قال

الدهر يعجب من حملى نوائبه * وحمل جسمى على احداثه الحطم

وقت يضيع وعمر ليت مدته * فى غير امته من سالف الامم

أتى الزمان بنوه فى شبيبته * فسرهم وأتيناه على الهرم

وبالجملة والتفصيل فأحسن وأظرف سائر ما قيل

سلوت عن الاحبة والمدام * وملت عن التهتك والهيام

وسلمت الامور الى الهى * وودعت الغواية بالسلام

وملت الى اكتساب ثواب ربى * وقدما طال عزمى بالغرام

وما انا بعده معط عنان الـهوى لكن ترى بيدى زمامى

ابعد الشيب وهو أخو سكون * يليق بأن أميل الى غرام

فشرب الراح قص بعد هذا * ولو من راحتى بدر التمام

فكم اجريت فى ميدان لهو * خيول هوى وكم ضربت خيامى

وكم قبلت وردا من خدود * وكم عانقت غصنا من قوام

سأوفى الكاس تعبيسا وصدا * وان جاءت تقابل بابتسام

عزمت على الرجوع عن المناهى * ومثلى من يدوم على اعتزام

(الفصل الثالث فى فن الكتابة)

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء او حروف المعجم واغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات ومبدوءة بحرف الالف الا عند الحبشة فان حرف الالف هو الثالث عشر وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الامم وهى روح المعاملات واحضار الماضى وترتيب

المستقبل ورسول المراد ونصف المشاهدة ثم ان العرب والعبرانيين والسريانيين يكتبون من اليمين الى الشمال والصينيون يكتبون من اعلى الى اسفل وتكتب الافرنج من الشمال الى اليمين وهل الاوفق طبعا الكتابة من اليمين الى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم او العكس كما تكتب الافرنج * ممايدل على الاول ترتيب الاعداد فانها مرتبة طبعا وهى تبتدأ من اليمين الى اليسار فالآحاد التى هى اجزاء العشرات تكون على يمين العشرات والعشرات كذلك بالنسبة للمئات وهى كذلك بالنسبة للالوف واذا كانت الاعداد أصولا لغيرها يعنى اشياء اولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف اصحابها دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للاصل وثبت نقيضه وهو المراد وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الاعداد وكتابتها فقط فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع من باب أولى ويقال ان الكتابة من اعلى الى اسفل مخالفة لمقتضى الطبع ويقال ان العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن سيدنا أيوب عليه السلام وقد وقع اختلاف فى أن الحروف الهجائية هل هى من الاوضاع الالهية او من الاوضاع البشرية وعلى الثانى فقد وقع الاختلاف فى أنها من اوضاع اى ملة فقال بعضهم انها من اوضاع السريانيين او من اوضاع قدماء المصريين واستظهر الاول فعليه تكون انتقلت من السريانيين الى اليونان بدليل ان الحروف اليونانية هى عين السريانية الا انها انقلبت من الشمال الى اليمين ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم وجودة الخط لاتدل على الفضل وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل وقد تنازع الشعراء فى التفضيل بين السيف والقلم ثم بين قلم الانشاء والحساب واشار المتنبى الى تفضيل السيف فى قوله

السيف اصدق انباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب

واشار السيوطى فى كتاب الاوائل الى تفضيل القلم على السيف حيث قال

الكتب عقل شوارد الكلم * والخط خيط فرائد الحكم
بالخط تنظم كل منتثر * منها وتفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه * فرض عليه عبادة القلم

وتمام رفع المنازعة فى تاريخ الدول لابن الكردبوسى فى قوله قوام الملك شيأن السيف والقلم والثانى مقدم على الاول وبرهن على ذلك والظاهر أن يقال فى ذلك ما قيل فى الكاتبين من أن صناعة الانشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع فيقال ان السيف أرفع من القلم والقلم أنفع منه

الفصل الرابع فى علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع

وهو علم تحسين العبارة او علم تطبيق العبارة على مقتضيات الاحوال والمقصود منه على العموم توصل الانسان الى الافصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه وهذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى اى لغة كانت من اللغات فانه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الافرنجية بعلم الريطوريق ثم هذا العلم فى اللغة العربية اتم واكمل منه فى غيرها خصوصا علم البديع فانه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية لضعفه فى اللغات الافرنجية وبلاغة اسلوب القرءان الذى نزل اعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية ثم انه قد يكون الشئ بليغا فى لغة غير بليغ فى اخرى او قبيحا فيها وقد تتفق بلاغة الشئ فى لغتين او لغات كما اذا اردت ان تعبر عن رجل شجاع بأنه اسد فتقول زيد أسد فان هذا مقبول فى غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها واذا اردت ان تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال فتقول هو شمس او عن حمرة خده فتقول خدوده شلقى فان هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية غير مقبول أصلا فى اللغة الافرنجية وكذلك ما يقال فى الريق ونحوه مثل قول الشاعر

خليلىّ ان قالت بثينة ماله * اتانا بلا وعد فقولا لها لها

سها وهو مشغول بعظم الذى به * ومن بات طول الليل يرعى السها سها

بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى * اذا برزت لم يبق يوما بها بها

لها مقلة نجلاء كحلاء خلقة * كأن اباها الظبى او امها مها

دهتنى بود قاتلى وهو متلفى * وكم قتلت بالود من ودها دها

وماست بأعطاف لطاف تهزها * فما بت غصن البان من هزها زها

وقالت وقد سارعت فى السير دونها * وقاطعت طرقا دونها ومهامها
سلافة ريق عتقت ثم روقت * فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهى
وفى الشفة اللعساء دواء كل مدنف * فان كنت مشتاقا الى رشفها فها

فأغلب التشبيهات الموجودة فى هذه الابيات غير مقبولة عندهم لانهم يقولون ان الطبع لا يألف الريق مثلا لكونه آيلا الى البصاق واذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التى لم تفتح ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيس فبنى البلاغة عندهم على ما يقبله الطبع ويقال نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علمها كما أنه قد يحسنه غير البليغ وأغلب نفع البلاغة يكون فى الشعر والخطابات ونحوها من كتب الاداب والتواريخ واعظم نفع ذلك العلم التوصل الى معرفة اسرار التنزيل واعجازه وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن شعر ونظم وكهانة فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرءان الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فظهر لارباب العقول الصائبة انه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه وانه لا يشبه كلام المخلوقين فامنوا به واتبعوه الامن حق عليه العذاب فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الاحوال وكانت سائر عباراته مناسبة للاحوال لفظا ومعنى واذا اردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعانى والبيان والبديع

(الفصل الخامس فى المنطق)

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها الى غيرها والمشهور أن واضعه ارسطو الحكيم المسمى ايضا ارسطاطاليس وفى كتب الفرنساوية أن ارسطاطاليس هو الذى قد كمل هذا الفن وان أفلاطون ايضا هذبه وان زنون وضعه ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان والعروض للنظم ونحو ذلك ولهذا العلم مباد ومقاصد فمباديه التصورات والتصديقات ومقاصده التعريفات والاقيسة والتصور ادراك الغير

الحكم وعكسه التصديق فاذا تصورت حقيقة الرجل من غير ان تحكم عليه باثبات ونفي كان ذلك تصورا واذا حكم عليه بأنه عالم مثلا فانه يكون تصديقا والتصور قسمان بسيط ومركب فالتصور البسيط ادراك الشيء مجردا عن صفاته والمركب ادراك الشيء مع بعض صفاته مثال الاول ما اذا تصورت الانسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك ومثال الثاني ما اذا تصورته وميزته من الجماد بتحركه فالتصور لا يكون الا في المفردات كما أن التصديق لا يكون الا في القضايا والقضية هي حكم يحصل باثبات تصور الى آخر أو نفيه عنه فالتصور المسند اليه الاثبات او النفي يسمى الموضوع والتصور المسند الى الموضوع مما تقدم يسمى المحمول والموضوع والمحمول يسميان جزءى القضية وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة مثال ذلك ما اذا قلت زيد فصيح فان زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول والرابطة مقدرة والتقدير زيد هو الفصيح او زيد يكون فصيحا واما اذا قلت زيد هو الفصيح فان الرابطة ظاهرة ثم ان القضية اما كلية يعني مستغرقة لسائر الافراد كما اذا قلت كل انسان صنعة الله تعالى واما جزئية كما في قولك بعض الحيوان انسان وكل من القضية الكلية والجزئية مسورة واما شخصية واما مهملة فالاولى كزيد قائم والثانية كالانسان كاتب بقطع النظر عن الكلية والجزئية واما طبعية كما في قولك الظلم ردىء والقضية أيضا اما بسيطة او مركبة فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول كما في قولك الفضيلة حميدة والرذيلة ذميمة وبخلافها المركبة فهي ما تعدد فيها الموضوع فقط او المحمول فقط او هما معا كما اذا قلت الفضيلة والرذيلة ضدان او الفضيلة محبوبة مطلوبة او الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ونحو ذلك واذا كانت القضية المركبة مجموعة من عدة قضايا بسيطة فانه يكفي في كذبها كذب بعض اجزائها واما التعريفات التي هي مقاصد التصورات ومعممات القضايا فانها تنقسم الى تعريف بالحد وتعريف بالرسم وتعريف لفظي فمثال التعريف بالحد قولك الانسان حيوان ناطق ومثال التعريف بالرسم قولك الانسان حيوان كاتب ومثال التعريف اللفظي قولك الانسان

هو الادمى اذا فرضنا ان لفظ الادمى اشهر واعرف من لفظ الانسان ويمكن ان يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الالفاظ المترجمة من لسان الى آخر مثال ذلك اذا قدرنا أن اعجميا لايعرف معنى كلمة الله فانك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له الله هو خداى وكل من الحد والرسم ينقسم الى تام والى ناقص على حسب كونه بالجنس او الفصل القريب او البعيد او بالخاصة او بالعرض العام كل منها منفردا او مجتمعا وهذا كله موضح فى كتب المنطق *

واما القياس وهو المقصود الاصلى من علم المنطق فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر مثال ذلك ما اذا قلنا ان الله سبحانه وتعالى لابد ان يقتص من الظالم للمظلوم فانك تقول هكذا الله سبحانه وتعالى حكم عدل وكل من كان كذلك فانه يقتص للمظلوم من الظالم فتكون النتيجة هكذا الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم يعنى سلمنا القضيتين الاولتين فلابد ان نسلم القضية الثالثة والقضيتان الاولتان تسميان مقدمتين واحداهما تسمى صغرى والاخرى كبرى وروح القياس هو النتيجة والقياس يكون صحيحا اذا كان صحيح المادة والصورة وفاسدا اذا فسدت احداهما والمراد بصحة المادة ان سائر قضاياه تكون صحيحة والمراد بصحة الصورة ان يكون منظوما على كيفية يكون انتاجها ضروريا والقياس الصحيح هو المسمى بالحجة والبرهان واما القياس الفاسد او البرهان الفاسد فيسمى سفسطة وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا لعدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة وفى كتب الفرنسيس أن القاعدة التى ينبنى عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هى اثبات أصلين احدهما مبنى الصحة والاخر مبنى الفساد وهما أن المستلزم لشئ مستلزم لذلك الشئ والمنافى لشئ مناف لشئ آخر هو مناف لذلك الاخر او مناف للاثنين معا وكيفية تطبيق هذا على القياس انك اذا بحثت عن الغضب هل هو مذموم فأردت أن تستدل على أنه مذموم فانك تبحث عن طرف القضية الذى هو الموضوع فانك ترى من جملة تعريف الغضب أنه عيب فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب فتركب مقدمة هكذا الغضب عيب ثم تقابل العيب مع

الذم الذى هو محمول القضية فانك تجد أن العيب يستلزم الذم فتقول العيب ذميم فاذا لما رأيت أن الغضب يستلزم العيب والعيب يستلزم الذم فانك تنتج منه أن الغضب ذميم فكل قياس لا يمكن ان تطبقه على هذا الاصل فانه يكون سفسطة مثال ذلك ارسطو فيلسوف وبعض الفلاسفة صالح فارسطو صالح فان الانتاج فاسد وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة لانه لا يلزم من كون ارسطو هو أحد الفلاسفة وأن بعض الفلاسفة صالح أن ارسطو صالح وبعض اجزاء القياس قد يحذف للعلم به كما فى قولك الفضيلة جيدة فينبغى كسبها والقياس اما حملى او شرطى فكل ما تقدم مثال الحملى ومثال الشرطى لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا لكن الشمس ليست بطالعة تخرج النتيجة قائلة فالنهار ليس بموجود ومحصل ذلك كتب المنطق ثم ان الافرنج كما يطبقون الكلمات على قواعد اللغة الفرنساوية ويسمون ذلك اعرابا نحويا يطبقونها على قواعد المنطق ويسمون ذلك منطقيا فاذا اراد انسان اعراب زيد فاضل اعرابا نحويا فانه يقول مثلا زيد مبتدا وفاضل خبره اونحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم واذا اراد أن يعرب اعرابا منطقيا فانه يقول زيد موضوع وفاضل محمول وهذه القضية قضية شخصية ويفعلون ذلك فى سائر الجمل

(الفصل السادس فى المقولات العشر المنسوبة الى ارسطو)

من المعلوم ان ارسطاطاليس حصر الاشياء المتعقلة فى عشر مراتب تسمى مقولات فجعل المواد داخلة تحت الاولى وجعل سائر الاعراض داخلة تحت التسعة الاخرى * المقولة الاولى مقولة الجوهر وهو جسمانى وروحانى * الثانية الكم وهو اما منفصل اذا كانت الاجزاء متفرقة مثل العدد أو متصل اذا كانت الاجزاء مجتمعة وهو اما متتابع مثل حركة الفلك او قار وهو المسمى العظم او الامتداد الجسم من الطول والعرض والعمق فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ومنهما مع العمق يحصل الجسم التعليمى * الثالثة الكيف وقسمه ارسطو الى اربعة أقسام فالاول هو الاستعدادات يعنى تهيئات العقل او الجسم المكسوبة بالاعمال المتكررة

مثل العلوم والفضائل والرذائل والقدرة على الكتابة والرسم والرقص والثانى القوى الطبيعية مثل قوة النفس والبدن كالادراك والارادة وقوة الحفظ والحواس الخمسة والقدرة على المشى والثالث القوى المشاهدة مثل الصلابة والرخاوة والكثافة والبرد والحر والالوان والاصوات والروائح والاذواق والرابع الصور والاشكال التى تنتهى بها الكم مثل الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية * الرابعة مقولة الاضافة وهى النسبة بين شيئين مثل الاب والابن والمخدوم والخادم والملك والرعية وكنسبة القدرة والارادة لمتعلقيهما والبصر للمبصر بالقوة وكالنسبة التى تقتضى المشاركة كالشبيه والمساوى والمباين والاصغر والاكبر * الخامسة مقولة الفعل سواء كان قائما بالفاعل مثل المشى والقيام والرقص والمعرفة والعشق او واقعا منه على غيره مثل الضرب والقتل الى آخره * السادسة مقولة الانفعال مثل الانكسار والانحراف * السابعة مقولة الاين يعنى جواب السؤال الذى يتعلق بالمكان مثل قولك فى مصر فى الحريم فى الفراش * الثامنة مقولة المتى وهو جواب السؤال الذى يتعلق بالزمان كما اذا قلت متى كان موجودا فلان فقيل من منذ مائة سنة اومتى وقع هذا فقيل البارحة * التاسعة مقولة الوضع كحالة الجلوس والوقوف وكونه قبل أو بعد أو امام على اليمين أو على اليسار * العاشرة مقولة الملك وهو وجود شئ مع الانسان منسوب اليه كاللباس والزينة والسلاح فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة فهذه المقولات العشر التى ذكرها ارسطو وعدت من الامور الخفية والافرنج يقولون انه ليس فى معرفة هذه المقولات كبير فائدة بل معرفتها مضرة لشيئين * الاول ان الانسان يظن انها مبنية على حكم عقلى ومحصورة بحصر استدلالى مع انها ليست الا اصطلاحية جعلية حصرها بعض الناس فى هذه الاقسام ليظهر بها الرياسة على غيره مع أنه يوجد فى ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقولات فى سبعة وسماها المواد العقلية المبادئة الاولى العقل او الجوهر المدرك الثانية الجسم او الجوهر ذو الامتداد الثالثة القدر أو صغر

كل جزء من اجزاء الهيولات الرابعة وضع الهيولات على التناسب بين اجزائها الخامسة صورة الاشياء السادسة الحركة السابعة السكون * الشئ الثانى ان متعلمها يكتفى بمجرد ألفاظ وهمية ويظن انه على شئ مع انه لم يعرف بها شيأ له فى الواقع معنى واضح محقق

(الفصل السابع فى علم الحساب المسمى باللغة الافرنجية الارتماطيقى)

اعلم أن الارتماطيقى هو أحد العلوم الرياضية الخالصة وذلك لان حكماء الافرنج قسموا الرياضيات الى خالصة وغير خالصة او مختلطة فالرياضيات الخالصة هى علم الحساب الغبارى والهوائى وعلم الجبر والمقابلة وعلم الهندسة ونحو ذلك واما الرياضيات المختلطة فهى علوم الحيل وفن تحريك الاثقال ونحوها والرياضيات الخالصة هى ما تبحث عن الكميات والاشياء القابلة للزيادة والنقصان والرياضيات المختلطة هى ما يدخلها اشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره والحساب اهم العلوم الرياضية وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم اهل برور الشام يعنى الصوريين وقدماء اهل مصر يعنى ان هاتين الامتين هما اول من جمع الاعداد والحساب وتظماهما فى عقد الترتيب حتى ان فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان الى مصر فتلقى فيها هذا العلم ومما اشتهر بين السلف ان علم الحساب من مخترعات الصوريين ويقال انهم ايضا اول من استعمل القوائم والدفاتر والظاهر أن الاصابع هى اول الطرق التى استعملها الانسان فى الحساب وان ذلك هو السبب فى كون اول عقد فى العدد هو عقد العشرات والثانى عقد عشرات العشرات التى هى المئات والعقد الثالث عقد عشرات المئات او الالوف وهكذا لان الاصابع عشرة فكان الانتقال من عقد الى آخر من عشرة الى عشرة ولما كانت الاصابع لا تكفى الا فى تمييز عشرة عشرة احتاج الامر الى طريقة اخرى وعلامات اخر فأخذوا صغار الحصى وحبوب الرمل والقمح ونحوها واستعملوها الضبط المعدودات كما هو الآن عند بعض همل امريكة وبعض همل غيرها من اقسام الارض حتى ان بعض قدماء الامم الماضين لا يوجد فى لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق

العشرات فانهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلا بقولهم سبعة وعشرين وعشرة عشرات وذلك لان الاقدمين كانوا يذكرون العدد الاصغر قبل الاكبر فيبتدئون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات وهكذا كما قال بعضهم انه يوجد في كتب العبرانيين واليونانيين مايدل على ذلك وهو أيضا اسلوب اللغة العربية فيمادون المائة واما الآن فقد تبحر الامم في علم الحساب وتنوعوا وتفننوا فيه حتى وصلوا الى كماله وحد علم الحساب علم يبحث فيه عن الاعداد من حيث مايعتبر بها من الاعمال والعدد اجتماع الاحاد وهو قسمان صحيح وكسر وزاد بعضهم ثالثا وهو ماتركب منهما وسماه عددا مشتملا على الكسور ويتعلق بهذه الاعداد اعمال اربعة هي الجمع والطرح والضرب والقسمة وهي معلومة في كتب هذا الفن واما علم الهندسة فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق كما اشرنا اليه في منظومتنا في علم الهندسة بقولنا

موضوعه قياس الامتداد * فخذه بالثلاثة الابعاد

الطول والعرض كذا والعمق * وشرح هذي غير مستحق

واما الجغرافيا فقد تقدم منها نبذة في مقدمة الكتاب وانما ينبغي لنا هنا ان نذكر اقسامها فنقول انه تارة ينظر الى الارض من جهة شكلها وسكونها او تحركها ونسبتها لما عداها من الاجرام الفلكية فتسمى الجغرافيا الرياضية او علم هيئة الدنيا وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية او المائية ومايتعلق بذلك مما يظهر على سطحها مثل الجبال فتسمى بالجغرافيا الطبيعية اى المتعلقة بطبيعة الارض وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف اهلها في الدين والملة فتسمى بالجغرافية الدينية وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف اهلها في التدبير والسياسة والرسوم والقوانين فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة بطول الازمان المختلفة في الارض وفي اجزائها بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية وهذه هي الاصول والا فالقسمة غير حاصرة ومن أراد

الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة بالتعريبات الشافية بمريد الجغرافيــة فانه موضح فيها غاية التوضيح غير أنه ينبغي لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التي هي علم الهيئة فنقول * الافرنج قسموا الكواكب الفلكيــة الى ثوابت والى سيارة والى سيارة السيارة والى ذوات الذنب وعدّوا الشمس من الثوابت والارض من السيارة والقمر من سيارة السيارة اى التابعة في السير لكواكب السيارة وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب كبرنيق السماوى وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون لفقد الالات عندهم ووجودها لهؤلاء الافرنج فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم احد عشر غير الشمس والقمر فان الاولى من الثوابت على رأيهم والثانى من سيارة السيارة ولنذكرها لك هنا على حسب قربها من الشمس فنقول * هى عطارد والزهرة والارض والمريخ ووستة بكسر الواو وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة اى المجمرة السيارة ويونون بضم الياء والنون بعدها واو وتسمى زوجة المشترى ويقال لها بنت زحل وسريس بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة ويقال لها قريس (اى السنبلة السيارة) وبلاس بفتح الياء وتشديد اللام ومعناه ابو الفلق والمشترى وزحل واورانوس بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة ومعناه الفلك الاعلى وهذه الكواكب الجديدة لايمكن رصد دورانها على نفسها الابصعوبة لصغر بعضها فى رأى العين وبعد البعض الآخر بل لايمكن رصد ماعدا اورانوس الا بالنظارات الفلكية ولهذا سميت عند الافرنج بالسيارات النظارية ويؤمل الافرنج كشف غيرها من السيارات * واما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للانسان الاطلاع عليه لاسيما أرباب الدول ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الافرنج فنقول

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الامم ان يفوز بالتعلم وهو ايضا تجربيات حوادث الاعصر التى تساعد الحال الراهنة ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكر فى ظاهر الآتى فنفسه يعتبر من اعتبر من جميع

الناس ايا ما كان مقامهم لما أنه يظهر على رؤس الاشهاد الآثار الرديئة المترتبة
على تشاجرهم واختلافهم ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق
بالاخلاق الجيدة مثل الحلم والعدل ومن التاريخ يفهم الملوك انه فى زمن سلطنة
ملك حسن التدبير ينبغى ان تكون شوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية قال بسوه
لو فرض ان التاريخ لا ينفع غير الامراء فانه يجب قراءته للامراء ولكن انما يفتح
التاريخ للعاقل كنوزه ليفهم منها خفياته ورموزه فيشغل فكره مدة
قراءته عن تغيرات معيشة الانسان الباطلة ثم ينتقل من ذلك الى مادة اهم من
ذلك فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التى تمس حلقتها الاخيرة خلق العالم
اوليس أن هذه السلاسل كيدان عظيم يطلع الانسان فيه دفعة واحدة على جميع
الامم والدول وازمان كل فانظر الى هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود
ونحوس فكم فيه من مدائن دثرت ومن دول انقرضت ومن ممالك ذهبت
واندثرت ومن محال خربت ومن مقابر عمرت فكان كل شئ يؤول الى القبور
وهى التى تعلو وحدها على ميدان الارض فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة
حقيرة اذا نظر الانسان من سماء التاريخ وكم يظهر أن الجمعية التى فى زماننا يسيرة
هينة بجانب جمعيات اهالى القرون والاعصار فشتان بين ملوك عصرنا الذين
يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس وملوك تلك الازمنة التى يظهر للاعين
كأنهم جبال مرفوعة على دائرة افق الاعصر السالفة وانظر ما تكون حروبنا
الوقتية وحبنا العلو والشرف الموقتين بجانب منازعة السلف من مبدأ العالم
على مكان من الامكنة او على شبر من أرض فمن نظر حق النظر فى عجائب التاريخ
فانه يكتسى بثياب الجد و يتجرد من ملابس الهزل و يصعد على ذروات النظر
فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره اشبه ببحر محيط تسبح فيه سفن آمال الخلق
وامانيهم من غير دقة عرضة للرياح الشديدة و ينتهى أمرها الى الانكسار
على ما يصادمها من الشعوب ولا تجد من المراسى ما ترسى عليه غير فرضات
القدم فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع حطام الدنيا الفانية
والمدح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلا شئ اوليس أن الدهر

تكبات وتغيرات في جميع ماوهبه واعطاه فأى مملكة امنا على كرسيها من السقوط واى دولة أيسنا على تختها من الارتفاع اومارأينا أن الهيكل الواحد يتداول على محرابه عدة اديان متباينة وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة وكم من قواعد فخر وغنى آل امرها الى أن اعقبها الفقر والحقارة وكم شوهد أن الخشونة والتقدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ويتبادلان على اجزائها من غير تخلل واسطة بينها وكيف قد آل امر لدائنها المدائن التى كنت عامرة ببلاد آسيا وقد كنت تحكمين على جميع الامم يامدن نينيوونس وبابل السحر أويا اصطخر فارس وتدمر سليمان كيف صارت الآن ممالك خرابا وقد كنت كراسي دول العلوم فلم يبق لك من فخارك القديم وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة مثل ماحل بمصر المباركة المصابة بالشقاء التى كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم والحكمة فكان الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة اما نعيم الانعام اوعذاب الانتقام مع انه لم يكن من الامم مثل قدماء مصر فى كونهم بذلوا جهدهم فى الجلوس على مبانى هياكلهم المشيدة وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين فبادوا جميعا وانقرضوا حتى ان اهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من اجناس الامم بل هم طائفة مجمعة من مواد غير متجانسة ومنسوبون الى عدة جنوس مختلفة من بلاد آسيا وافريقية فهم مثل خليط من غير قياس مشترك وتقاطيع شكل صورهم لاتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الانسان مصريا من سحنته فكانما سائر بلاد الدنيا اشتركت فى تأهيل بر النيل انتهى مترجما من مقدمة المنواجا آككوب فى تاريخ مصر وفى آخرها يمدح ولى النعم محيى بلاد مصر من العدم وقد مدحه ايضا فى قصيدة فرنساوية سماها ناظم العقود فى كسر العود وقد ترجمتها وذكرت بعضا منها فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة وعلم التاريخ واسع وان شاء الله تعالى بأمر ولى النعم يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية الى لغتنا

وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة على التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتى تعد دولته من الازمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر مثل تجددها فى زمن خلفاء بغداد

* (الخاتمة فى رجوعنا من باريس الى مصر وفى عدة امور مختلفة) *

من المعلوم أن نفس القارى لهذه الرحلة تتطلع الى معرفة نتيجة هذا السفر الذى صرف عليه ولى النعمة مصاريف لم تسبق لاحد من الملوك ولا سمع بها فى التواريخ عند سائر الامم وانما تسطيرها فى تاريخ دولة الخديوى مما يدل على أن حضرته العلوية * صاحبة الهمة العلية * قد تبصرت فى عواقب الامور * واصابت المرمى فى جميع ما شرعت فيه مما يبقى به الذكر على ممر الدهور * ولا شك أن ذلك تقصر عنه همة قيصره وتكل عن نيل مثله قوة اسكندر الاكبر * ولا يمكن لمثل نابليون أن يفوق فيه نباله * ولا لمثل افريدريقوس أن يوجه اليه باله * او يميل اليه آماله * فكيف وارسال ولى النعمة للافندية الى باريس قد نجح غاية النجاح واثمر * حيث ان جلهم قد اكتسب رضا صاحب السعادة وسارع فى المطلوب وعن ساعد الجد والاجتهاد شمر * فقد ارضع حفظه الله تعالى فى تلك الديار بالبان العلوم اطفالا * حتى صاروا بكمال المعارف رجالا * بل منهم من وصل الى رتبة اساطين الافرنج فهم ما بين مدبر للامور الملكية * حائز كمال الرتبة فى السياسات المدنية * كحضرة صاحب البراعة واليراعة رب الطالع السعيد * وذو الصابة والرأى السديد * عبدى افندى وما بين متمكن فى معرفة ادارة الامور العسكرية * وراق فيها الى درجة علية * وما بين ربانى بسائر الامور البحرية * او خبير بالطب او بالكيميا الصحية المرضية * وبصير بالطبيعيات * وماهر فى علم الزراعة والنباتات * ومنهم فائق الاقران فى الفنون والصنائع * وحرى بفتح فبريقات تشتهر ببراعته بغير منازع * ولولا خوف الاطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الافندية * على حسب حوزه للمراتب العلية * ولعمرى لا استطيع عدم التعرض لعدة اشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز * غير أنى اسلك فى ذكرهم غاية الايجاز * كيف لا أقول ان حضرة

مصطفى مختار بيك افندى قد بلغ درجة كبار الفرنساوية * فى علم ادارة المهمات العسكرية * وقد حاز مرتبة سامية من العلوم * وتمكن من المنطوق منها والمفهوم * ولا شك انه ممتاز بالعلوم التدبيرية * وجامع لمعارف الديار الافرنجية وسع الله به دائرة المعارف بممالك مصر والشام * وجعله مقبولا لدى ولى النعم الاكبر وسر عسكر نجله الضرغام * وليس كل من اكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف * قال الشاعر

وعادة السيف ان يزهو بجوهره * وليس يعمل الا فى يدى بطل

واما حضرة حسن بيك افندى وكذا الافندية البحريون ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهان يدل عليه امتيازهم بين الاقران وشهرة اسطفان افندى غنية ايضا عن البيان فقد حاز من العلوم ما حاز وفاز من الفنون بما فاز ولا ينكر فهم ألطين افندى فى جميع انواع العرفان ولا خليل افندى محمود وتعلم احمد افندى يوسف مشهود وغير مجحود * وبالجملة فالجل من الافندية حصل المرام * ورجع لنشر هذا بديار الاسلام * ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير الى مصر ليتم غرض هذه الرحلة فنقول * خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦ وسرنا نقصد مرسيليا لنركب البحر ونرجع الى اسكندرية فمررنا على مدينة فنتنبلو بقرب باريس بها قصر سلطانى وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرانسا وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من الميلاد ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة والقصد منه انه تبقى آثاره لتذكر رجوع البربون فى فرانسا فتجدد مرسوما عليه اسماؤهم وتاريخ ولادتهم وغير ذلك وفى هذه الفتنة الاخيرة محى الخلق هذه الاسامى فلا يشاهد منها الا الآثار وهكذا عادة الزمان فى تلونه بجميع الالوان وغدره وفتكه بقوم واقباله على آخرين قبل تمام يوم قال الشاعر

قتلت صناديد الرجال فلم أدع * عدوا ولم امهل على جبشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم * فشردتهم غربا وبددتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة * وصارت رقاب القوم اجمع لى رقا
رمانى الردا سهما فاخمد جمرتى * فها أنا ذا فى حفرتى عاطلا ملقى

وكتابة تلك الرسوم من عادة الافرنج تأسيا بالسلف من اهالى مصر وغيرهم فانظر الى بناء اهل مصر للبرابى واهرام الجيزة فانما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم اليها من راها ولنذكر لك اراء الافرنج فيها وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الاوهام فنقول * ملخص كلام الافرنج ان الذى بناها هو ملوك مصر وانه اختلف فى زمن بنائها فبعضهم زعم انها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة وان البانى لها ملك يقال له قوف وبعضهم قال ان البانى لها ملك يقال له خيس اوخيوپس والاظهر ان احجارها منحوتة من صعيد مصر لا من الجيزة وقال بعضهم ان مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة وأن العملة الذين بنوها كانوا اثنمائة وستين ألف نفس ولكن بمصاريف عظيمة حتى أن ما صرف على البصل والكراث للعملة يبلغ على ما قاله بلنياس نحو عشرين مليونا من القروش المصرية ثم ان هذه الاهرام تنسب الى احد ملوك الفراعنة وانه اعد الهرم الاكبر ليضم جثته والآخرين لدفن زوجته وبنته فلم يدفن هو فى الاول بل بقى هذا الهرم الآن مفتوحا واما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته وسدا سدا محكما هذا ما حكاه الافرنج فى شأن الاهرام ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين

خليلى ما تحت السماء بنية * يشابه بنيانها بنا هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما * على الارض يخشى دائما سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الاهرام مضمنا عجز بيت من معلقة طرفة

لقد بت بالاهرام حول احبة * جفونى ببردايس وتجلد
يقول بها صحبى لبرد جليدها * وجيرى لا تهلك اسى وتجلد

قال السيوطى فى منتهى العقول انه يتعجب من قول العلماء ان أعجب ما فى مصر الاهرام مع ان البرابى بالصعيد اعجب منها والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات ولغرابتها نقل اليها الافرنج اثنتين الى بلادهم احداهما نقلت الى رومة فى الزمن القديم والاخرى نقلت الى باريس فى هذا العهد من فائض معروف ولى النعم واقول حيث ان مصر أخذت الآن فى اسباب التمدن والتعلم

على

على منوال بلاد اوروبا فهي اولى واحق بما تركته لها ملقها من انواع الزينة والصناعة وسلبه عنها شيأ بعد شي يعد عند ارباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلي به فهو أشبه بالغصب واثبات هذا لا يحتاج الى برهان لما انه واضح البيان وقد صنع نابليون في باريس عمودا مفرغا من المدافع التي سلبها من الموسقو والنمسا وقد حاول الموسقو اسقاطه حين حلولهم بباريس فما ظهر الا عجزهم عن ذلك ثم بعد أن جزنا فنتنبلو شاهدنا مدينة تيمور بعد سير أربع ساعات من فنتنبلو وهي على عشرين ساعة من باريس ثم بعدها مررنا على مدينة كونة على شط نهر ألوارة وهي مدينة تصنع فيها الهلاليب للمراكب السلطانية ثم على مدينة مولن وبها كثير من اولاد العرب الذين صحبوا الفرنساوية من مصر الى فرانسا ثم سرنا حتى وصلنا مدينة روانة وهي على سبعة وتسعين فرسخا فرنساويا على جنوب باريس قبل الوصول الى مدينة ليون بثلاثة عشر فرسخا واهلها تسعة آلاف نفس وبها ديوان مشورة للقبريات ومشورة للزراعة وكتبخانة ومخزن آلات طبيعية وهندسة وبها قنطرة لطريقة على نهر لوار ووصيف مشهور وهي ساحل لمركز تجارات ليون وغيرها من سائر انواع البضايع وبأراضيها مقاطع الرخام ونهر لوارة يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة وهذه المدينة غير مدينة روان البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا والتي يمر بها نهر السين والتي هي من اقليم نورمنديا ثم وصلنا الى مدينة ليون وقد تقدم الكلام عليها ثم وصلنا الى مدينة اورغون التي على جنوب باريس بمائة وثمانية وسبعين فرسخا فرنساويا وهي في سفح جبل شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى خوفا من اهلها ولا زلنا نمر ببلاد حتى وصلنا الى مرسيليا وقد تقدم الكلام عليها مستوفيا ومنها نزلنا في سفينة تجارية وسرنا قاصدين اسكندرية ولا حاجة ايضا الى ذكر ما شاهدناه لانه عين ما سبق في القصد غاية ما نقول ان كل من يعرفني من الفرنساوية طلب مني اني بمجرد دخولي اسكندرية اذكر ما يقرع فكري مما استغربه لبعد عهدي من مصر ولرؤيتي خلافه في بلاد الافرنج وتعودي على مشاهدة غيره بظهور لي غرابة ما أراه

اول وهلة حين وصولي فوعدت ووفيت هذا حاصل ما كان لحصته حسب الامكان فطريق علينا حينئذ الاذكر خلاصة هذه الرحلة وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر فأقول ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية واحوالهم السياسية انهم اقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الاجناس واقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ويسمون العرض شرفا ويقسمون به عند المهمات واذا عاهدوا عاهدوا عليه ووفوا بعهودهم ولاشك ان العرض عند العرب العرباء أهم صفات الانسان كما تدل على ذلك اشعارهم وتبرهن عليه آثارهم قال الشاعر

واني لحلو للصديق واتقي * لمر لذي الاضغان ابدي له بغضي

واني لاستغني فما ابطر الغنى * وابذل ميسورا لمن يبتغي قرضي

واعسر أحيانا فتشتد عسرتي * وادرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وهتك العرض هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار قال الشاعر

تعيرنا انا قليل عدادنا * فقلت لها ان الكرام قليل

وما ضرنا انا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل

يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

وانا لقوم ما نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول

اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

سلي ان جهلت الناس عنا وعنهمو * فليس سواء عالم وجهول

ولا يظن بهم انهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم في ذلك حيث ان العرض يظهر في هذا المعنى اكثر من غيره لانهم وان فقدوا الغيرة لكنهم ان علموا عليهن شيأ كانوا اشر الناس عليهن وعلى انفسهم وعلى من خانهم في نسائهم غاية الامر انهم يخطئون في تسليم القياد للنساء وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شئ كما قال الشاعر

اذا غاب عنها البعل لم تفش سره * وترضي اياب البعل حين يؤوب

قال الزمخشري عند قوله تعالى حكاية عن قول العزيز واستغفري لذنبك

الملك كنت من الخاطئين ما كان العزيز الا حليما وقيل انه كان قليل الغيرة قال الشيخ اثير الدين ابو حيان فى تفسير هذه الاية الكريمة وتربة مصر اقتضت هذا بعنى قلة الغيرة واين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا وهو انه كان مع ندمائه المصيصين به فى مجلس انس وجارية تغنى وراء الستارة فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية وكانت قد غنت بهما فالبث أن جيئ برأس الجارية مقطوعا فى طشت وقال له الملك استعد البيتين من هذا الرأس فسقط مغشيا عليه ومرض مدة حياة ذلك الملك اقول واين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصورى على محبوبه حيث قال

تعلقته سكران من خمرة الصبا * به غفلة عن لوعتى ونحيبى
وشاركنى فى حبه كل ماجد * يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها * فان حبيبى من أحب حبيبى

انتهى سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة وبالجملة فسائر الامم تشتكى من النساء ولو العرب قال الشاعر

لقد باليت مظعن ام اوفى * ولكن ام اوفى لا تبالى

وقال آخر

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله * فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه * وشرخ الشباب عندهن عجيب

وحيث ان كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء وملخص ذلك ايضا أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن اوسترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين وقد جرب فى بلاد فرانسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الاعيان والرعاع فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ويتهمون فى الغالب فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية

نساء العائلة الملكية المسماة البربون على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجة ابن ملك فرانسا المعزول التي هي ام الدولة دوبردو الذى خلع عليه جده المملكة بعد عزله ولم يقبله الفرنساوية وقالوا ان هذا الولد ابن زنا فان امه ولدت ولدا آخر من الزنا وادعت أنها تزوجت سرا فانكسر بذلك ناموسها وبعد ان كانت تطلب مملكة فرانسا لابنها الاول وكانت اخذة فى اسباب توليته وكان يخشى منها وقوع شىء فى المملكة سقطت من الاعين وبعد أن وقعت فى يد الفرنساوية وكان يظن هلاك كهاتركوا سبيلها قائلين انها صارت مهملة ورجعت الى اهلها وبلادها الاخير ومن أغرب ما وقع ببلاد الافرنج فى هذا الامر أن ملك الانكليز جرجس الرابع اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار العديدة واشتهرت بذلك عند الخاص والعام لكونها كانت تسافر ببلاد الافرنج مع من تريد ولها فى كل محل عشاق فلما رفع امرها عند شرعهم واقيمت الدعوى كما ينبغى وتصدى لاثبات زناها طلاقها ليتزوج بغيرها لم تثبت امور كافية فى الطلاق فحكم القاضى بابقائها على عصمته قهرا عنه فبقيا متفرقين ولكن لم يتزوج غيرها وذاع امرها وشاع ولكن فى الحقيقة وان كان يعتقد فيها ذلك الا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة والا لاتلم عرضه فمادة العرض التى تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال وغير ذلك من صفات الكمال ويدخل فى العرض ايضا العفاف فانهم تقل فيهم دناءة النفس وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب والمركوزة فى طباعهم الشريفة وان كانت الآن قد تلاشت فيهم واضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر واحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ومع ذلك فقد يوجد منهم من هو على اصل الفطرة العربية عفيف النفس على الهمة كما قال الشاعر

قد عفى وغنى والعفاف فاننى • اخذت عفافى فى حياتى دبدنى
واصعب من قطع اليدين على الفتى • صنيعة برّ نالها من يدى دنى

واما الحرية التى تطلبها الافرنج دائما فكانت ايضا من طباع العرب فى قديم الزمان كما تنطق به المفاخرة التى وقعت بين النعمان ابن المنذر ملك العرب وكسرى

ملك الفرس وصورتها أنه قدم النعمان على كسرى وكان عنده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم ولم يستثن فارسا ولا غيرها فقال كسرى وقد اخذته الغيرة يا نعمان لقد فكرت فى العرب وفى غيرهم من الامم ونظرت فى حال من يقدم علىّ من الوفود فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع الفتها وعظيم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق دينها ورأيت الهند شهيرة الحكماء طيبة الثراء كثيرة الانهار والبلاد والثمار عجيبة الصناعة مروتقة الحسبان معمورة بالاهل وكذلك الصين عجيبة فى اجتماعها وكثرة صنائع ايديها وهمتها فى الحروب وصنعة الحديد وان لها ملكا يجمعها وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس فان لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم وتدبر امورهم ولم أر للعرب شيأ من ذلك من خصال الخير فى امر دين ولا دنيا ولا حزمة ولا قوة ولا عقد ولا حكمة مع ما يدل على تدانيها وذلها وضعف همتها بحالهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة يقتلون اولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها واعظم طعام ظفروا به لحوم الابل التى يعافها كثير من الطيور والسباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وان أقرى احد ضيفا اعتدها مكرمة وان اطعم لقمة عدها غنيمة تنطق بذلك اشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ما عدا هذه التنوخية التى اسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها ليجرى له ذلك الى يومنا هذا فان لها مع ذلك آثارا وحصونا واموالا تشبه اموال بعض الناس لكنى اراكم لا تسكنون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس فقال النعمان اصلح الله الملك صدقت ان هذه الامة تسمو بفضلها وبعظم خطبها وعلو درجتها الا ان عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك من غير رد عليه ولا تكذيب له فان امنتنى من الغضب

عما أتكلم به فعلت قال كسرى وأنت آمن فقال النعمان اما امتك فلا تنازع
فى الفضل لموضعها التى هى به من عقولها واخلاقها وبسطة محلها وبحبوحة
عزها وما اكرمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك واجدادك واما الامم التى
ذكرت فامن امة الا فضلتها العرب بفضلها قال كسرى لماذا قال النعمان
بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة
ألسنتها وشدة عقولها ووفائها فاما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك
واجدادك الذين فتحوا البلاد ووطئوا العباد واقاموا الملك وقادوا الجيوش
ولم يطمع فيهم طامع ولم يزالوا عندهم محترمين ولانال احدا منهم نائل بل
حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الارض وسقوفهم السماء والى جانبهم
السيوف وعدتهم الصبر اذ غيرها من الامم انما عزها بالحجارة والطين
والجزائر والصور والقلاع والحصون واما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف
بذلك فضلهم على الهند المحترقة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة
الوجوه واما انسابها واحسابها فليس امة من الامم الا وقد جهل آباؤها واصولها
وكثير من اولها وآخرها حتى ان احدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب
ولا يعرفه وليس احد من العرب الا ويسمى آباءه ابا فأبا احاطوا بذلك احسابهم
وحفظوا بذلك انسابهم فلا يدخل رجل فى غير قومه ولا ينسب الى غير نسبه
ولا يدعى الى غير ابيه واما سخاؤها فان أدناهم رجلا يكون عنده
البكرة والناب عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى
بالفلذة ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى ان يخرج له عن دنياه كلها فيما يكسبه
من حسن الاحدوثة وطيب الذكر والثناء واما حكمة ألسنتها فان الله تعالى
اعطاهم اشعارا ورونق كلامهم وحسن وزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة
وضربهم الامثال وبلاغتهم فى الصفات ماليس من ألسنة الاجناس ثم ان
خيولهم افضل الخيول ونساءهم اعف النساء ولباسهم احسن اللباس ومعادنهم
الذهب والفضة واحجار جبالهم الجزع ومطاياهم التى لا يبلغ الاعلى مثلها سفر
ولا يقطع الا بمثلها بلد قفر واما دينها وشريعتها فانهم متمسكون به أعظم تمسك

وان لهم

وأن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل فيه قاتل ابيه واخيه وهو قادر على اخذ ثاره منه وادراك رغمه فيه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله اياه احتراما لذلك البيت وتشريفا له واما وفاؤهم فان احدهم يلحظ اللحظة فهي عقد لاهلها الا يرجع عما اضمره في نفسه حتى يبلغه وان احدهم يرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته خوفا من الله تعالى وان احدهم يبلغه أن احدا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيمنع عنه عدوه ويحميه منه ولو تفنى قبيلته او تلك القبيلة التى استجار عليها وذلك لما أخفر من جواره وان احدهم ليلجأ اليه المحروم والمحدث عنه بغير معرفة ولا قرابة فينزلونه عندهم وتكون انفسهم واموالهم دون ماله واما قولك ايها الملك حفظك الله انهم يقتلون اولادهم من الحاجة فانما يفعله من فعله منهم رغم أنفه حذرا من العار وخيفة وغيرة من الازواج * واما قولك ايها الملك ان افضل طعام ظفروا به لحوم الابل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها الا احتقارا له فعمدوا الى اجلها وافضلها فكانت مراكبهم ومطاعمهم مع انها اكثر البهائم لحوما واطيبها شحوما وارقها ألبانا واقلها غائلة وأحلاها مضغة وانه لا شئ من اللحوم يعالج لحمها الا استبان فضلها عليه * واما تحاربهم واكلهم بعضهم بعضا وتركهم الانقياد الى رجل واحد يسوسهم ويدبر امورهم فانما يفعل ذلك من الامم من علمت الضعف من انفسها وتخوفت من نهوض عدوها عليها فانهم يحتاجون الى ملك يدبر امرهم ويكون رجلا من اعظمهم شأنا وقدرا ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم فينقادون اليه بأزمتهم وينقادون الى امره * واما العرب ايها الملك فان كثيرا منهم لعظم كرمهم ووفائهم ودينهم وحكمة ألسنتهم ورضاء نفوسهم يقولون انهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم فلا ينقاد أحد الى الآخر لانهم اشراف * واما اليمن التى وصفها الملك فان آباء لك واجداد لك اعلم بما صاحبها لما أتاه ملك الحبشة فى مائتى ألف وتغلب على ملكه وجاء الى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من اجدادك ولا آبائك فاستجار بالعرب فأجاروه ولولا

ماوتربه من بلية العرب لمال الى نقص ولم يرجع الى محله ولولا انه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الاحرار وتبدد شمل الكفار ويذبح العبيد الاشرار لم يرجع الى اليمن قال فعجب كسرى مما اجابه النعمان ثم قال له انك لاهل لموضعك من الرياسة ولاهالك ولاهل اقليمك ولما هو افضل منه ثم كساه وانعم عليه واعطاه اشياء جزيلة ثم سيره الى موضعه من الحيرة ثم بعد ذلك سير اليه وقتله ٭ والتنوخية فرقة من اليمن قال المتنبي على لسان بعضهم

قضاعة تعلم أني الفتى الـــذي ادخرت لصروف الزمان

ومجدي يدل بني خندف ٭ على أن كل كريم يمان

انا ابن اللقاء انا ابن السخاء ٭ انا ابن الضراب انا ابن الطعان

انا ابن الفيافي انا ابن القوافي ٭ انا ابن السروج انا ابن الرعان

طويل النجاد طويل العماد ٭ طويل القناة طويل السنان

حديد اللحاظ حديد الحفاظ ٭ حديد الحسام حديد الجنان

يسابق سيفي منايا العباد ٭ اليهم كأنهم في رهان

يرى حده غامضات القلوب ٭ اذا كنت في هبوة لا اراني

سأجعله حكما في النفوس ٭ ولو ناب عنه لساني كفاني

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال حضر رجل من اهالي مصر الى عمر بن الخطاب وجعل يشكو من عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين ان هذا مقام العائذ فقال عمر لقد عذت فما شأنك قال تسابقت بفرسي انا وابن عمرو بن العاص فسبقته فحمل علي بسوط في يده وجعل يقنعني بالسوط ويقول لي انا ابن الاكرمين وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشي أن آتيك لاشتكي ولده وحبسني فتفلت من الحبس وها أنا قد اتيتك قال فكتب كتابا عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص انه اذا اتاك كتابي هذا احضر لموسم يعني الحج انت وابنك ثم التفت الى المصري وقال له قم حتى يأتي غريمك فلما حضر عمرو بن العاص وابنه الحج وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين يديه وشكى المصري كما شكى اول مرة فاومأ عمر بن الخطاب وقال له خذ الدرة وانزل بها عليه قال فدنا المصري

من

من ابن عمرو بن العاص وزل عليهما وعن أنس قال والله لقد ضربه ونحن
نشتهى أن نضربه فلم يزل يضربه حتى استحيينا أن لا يضربه وذلك من كثرة
ما يضربه وعمر رضى الله عنه يقول اضرب ابن الاكرمين قال عمرو بن العاص
قد شفيت يا أمير المؤمنين قال عمر بن الخطاب للمصرى انزع عمامته وضع الدرة
على صلعة عمرو فخاف المصرى من ذلك وقال يا امير المؤمنين قد ضربت من
ضربنى فقال اضرب من لم يضربنى فقال عمر رضى الله عنه والله لو فعلت لما
منعك احد ثم التفت رضى الله عنه وقال لعمرو بن العاص متى استعبدت
من ناس وقد ولدتهم امهم احرارا انتهى فمنه يفهم أن الحرية ايضا من طباع
العرب من قديم الزمان * هذا ولا ينبغى لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر
محاسن من ساعد ولى النعم فى نجاح مقصوده من ترتيب امور التلامذة وتعليمهم
بمدينة باريس محب البلاد المصرية واهلها الخواجة جومار فانه يسعى بهمته
ورغبته فى تنفيذ مقصد افندينا ولى النعم ويسارع فى المصلحة بلا انكار فكأنه
من ابناء مصر البارين بها فهو جدير بأن ينتظم فى سلك المحبين للذات الخديوية
ومما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى روزنامة الى أقاليم الاستعمال مصر
والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة فانه ذكر فيها انه ان
صدرت له ارادة سنية واوامر خديوية ليؤلفن كل عام روزنامة بهذا الوضع ليعين
على حسن تمدن الايالات المصرية فمن جملة ما قاله فى مقدمته انه يذكر فى هذه
الروزنامة عدة امور * الامر الاول الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة
لمصر من اولها لآخرها * الثانى تجارة اهالى اوروبا وآسيا وافريقية كقوافل
بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز ومقابلة الاقيسة والمكاييل والموازين
المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هى فيها * الثالث ذكر امور الزراعة فانها
كانت سببا فى سالف الاعصر فى غنى اهل مصر فلهذا ينبغى ان تكون
اول ما تهتم به الدولة فى مملكة مصر الطيبة التربة والزراعة كثيرة الفروع المهمة
فمن ذلك علم توفير المصاريف الفلاحية ويتشعب عنه اصلاح المزارع والمروج
المستحدثة المدبرة وتعميم زراعة القطن والنيلة والعنب والزيتون والتوت

واستخراج دقيق النيلة واستخراج انواع كثيرة من الزيوت ومعرفة تربية النحل ودود القز ودود الصباغة وتعهد الحيوانات الاهلية وتحسين الحيوانات البلدية بتزاوجها عن غيرها كالخيل والمعز وحيوانات الاصواف وجلب البهائم البرانية ومعرفة طب البهائم ومعالجة امراضها كرض السواف وحفظ الحبوب من السوسة وغرس الاشجار وترتيبها بحافات الطرق وخدمة البساتين وسائر الابنية الفلاحية المناسبة لمصالح الزراعة وفي مادة الزراعة تذكر الترع والخلجان المعدة لسقي الاراضي وللاسفار وكذلك تذكر الطرق والجسور والقناطر في السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه فهذه كلها تذكر في الفلاحة * الرابع تتكلم على امور مختلفة من علوم الطبيعة ومن علم المواليد الثلاثة ومن العلوم الرياضية وهنالك تتكلم على المادة المغناطيسية التي تستعملها الاطباء في معالجة الشلل ونحوه وكذلك القوة الكهربائية والحرارة الكروية والحوادث السماوية والندى والمطر الذي يحدث بين المدارين وكذلك تتكلم على احجار الصواعق وعلى جبال النار المسماة بالبركانية وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان وميزان الحر وميزان الرطوبة ووقاية الرعد والنظارات الفلكية والنظارات المعظمة للاشياء الدقيقة التي لا يدركها النظر وتتكلم ايضا على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها وعلى علم الحشائش الطبية والنباتات المستعملة في الفنون والصنائع وعلى البهائم النافعة وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة * الامر الخامس يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصار يف وسياسة الدولة وعلى تنبيهات على علم احوال الممالك والدول وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها وعلى أحوال المعاش والمعاد وعلى ولادة الذكور والاناث في كل بلدة من البلاد وعلى الادارة الملكية وعلى الاصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الافرنج وهي الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية اي الحقوق التي للدول بعضها على بعض * السادس سياسة الصحة العمومية والخصوصية ففي ذلك تتكلم على تلقيح البقري للجدري وعلى الطاعون ومعالجته وعلى الامراض

والعوارض

والعوارض العامة وعلى بعض تشريح * السابع نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم مثل علم الفصاحة * وفيه نتكلم ايضا على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة ونبذات فى تواريخ البلاد خصوصا مصر وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الافرنجية والمشرقية وكذلك نذكر شيأ من علم المنطق ونبين الوسايط السهلة المعلقة بالايجاز للقراءة والكتابة والحساب وطرق تعليم هذه الاشياء فى أقرب زمن لسائر العامة * الثامن نبحث فيه عن عدة اشياء متنوعة وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية واقامة العربات العامة وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة والاشارة المسماة تيلغراف بعنى اشارة الاخبار وجميع الاشغال المتجددة عند الافرنج ونضم لذلك لوحات اشكال لكمال الفائدة وكذلك نرسم خرطات جغرافية وصور النباتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغريبة وتربى فى مصر ونذكر كثيرا من الامور التى تتجدد على تداول الازمان وبالجملة فنذكر نبذا صغيرة منتشعبة من اصول علمية ومستفادة من أفواه الثقات سهلة الفهم لسائر الناس ولانستعير منها شيأ من صحاب الكتب انتهى كلامه ولم ينجز ماوعد به لانه علق ذلك على الارادة السنية ولم يصدر له امر الى الآن وبالجملة فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا ومن الراغبين فى خدمة ولى النعم حباله ولدولته

وهذا آخر مايسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لاينكر معارفها الامن لا انصاف عنده ولامعرفة له قال الشاعر

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لايخفى على أحد * الاعلى أكمه عمايراه عمى

ولاينبغى أن يضيع ذو الحق حقه كما قال الشاعر فى هذه الابيات المملوءة من الحكمة

اذا كنت فى حاجة مرسلا * فأرسل حكيما ولاتوصه

وان ناصح منك يوما دنا * فلاتنأ عنه ولاتقصه

وان باب امر عليك التوى * فشاور لبيبا ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه * فان القطيعة فى نقصه
ولا تذكر الدهر فى مجلس * حديثا اذا كنت لم تحصه
وقص الحديث الى أهله * فان الوثيقة فى قصه
ولا تحرصن فرب امرئ * حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله * وقد يعجب الناس من شخصه
وآخر تحسبه أنوكا * ويأتيك بالامر من فصه

ولا احد يخلص من قال الناس وقيلهم كما قال الشاعر

ومن ذا الذى ينجو من الناس سالما * وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية * والمدار على حسن الطوية * فلا معوّل على من لم يكن نير السياسة * ساطع الكياسة * ولا اكترات الا بمن رقى رتبة علية فى الرسوم والقوانين وتشبث بالشريعة وكان فيهما ذا رياسة * ودرى أن القصد انما هو حث أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس * وما يؤهلهم لاعلائهم الاحكام على هؤلاء الناس * وبالجملة فنحن الآن على ما كان عليه الامر فى زمن الخلفاء العباسية كما قال الشاعر

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه * وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أعاربي

يامن غدا معجبا بما اقترحت وقد * اضحى يروم ضلال العاذل اللاحى
اما رأيت اذا شمس الضحى غربت * يلجى المريض الى ضوء بمصباح

وقال آخر

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

وعلى كل حال فأرجو من نظر فيه أن يتصفحه بجملته ليكون على بصيرة مما أقول فان المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ولا أقول الا كما قال الشاعر

فالبيت وشيا حاكه * فى الطرس ذو باع قصير

واستر اذا عيب بدا * والله يعفو عن كثير

ولنختمها بالدعاء للحكومة الخديوية حماها الله وذريتها وجعلها سامية القدر بين دول الممالك المشرقية والمغربية شعر

فتية لم تلد سواها المعالي * والمعالى قليلة الاولاد

متع الله مصر واياالاتها بما أفاضه عليها ولى النعم من حسن القدن والعدل * وأمدلها أيامه بجاه خاتم الرسل الذى على مولاه دل * وحيث وافق من الطبعة الثانية تمامها * وصادف بالعناية ختامها * مبدأ ولية ولى النعم * وفي الكرم الذى سر بولايته الحاضر والبادى * والرائح والغادى * وحسن عند الخاصة والعامة منه المبادى * وله على الرعايا فى القديم والحديث جزيل النعم وجميل الايادى * من سلك جادة العدل والانصاف وعن مفازة الجور والاعتساف تحاشى * سعادة افندينا الاكرم الحاج عباس باشا * وكانت قد تشرفت مدرسة الالسن بتهنئته بالقدوم من حجه المبرور * وتقلده بمنصب الولاية الذى ادخل على الجميع السرور * فى ضمن قصائد لاتفى من مديحه بالمعشار * ولو نشرت بساط الاسهاب والاكثار * كما قلت

ماذا قصائد شاعر * لو آنه فيها مجيد

فى مدح من يروى العلا * والمجد عن عبد المجيد

احببت أن احلى طرس هذه الرحلة من تلك القصائد بفرائد * ليسوغ بذلك مشربها الصادر والوارد * فابتدأت منها بقصيدتى السينية * المتضمنة لبعض أوصافه السنية * فقلت

مابال مصر وقد جلت عن باسها * وافتر ثغر البشر من عباسها

وروت حديث الجود عنه مثل ما * روت ارتفاع النيل عن مقياسها

مابالها حيث الامانى تحقق وقتها * بابى الرجى من بعد شدة باسها

مابالها حيث الحقيقة يسوسها * ويزيد تشييدا رفيع أساسها

شبل تأسد حيث سار كاصله * هل تترك الآرام حفظ كناسها

ان سار نحو الحج خلف وحشة * اوعاد عادت مصر فى ايناسها

فلسا نهلنا بالشكر يلهج والثنا • والشكر للنعما اجل لباسها
لاغروان دانت لمصر قصد • أسدى له طسن محبة ناسها
ربحت تجارته من خزائن ماله • قلب الرعية وهو من حراسها
صدر وبالاخلاص مفرد عصره • يشفى صدور الناس من وسواسها
لمارقى العلياء رقى حالها • وصفت وراقت منه خمرة كاسها
بشرى الاهالى اذوفاها سعدها • فى فرط يقظتها وفقد نعاسها
قدكان يوم قدانه شبابها • تاريخ طرد مرائها ومراسها
سادت به مصر وحازت سوددا • يبدو به اذ كان نتج غراسها
هو من بنيها حيث والى برها • فلدى الولاية لاتقل له واسها
فصيده يحيى ما ترجيه • وبجد بالتأييد قوة باسها
بالالمعية لايسام ذكاؤه • ان شئت قسه بجنسها واياسها
وسلالة علوية هو درها • وبيان معناها بديع جناسها
وفصاحة عربية هو ربها • وبراعة هو منتهى نبراسها
وعقيدة مما يشين سليمة • تأبى طموح النفس فى انجاسها
هو جسم مصر وفرد جوهر روحها • فاعجب لفرد وهو جمع حواسها
تزهو به مصر كيانع جنة • تزهو بروض شقيقها وآسها
واذا المروءة قابلته بأصله • وفت النتيجة طبق شكل قياسها
يرمى الصفاة بطارف وبتالد • رمى الكماة السهم عن اقواسها
ان احببت وثقا عليه حبها • فالخير كل الخير فى احباسها
يوم الولاية كان يوم مسرة • فرحت به امم على أجناسها
فشريعة الاسلام زاد فخارها • وتشيدت بالعز بعد دراسها
واولو العهود به تقوى جاشها • امنا وقد شدت عرى استئناسها
ماذا مديحى وهو بدر طالع • يرقى من الجوزاء ذروة راسها
وسيرتقى فى الفخر اقصى شأوه • ان تضرب الاخماس فى اسداسها
ما نجل قصدى فى قصيدى كثرة • بل زينة الابيات حسبك ماسها

حسبي القبول اجازة لقصيدتي * ارج القبول بشرح من اقباسها
هي بنت هذا الفكر عباسية * نور الطلاقة لاح في قرطاسها

* (وقال ابراهيم افندي مرزوق خوجه بمدرسة الألسن مهنئا لولي النعم الاكرم بالقدوم من الحج مطرزا الاسم واللقب) *

علو رأيك في الآفاق مشهور * وسيف عزمك للعلياء مشهور
بوحدة المجد فقت السبع منزلة * وبيت مجدك مرفوع ومعمور
أنت الفريد الذي حازت خلائقه * ما ليس يلفيه حصر وتقدير
سست البلاد وأهليها فما أحد * الا بعدلك والاحسان مأسور
بهمة قيصر لو نال أيسرها * ما كان نال مناه منه سابور
لبست بالدين والتقوى علاك وكم * للدين عندك تعظيم وتوقير
شاهدت انوار بيت الله ساطعة * فثم وجهك نور فوقه نور
ان تسع نحوك من اقصى المدى رتب * فقد أفادتك أن الحج مبرور
حج به نلت ما نلت من شرف * وانت فيه بفضل الله مأجور
لافضل اعظم من هذا وانت به * اولى ولله ألطاف وتدبير
من ذا يدانيك في مجد وفي كرم * وبحر جودك بالاحسان مغمور
ياواحد المفرد زد عزا وزد شرفا * فكل شخص بما اوتيت مسرور
ومصر قد نشرت اعلام بهجتها * شوقا اليك وروض البشر ممطور
ان كان ذا الدهر اعمالا برمته * فكل ذنب له مذ جئت مغفور
لم يبق في الارض لا بدو ولا حضر * الا علا منه تهليل وتكبير
يا ايها الصدر عذرا عن مديح فتى * به عن القول في علياك تقصير
ما مدح مثلي وكل بالثنا لهج * وكل لفظ اتى في المدح اكسير
من بكر فكر تروق الطرف بهجتها * كأن سامعها في الناس مسحور
روح القبول بها قالت مؤرخة * بشراك حجك يا عباس مشكور

٥٦٦ ١٤٤ ٣١ ٥٢٣
١٢٦٤

ولها ايضا تهنئة لولي النعم الاعظم بالمنصب الاعلى * الذي عالي جنابه

يا روض حسن فى حديقة آس * ما العجب سوى وصالك آسى
ماحيلة الآسى وعقلى والحشا * ما بين كاس طلا وظبى كاس
ماحيلة الآسى ومالك مهجتى * صلف كثير التيه صعب مراس
وارى غرامى والجوى من طرفه الناعس اومن قده المياس
هو شمس حسن ان بدت ظلت لها الاحداق بين محقق ا وخاسى
بهرت محاسنه العقول وزاده * حسنا عذار للملاحة كاسى
يا عاذلى وأنا الوفى بعهده * لوم صبرى اوحلا لى ياسى
سل شعره عن طول ليل بته * وخلعت فيه على الخلى نعاسى
قصرت به زهر النجوم وصبرى * طالت وذكرى موحشى ايناسى
سهر ألذ من الكرى لما سرى * طيف الخيال ولم يكن بحواسى
ماذا عليه لو أفاد بأتى * نشوان من دمعى وجفنى كاسى
مالى نديم لا ولا ساق له * قلب على اهل المحبة قاسى
أبنقطة فى خده يرجو الوفا * دمع زيادته بلا مقياس
والوعد والطرف السقيم وخصره * كل بعهدى فى الهوى متناسى
وأرى الصبا ازكى رسول فى الهوى * لمراقب الواشين والحراس
فيفض ذا وجد بما يهوله * وتنم نفحته على الجلاس
ارأيت حين سرى الى مبشرا * بالقرب من ظبى الكناس الناسى
وظللت فيه زهير وقتى منشدا * بالله قل يا طيب الانفاس
من اين هاتيك الشذا ياصبا * ماذاك عن ورد ولا عن آس
عن احب رويت لا بل ذا الذى * اخلاق والى مصرنا عباس
عباس المولى الذى أخلاقه * امضى من الراح احتساه الحاسى
مولى لطالب رفده واضده * يرجى ويخشى فى الندى والباس
مولى تواضعت الورى فى حبه * وهواه بين تباين الاجناس
اكرم به فى حكمه من عادل * بجميل لطف للانام يواسى

فكأنما الرحمن صور شخصه * مما تألف من قلوب الناس

ما حلم أحنف ما سماحة حاتم * ما ذكر عنتر ما ذكاء اياس

من قاسه بسواه ممن قد مضى * كانت نتيجته بغير قياس

هو ماله فيما حواه مشابه * من حسن اخلاق وطيب غراس

من شاد ثاله مجده آباؤه * فطريفه قد بات فوق أساس

ان كان من حلم وبشر خلقه * فالباس كذلك كل طود راسى

فرحت به مصر وزاد سرورها * وانجاب عنها طارق الاجباس

لولا ندى هذا العزيز وبره * لرحلت عن وطنى العزيز وناسى

نشر الامان بها واجرى عدله * وازال ما بالصدر من وسواس

عدل به نفس العباد توطنت * من بعد ما قد كان من ايجاس

واستقر موكبه الشريف يحفه * افراط بشر بل مزيد حماس

وبزينه اللفظ الشريف مكللا * باسم شريف فيه كالنبراس

عبد المجيد الشهم سلطان الورى * من نسل غر طاهر الانفاس

ملك الملوك المنتقى من معشر * هم فى الورى كالتاج فوق الراس

من آل عثمان الذين فخارهم * لم يحوه الكتاب فى قرطاس

فيه ازدهى يا مصر مجدا والبسى * ثوب التشكر فهو خير لباس

أبقاك من ولاك مصر واهلها * من بعد ضرب الخمس فى الاسداس

ووقاك مما يتقى وامدنا * بك انعما وتزايد استئناس

فاقبل قصيدتى مدحك زانها * لا ما حوته من بديع جناس

من كل بيت رق جوهر لفظه * بلطيف معنى دق عن احساس

لما رقيت الملك قلت مؤرخا * مصر رقت بعزيزها عباس

١٣٣ ١٠٢ ٧٠٠ ٣٣٠

١٢٦٥

(وقال محمد افندى عبد الرازق احد المترجمين بمدرسة الالسن)

يبشر الله قد نلت من ايامك الاربا * هذا الحبيب بما تهواه قد قربا

محجب بالبها لا عين ترمقه • لقد جلا كرما فى وصلنا الحجبا

وزار وهنا وجنح الليل يستره • ولم اكن لازديارته مرتقبا

فقمت مستبشرا عند الوفا فرحا • اقبل الارض من اجلاله أدبا

فلا تسلنى عن طيف يشرفنى • لولا بشارته ناديت واحربا

اذ كل جارحة منى لها طرب • به ولا عاشق الا به طربا

ظبى من الترك قتال له خنجر • اما تراه قلوب العرب قد سلبا

تغار غيد ملاح الحى قاطبة • من قده اذ سلا أرواحنا وسبا

اصاب افئدة العشاق ناظره • فهل ترى عقل صب عن هواه صبا

وما ازدرى الروض الا ورد وجنته • ولا الثغور سوى ما زانه شنبا

فانظر الى وجهه والبدر يحسده • وهم غراما ودع من لام او عتبا

بدر أغار بدور الحى بهجتها • والشمس ابلاجها فى الكون والشهبا

شبهته مذهبا والبشر سيته • بوجه عباسنا الملك منتخبا

امير كل امير سعد طالعه • بالعز قد قهر الاعجام والعربا

روى حديث الندى والعز عن سلف • مسلسلا عن عطا انساله من ذهبا

يفتر عن ثغر ندب ظل مبتسما • الى العفاة فلا حد لما وهبا

سل عن نداه بحار الارض قاطبة • والغيث والسيل والنيل الذى عذبا

فكلها فى معانيها لها طرق • الى معالى نداه صار منتسبا

حتى غدا البائس العانى النزيل به • من بعد عسراه اغنى من رأى نشبا

الى الحكومة لما عز جانبه • وقد قضى من فروض الحج ما وجبا

شريف مفخرها سام كهمته • وكامل فهى عباسية النسبا

فان زهت مصر فى عهد العزيز به • وفاخرت كل امصار الورى رتبا

فاليوم عباسها عن جده خلف • ذيل الفخار على الماضين قد سحبا

فمن يكن حاذيا حذو الجدود الى الخيرات نال بعون الله ما رغبا

فاستقبل العدل فى ايام دولته • ولا تخف قط فى ايامه عطبا

يا خير من ام بيت الله مبتهلا • بالحزم وابتهرت اعداؤه رهبا

وخير من سار فى الآفاق سيرته * ومن عليه لواء النصر قد ضربا
وخير من شرفت مصر به وسمت * وخير من هو اعلى الماجدين ابا
وخير من حاز فضل السيف مستبقا * وخير من دبر الدنيا اذا كتبا
وخير من تعجز الاقلام اجمعها * عن وصفه بمديح جاء منتخبا
هنئت بالحج مبرورا وفزت به * ومثلك النائل المعروف اذ طلبا
سعيت والسعى مشكور الى حرم * من حجه لم يخف ضيما ولا نصبا
وطفت بالبيت منقادا لعزته * فكنت أفضل من قد طاف واقتربا
ونلت من زمزم شربا هنيت به * فكنت اكرم من فى حجه شربا
واصبحت مكة فى سوحها فرح * لما رأت من ندى معروفك العجبا
تالله ما وطئت رجلاك فى بلد * الا واخصب منه القحل واعتشبا
فكان ذا الحج مقبولا وقد فتحت * له الاجابة من ابوابها حجبا
فاهنأ به فهو مبرور وزد شرفا * بجوزك المنصب الاعلى كما وجبا
وزارة فى بيوت المجد قد قصرت * عليك كنت لديها خير من خطبا
وكنت قبل ثبيت العزم عن طلب * لها وصبرك عنها خير ما ندبا
فاقبلت وخيام الفوز قد نصبت * على علاك ومدت حوله طنبا
واقبل من النظم بكرا فى امتداحك قد * تضمنت من معالى جدك النسبا
جيت فى العز ما نادى السرور شدا * بشر الشعد نلت من امالك الاربا

(وقال سيد افندى صالح)

ما بازد كرك فى الحشا الاوجب * فلقد قضى من فرط حبك ما وجب
مالى وللاحى وما يهذى به * ما باله يلحى المتيم ما السبب
يا قلب لا تسمع مقالة عاذل * واركض بخيلك فى ميادين الطرب
واذا نهاك فقل له متهكما * ارح الفؤاد من العنا ومن النصب
واجعل نديمك ان شربت مهفهفا * واشغل عذب لماه لا بنت العنب
واخلع عذارك فى الهوى متهتكا * طلق العنان وخل فيه من عتب
واقطع بماضى العزم جهة آمر * ينهاك عن وصل الملاح ولا تهب

واذا اصبوت فلا يصدك عاذل * عن شادن اصمى فؤادك واحتجب
ألى كثير التيه احوى احور * تبيدا من لامنى فيه وتب
كيف السلام ودون مالاقيته * لم يبق من اهواله فى الحب صب
وجواد فكرى لم يزل مذ نشأتى * سباق غايات بمضمار الادب
حتى افتخرت بمدح اعلى سيد * سامى حمى اقطارنا عالى الحسب
عباس المولى المعز بيأسه * للدين والحامى به دول العرب
فهو المعز بمصره وبه سمت * وبحكمه عزت فلا تخشى النوب
وبعدله المنشور فى ارجائها * لم يبق جور وانجلت عنها الكرب
بلد على الدنيا اقد فخرت به * وبه تشرفت المناصب والرتب
اكرم به من مولى مليك عادل * شهم حليم للمعالى منتخب
انسى بما اعطى سماحة حاتم * ونوال معن او عرابة ان وهب
يا أيها المولى المولى مصره * من يمن بختك قد سمت ولا عجب
يا خير من أم الحجاز تطوعا * بشراك جئت للقبول غدا كنسب
جم حمى دار الخلافة بالغنا * فيها المرام كفوز جدك بالارب
دم فى المعالى وارق رتب العلا * فالى علاكم ينتهى شرف النسب

وقال حسن افندى رضوان احد تلامذة دروس الفقه بمدرسة الالسن
تهنئة لسعادة افندينا ولى النعم عباس باشا

برق الحجاز له قلب المشوق صبا * ام عطر نجد به ازداد الشجى وصبا
ام نسمة من منى فاحت بجانبه * فهام من عرفها نحو الحمى طربا
ام طلعة لخيالك البهيج بها * غدا الفؤاد من الاشواق مضطربا
يا طلعة البدر رفقا بالمشوق فقد * ابدى الغرام به ما اوجب العجبا
جسم ضعيف واجفان مقرحة * من السهاد وقلب فى الهوى وجبا
عطفا عليه ولو بالطيف ان به * وجدا تحمل منه قلبه لهبا
لله الحاظ جفن منك ما طلبت * قلبا الى الحب الا نالت الطلبا
وعذب شهد رضاب كالرحيق غدا * برشفه قد حلت الخمر والحببا

وقامة فضحت غصن النقا ميلا * فكل عذل رآها عقله سلبا
من لى بجلب وصال طالما فقدت * بسلبه النفس لم تبلغ الا ربا
كيف الوصول وواشى المسك يوصفنا * مع الرقيب ونور الوجه ما احتجبا
ارى رسولى اليها بالوفاء اتى * مخبرا أن وعد الوصل قد قربا
ان طال هجرك لا تخشى صدود فتى * يرى عذابك فى اهل الهوى عذبا
كم طاردتنى عذال وكلهم * جوادهم فى طراد العاشقين كبا
ياعاذل الصب فى ذل المحبة هل * شربت من كاسه مثل الذى شربا
دعنى وشوقى انى فى محبتهم * من بعدهم قد عشقت العلم والادبا
وكنت قبل ارى الايام تظلمنى * والآن قد وضعت عن كاهلى النصبا
واليوم اضحت ثنايا الدهر باسمة * تحوى تشير بكف العز مختضبا
واستبشر الناس اذ فى عصرهم وجدوا * لواء عباسهم بالملك قد ضربا
هو الحليم ووصف العدل شيمته * عباس ذو البأس مهما حاول الغضبا
سلالة الفضر انساب مطهرة * كريمة الجد من ذا يجهل النسبا
هم الذين لهم فى الحكم مرتبة * لم يعطها قبلهم من حاول الرتبا
عصابة نجمهم فى الكون مشرقة * سل عنهم ان جهلت العجم والعربا
هذا الوزير الذى ان جاء سائله * لم يبق من ماله شيأ اذا وهبا
هذا الجواد فلا معن يماثله * فلا يصدك عنه عتب من عتبا
هذا الامير الذى ذلت لهيبته * كل الاعادى ولاقوا الويل والحربا
ان اشهروا الحرب لم تمهل سيوفهم * او اوقدوا نارها كانوا لها حطبا
نعم المشير الذى حازت مدائحه * فضائلا فى سناها اشبه الشهبا
مجد أثيل وعزم فى الامور له * حزم متين وكف فى الندى رحبا
قد ساد كل امير بالفخار اذ * فى الناس قد صار اعلاهم بها حسبا
فرع من الدوحة العلياء ان لها * مجدا به صار أعلى المتقين ابا
حامى حمى ملة الاسلام قائدها * كالليث يردى الاعادى اينما وثبا
يامن تفرد فى عز وفى شيم * ومن يشأ و المعالى نال مارغبا

قلدت امر الرعايا فاستعدّ له * يا خير من صار للاصلاح منتخبا
جاءتك منى بكر بالجمال سمت * لا فضة ابتغى منها ولا ذهبا
لكننى ارتجى منها اذا عرضت * أن لا يكون سوى الاقبال مكتسبا
تكفى فخارا ومدحا أن ذكركم * بين الانام ملا الاوراق والكتبا

ولا مانع أن نختم ذلك بقصيدة الجناب المهاب * المولى الشهاب * لما انها من قرآئنه هذا الباب * كيف لا وربها رب الآداب * لتكون مسك الختام * وبدر التمام * قال لا فض فوه * وكل يتصل منه او يشفوه

أجبهة الدهر زانتها حلى غررك * ام لاح يا مصر فى الدنيا سنا قمرك
بشر السنا بالكوكب الوضاح فابتهجى * وانفض الامانى أذ جاءت على قدرك
هذا المقيد السعيد الجد طالعه * فى امنه بالكرى عوضت عن سهرك
ناهيك بالقسور العباس من اسد * يحمى الحمى وهو مستول على سررك
اليه آلت امور الملك فاتسلة * قرى فى مجد خير من يأتى بمؤتمرك
نعم الحليم الذى قالت مراحمه * كفى بحلى الفخار اعتد مفتخرك
يا صاح عش عيشة فى حكمه رغدا * لقد منحت الغنى من بعد مفتقرك
وانظر الى ماترى من حسن سيرته * تشهد محاسن منها تجتلى نظرك
تهنى زمان بعباسى دولته * قد طاب فى روضها الزاهى جنى ثمرك
واستقبلها دولة ايامها ابتسمت * ثغورها وغدت تفتر عن دررك
وقل ايا ملك الاسعاد دمت لنا * والحظ من جندك السامى ومن وزرك
طالت لياليك والعلياء خادمة * والدهر سمح بما تهوى مدى عمرك
نور على نورك الباهى المضى بدا * وأنت فى جحفل الاسنى ومعتركك
فأشرقت مصر واختالت به وزهت * فقبل نلت المنى وازددت فى خفرك
هذى تباشيره قالت مؤرخة * الملك صار قرين الحج فى سفرك

٣٦٠ ٩٠ ٤٤ ٣٦٠ ٣٩١ ١٣١
١٢٦٤

ولما قدم من دار السعادة العلية حائزا رتبة الصدارة العظمى السنيه وتزينت مصر المحروسه لقدوم طلعته المأنوسه قلت مؤرخا الزينة

يا أيها الصدر أقبل * واشرح بمصر صدورا
وأنت يا سعد أرخ * زينت مصرا سرورا

٤٦٧ ٣٣١ ٤٦٧
١٢٦٥

(وقلت ايضا فى التهنئة بالقدوم)

لازلت تسمو فى الفخار وتعظم * فلأنت صدر فى الوزارة اعظم
نهضت بك العلياء من مصر الى * استانة يغم الموالى تلثم
ياحبذا دار السعادة مقصدا * هى كعبة كل اليها يحرم
حرم به ملك الملوك اجلهم * شاهان اهل الخافقين الاكرم
حرم به ظل الاله على الورى * حامى حماة الدين ليث ضيغم
فدخلت فى ذاك الحمى متيامنا * ويحفك الاقبال أين تيمم
ودنوت من عالى الجناب مؤديا * من واجب التشريف بابتسم
بصدارة عظمى خلعت عناية * والصدر مشروح وسعدك يخدم
يوم الضيافة مهرجان حافل * هل ثم عيد مثله او موسم
حسن التوجه منه صار كرامة * صدر سواك بمثلها لا يكرم
سطعت بك الانوار بافق العلا * حتى ازدهت بالنور حولك أنجم
الهام باشا ناجب من ناجب * من طيب غرس اصوله هو ملهم
ما المجد الاقبال خولك وعده * الا وأعز وهم من يتوهم
هى منة المنان فاشكر فضله * هى نعمة الرحمن جل المنعم
ما كل ساع يدرك العليا ولا * داع يجاب لما دعاه ويغنم
يا أيها المولى المولى مصره * كل يظن الخير فيك ويعشم
كل تفاءل بالصباح وبالهنا * حسبان جدك صائب لا يثلم
جد رأى فيك الشهامة فى الصبا * اذ أنت مغرى بالمعالى مغرم
جد توسم فيك تبلغ شأوه * فبلغته لاخاب فيك توسم
جد تفرس فيك تشواره * ولطالما أمسى به يترنم

اذا أحسنت فيك الفراسة رأيها * فدليل حسن الظن فيك مسلم
رحم خطير القدر منك وصلته * وبمثله أنت الأبر الأرحم
طوقت اجياد الاماجد بالندى * كل بجودك واثق مستعصم
رأى سديد للسداد موفق * باع مديد بالصفا يتكرم
وحمايك الدين الحنيف جلالة * فالدين اذ ترعاه دين قيم
لك همة هام الكواكب دونها * لك عزمة هى غارب لا مقصم
ان اضمرت ود العزيز نفوسنا * سر الضمير يكاد يظهره الفم
وان اشتكت مصر نواه برهة * وغدت لبشرى عوده تتبسم
فمع السيادة والسعادة سائر * ومع الكرامة بالسلامة يقدم
هو خاطب العلياء وهى تسومه * هو طالب الجوزاء وهى السلم
سهم جلا فى قاب مضمار العلا * سهم السباق فحاز ما لا يسهم
لا ينكر الركن اليمانى يمنه * وبذاء يعرفه العذيب وزمزم
شد بيت مجدك بالهناء مؤثلا * هذا بناء مثل عدلك محكم
ان شدت فيك قصائدى انشدتها * درر الغير لك لا تكاد تنظم
ان صادفت منك القبول فسعدها * فى ظل اقنان القبول مخيم
دم فى جليل الملك واحكم واحتكم * لا زلت تسمو فى الفخار وتعظم

(وقال ابراهيم افندى مرزوق)

أفى يحمل البشرى بنيل مرام * بشير التهانى من بعيد مرام
فعم الورى بشر تضوع نشره * فأزرى بريا مندل وبشام
وفازت بحمد منه عاقبة السرى * بما كان من مجد ورفع مقام
فتم اغتراب غارب الجد حامل * به كل عز فى أعز سنام
ويا حبذا اسفار فخر وسودد * يلازمها الاقبال كل زمام
فكم أسفرت اسفاره عن مراتب * كالاحت الاقمار غب غمام
فهم طربا يا قلب واغنم مسرة * وأبد من الاشواق كل غرام
فقد زينت أقطار مصر وشرفت * بصدر رحيب الصدر خير همام

بصدر أثيل المجد حاز طريفه * وتالده عن طاهرين كرام

بصدر العلا ليث الوغى قد تعززت * وألهمت الاسعاد بالشبل الهام

سلالة مجد أيدته يد العلا * تحوز رفيع المجد غب فطام

وليدهم يسمو به كل منصب * وجدهم الخير خير امام

فكم زان عباس من المجد والعلا * ومن هم فوق السماك عظام

وزير نشا بين المكارم والعلا * ترى للذكا فيه وميض ضرام

فعن بشره سل من وفود نواله * وعن بأسه من ذابل وحسام

هو الصدر عباس اجل مملك * روى جوده فى الارض كل أوام

يسابق للعليا ويحرز شأوها * ويبدو له فيها مزيد هيام

فاكرم به من ماجد وابن ماجد * يقوم بدين الله اى قيام

فللدين والخيرات منه قوامه * وللملك والدنيا اعز قوام

رعاه الذى استرعاه امر عباده * وأبقاه غيث الجود غوث أنام

له فكر سام ورأى مسدد * ترى منه للاسلام أشجع حامى

فلا زال فى عز منيع وسودد * تسر العلا منه برعى ذمام

ولا زال محفوظ الجناب ممتعا * يقاد له مستصعب بزمام

فيالا ثما فى جوده لعبيده * الام ملام واكتساب اثام

ترى الجود طبعا فيه ليس بمقصر * مدى الدهر عنه بازدياد ملام

فدعنى ونفسى والقوافى ومدحه * وبث ثناء اويعم حمامى

فقد صار مدحى فيه سكرى مصبحا * ومغتبقا لا من كؤوس مدام

فلو شمتنى انشدته المدح خلتنى * ارى الدهر عبدى والزمان غلامى

وقلت أهنى ملك مصر مؤرخا * فبشراه عباس أتى بسلام

٥٨٨ ١٣٣ ٤١١ ١٣٣

١٢٦٥

فبشراه مجدوها وبشراى مادحا * بايجى شار فى بديع نظام

وما الشعر فنى والمديح وانما * يشرف مدحى للوزير كلامى

وما بخل مثلى بالمديح وبالثنا * وجودك خلق زائد وأمامى

قدم للمعالى فوق رأسك تاجها * عزيزا مهابا سعد جدك نامى
وحسن ابتدائى فى مديحك عاطر * تضوع رياه بمسك ختام
وما هو الا كالنسيم لطافة * أنى يعمل البشرى بنيل مرام

(وقال السيد افندى صالح)

هلت لسقنى من شفاه سكريات * فقد صفا الوقت وازدادت مسراتى
وبشرت باللقا ورق مطوقة * فجدت بالروح للورق البشيرات
وكم كتمت غرامى خوف ذى عذل * فباح شوقى بأسرارى الخفيات
وكم سترت الهوى كيما اغالطه * فدل حالى على ما فى طويّاتى
علام تعذل فى ظبى يغازلنى * من قده بعوالى سمهريات
مهفهف قد روى عن مصر مقلته * هاروته نفثات بابليات
اغاران قال عوّادى فديت وما * ابغى الفدا من ضعيفات قويات
سود اذا لمارنت اصمت وما ظهرت * من الجفون ظهور المشرفيات
وكيف يعدى ملام فى هوى رشاه * سبى الورى بجلاه اليوسفيات
ام كيف يسلوه مفتون بطرّته * وعنبر فى خدود عندميات
ومبسم جوهرى طيب نكهته * من طيب اخلاق والينا الزكيات
هو الحفيد حليف العدل ناصره * عباس الآصفى رب المبرّات
صدر صدارته العظمى له صدرت * من ذى المآثر سلطان البريات
عزيز مصر ومولاها الذى قطعت * اسياف آرائه خطب الملمات
فيا له من امير طاب عنصره * اذ ل بالعزم آنافا ابيات
دار الخلافة لما زارها فرحت * وقابلته بأنواع التحيات
ونال ما نال من عز ومن شرف * لو ريم يسلك على الزهر المنيرات
وهنئت مصرنا الغرا بطلعته * وبره وسنيه الكسرويات
هذا الوزير الذى انسى ابن زائدة * وسما تما بالمبرات الجزيلات
هذا الذى لم يزل للعدل ينشره * حتى غدا الجور مطوى السجلات
يامصر تيهى برب المجد وافتخرى * للدهر من اجله كل الاساآت

لان تشرف اقوام بمرتبة * لما رقوها وسادوا بالمقامات
فواحد الدهر مولانا به شرفت * مناصب قد سمت فوق السموات
والدهر جاد على مصر وساكنها * بأسمح الناس من ماض ومن آتى
كل يحق بهذا الداورى وتبا * تزان منه بأخلاق حميدات
واصبحت مصر فى عز وفى ترف * بعدل رب السجايا العادليات
وانشدت صدرها لما ألم بها * هنئت بالفوز من دار السعادات
وهاالزمن عروسا بالحلى ابتهجت * من حسن مدحك لا حسن الجناسات
وكيف لا ولها ياسيدى شبه * بطيب اخلاقك الغر السنيات
ترجو القبول وقد جاءتك منشدة * هات لنسقى من شفاه سكريات

(وقال مصطفى افندى رضوان من تلامذة مدرسة الالسن)

هل بذكرى ناعس الاجفان * قلبى قد صحت به أشجانى
عربية ألفاظه هندية * ألحاظه وتقول بالسنان
فلكم لها بذوى الصبابة معرك * ولكم لها وقع بكل جنان
ومهفهف قد لطفت كاس الطلا * ومعاطف ازرت بغصن البان
وشمائل حكت الشمول ولفتة * فضحت جمالة لفتة الغزلان
دع عنك جلباب التورع والحيا * واثر على سعى عقود جمان
وأدر كؤوس سلافة من ذكره * رقت وراقت فى صفا الادنان
اوليس أن حديثه فى مسمعى * اشهى من الدوكات للندمان
ولقد كتمت عن الوشاة صبابتى * ومدامعى لم ترض بالكتمان
كبدى على ذاك القوام حمامة * طارت جوى من شدة الخفقان
ولكم سهرت صبابة فى حبه * أرعى السهى ما حيلة الولهان
والنجم فى جو السماء كأنه * درر تنظم فى نحور غوان
ان كنت تجهل فى هواه ولهى * شغفا فشانى معرب عن شانى
وارى العدالة ترتجى من قده * او حكم عباس فتى الفتيان
صدر الوزارة والعلا بحر العطا * شرفت به مصر على البلدان

وغدت به مصر تنافس غيرها • فخرا ولا تخشى صروف زمان
سبحان من اولاه حلما قد غدت • فيه رعاياه بظل أمان
ذو هيبة ملء الصدور وصولة • عند النزال وملتقى الشجعان
شهم شمائله المروءة والسخا • بحر عباب دائم الفيضان
اراؤه مثل السيوف قواطع • آلاؤه كالوابل الهتان
لما تحلى بالفصاحة انشدت • في مدحه الشعرا بديع معانى
يروى الوزارة عن أبيه وجده • والعدل عن كسرى انوشروان
ولكونه رب البلاغة والذكا • زفت اليه عرائس الاذهان
ان رمت أن احصى مآثر فضله • نفد المداد وقصرت اوزانى
دم في سماء المجد يا قمر العلا • مترشحا بالعز كل أوان
فلمصر أنت حياتها بل روحها • ولعين هذا العصر كالانسان
لما قدمت لها وقرت عينها • بالمدح أفصح عنك كل لسان
أمنت به مصر فقلت مؤرخا • بولاية العباس امن ثانى

٥٦١ ٩١ ١٦٤ ٤٤٩
١٢٦٥

ولما صادف ثاني يوم ولايته الكتاب الغيث الذي عاد بالمنافع على الزراعية المصرية * غب ما كان من العاهات والمضار الجوية والمائية * تفاءل الناس باليمن والبركة * لاهل هذه المملكة * فقلت

تقلد مصر عباس فجادت * بما فيها من الغيث السحاب
فقال الفال يحصل للرعايا * بفيض سحائبه العجب العجاب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات * والصلاة والسلام على صاحب المعجزات الباهرات * وعلى آله واصحابه *
وعترته واحبابه *
امين

وقد وافق الفراغ من طبع هذا الكتاب الجليل * المشتمل على كل وصف جميل * بدار الطباعة العامره * الكائنة ببولاق مصر القاهره *
يوم الخميس المبارك رابع وعشري صفر الخير (سنة ١٢٦٥)
من الهجرة النبويه * على صاحبها أفضل الصلاة
وازكى التحيه *
امين
تم




مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م)